عالم النفس ALFRD ADLER

مكتبة ٦٢٣

ألفرد آدلر

الحياة النفسيّة

تحليل علميّ لشخصيّة الفرد

ترجمة: محمّد بدران
أحمد محمّد عبد الخالق بك



مكتبة | 623

الحياة النفسيّة

تحليل علميّ لشخصيّة الفرد



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12

هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962

ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ

: AlAhliaBookstore

: alahlia_bookstore

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

الحياة النفسية: تحليل علميّ لشخصيّة الفرد / علم نفس

ألفرد آدلر / النمسا

ترجمة: محمّد بدران / لبنان

أحمد محمّد عبد الخالق بك / لبنان

◆

طبعة الأهليّة الأولى، 2020

◆

تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف ***95297109 7 00962***

لوحة الغلاف: **بن نيكولسون** / إنجلترا

◆

الصفّ الضوئيّ: **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف ***95349156 7 00962***

الترقيم الدولي: ISBN 978-6589-09-874-4

مكتبة | 623

ألفرد آدلر

الحياة النفسيّة

تحليل علميّ لشخصيّة الفرد



ترجمة: محمّد بدران
أحمد محمّد عبد الخالق بك



نرى حقاً علينا أن ننوه بفضل صديقنا الفاضل الدكتور يوسف مراد، فقد تفضَّل بمراجعة هذه الترجمة قبل طبعها، وأشار علينا بعدد غير قليل من المصطلحات العلمية التي أخذنا بها، كما تفضَّل بكتابة مقدمة الترجمة، فله منا على هذا كله خالص الشكر.

المترجمان

مقدمة الترجمة العربية

ما زالت المكتبة العربية في حاجة ماسة إلى الكتب الجديدة في علم النفس والتربية، على الرغم من النشاط الكبير الذي نلاحظه في هذه السنوات الأخيرة في إخراج الكتب العلمية، ونشر البحوث المتنوعة في الفلسفة والعلوم الاجتماعية. ولا شك في أن إقبال الجمهور على قراءة كل ما يتناول أمور النفس وأسرارها، ومشاكل التربية واتجاهاتها المختلفة، كبير جداً يدعو إلى الغبطة والتفاؤل؛ غير أن كثيراً مما يُقدَّم للقراء باسم علم النفس، سواء كان تأليفاً أو ترجمة، مشوه مضطرب تعوزه الروح العلمية الحقة والتعمق في التفكير والدقة في التعبير. وهذا مما يسيء إلى علم النفس كل الإساءة، ويحول دون توجيه الدراسات السيكولوجية في الشرق توجيهاً سليماً منتجاً. فقد يخيل إلى بعضهم أن المقال الذي تتخلله بعض الألفاظ الشائعة كالغريزة والكبت والعقد النفسية مقال في صميم علم النفس، في حين أنه في أغلب الأحيان أقرب إلى السفسطة والخيال منه إلى العلم الصحيح، الذي يمتاز قبل كل شيء بالحذر والتحفظ، والابتعاد عن التعليلات الرخيصة المخلخلة.

يقول علماء الاقتصاد إن العملة المشوهة تطرد العملة الجيدة، كذلك يمكن القول إن البحوث المشوهة التي تغتصب سمة العلم اغتصاباً تحول دون انتشار البحوث القيِّمة الممتازة، لأن تأثير الأولى في عقول القراء يؤدي حتماً إلى النفور من قراءة البحوث العلمية الصحيحة، التي لا يمكن فهمها وتمثيلها إلا بعد بذل المجهود الذي يتجاوز القشور حتى يصل إلى اللب. وقد حان الوقت لأن تحطم هذه الأصنام المتحجرة التي حلّت محلّ الأفكار الحية، ولأن تفتح آفاق جديدة يتدفق منها نور المعرفة الصحيحة.

والكتاب الذي بين أيدينا يُعد بحق فتحاً جديداً في ميدان علم النفس في مصر، ويسرني جداً أن أقدمه إلى قراء العربية، وذلك لسببين رئيسيين: الأول، وهو في رأيي السبب الجوهري، قيمة الترجمة نفسها. وليست قيمتها هذه راجعة فقط إلى جمال الأسلوب وسلاسته، بل ترجع أيضاً إلى العناية الفائقة التي بذلها الأستاذ محمد بدران وزميله الأستاذ أحمد عبدالخالق في توخي الدقة في التعبير وحُسْن اختيار المصطلحات، حتى جاءت الترجمة العربية صورة حية ونسخة صادقة من الأصل الإنكليزي. وهذا السبب الأول جوهري كما قلت لأن المترجم الأخرق من ألد أعداء المؤلف، بل من ألد أعداء الفكر والعلم عامة، لأن تشويه الأصل يُعَد بحق خيانة كبرى تنزل بأجلّ الكتب إلى الحضيض، وتسيء إلى المؤلف والقراء معاً.

أما السبب الثاني فهو حُسْن اختيار المترجمين، فقد وفّقا كل التوفيق في انتخاب الكتاب الذي نحن في أمسّ الحاجة إليه لإصلاح بعض شؤوننا الاجتماعية، ولتحقيق أكبر قسط من السعادة في مقدور الفرد أن يتمتع به، سواء في المنزل أو في المدرسة، أو في محل عمله، أو في حياته الزوجية، أو في مختلف ميادين النشاط الاجتماعي.

وعنوان الكتاب «The Science of Living» ينطبق تماماً على ما يحويه من بحوث شائقة طريفة، تبعث على التفكير العميق والتأمل المجدي. فهو بحق المرشد الأمين إلى إتقان فن الحياة السعيدة المطمئنة، وما أشد حاجتنا في هذه الأيام العصيبة المضطربة إلى الاطمئنان والرضا!

وصاحب الكتاب «ألفرد أدلر» من أساطين علم النفس التحليلي الحديث، وقد انتشر مذهبه الموسوم بعلم النفس الفردي انتشاراً عظيماً في الأوساط العلمية التي تعنى عناية خاصة بالتربية والعلاج النفساني. وقد عرض المؤلف في كتابه هذا لباب نظريته التي فصّل القول فيها في كتبه السابقة[1]، غير أنه أكد فيه الناحية العملية موضحاً آراءه بذكر الأمثلة الكثيرة وتحليلها تحليلاً وافياً شاملاً.

---

(1) نذكر منها: =

لعل الاطلاع على حياة أدلر يفسر لنا المنهج الذي انتهجه في إقامة مذهبه وتنميته. فالفكرة الجوهرية التي يدعو إليها أدلر هي ضرورة بذل المجهود المستمر لكي يعوّض الفرد ما يعهد في نفسه من عجز ونقص، حتى يتيسر له الاندماج الإيجابي في بيئته الاجتماعية، بحيث يصبح عضواً عاملاً في المجتمع، يساهم بقدر طاقته في تحقيق سعادة الآخرين لكي يضمن تحقيق سعادته الشخصية.

ولد أدلر في فيينا عاصمة النمسا سنة 1870. وقد حُرِم وهو في سن الثالثة من عطف أمه، كما أنه حُرِم من التمتع بالنشاط المتدفق الذي يبعث السعادة في عيون الأطفال وقلوبهم، إذ كان ضعيف البنية، قبيح الوجه، وكانت الأمراض تنتابه الواحد تلو الآخر، من كساح وتقلص في البلعوم والتهاب في الرئة، فضلاً عما أصابه من حوادث الطريق المختلفة التي كانت تضطره إلى ملازمة الفراش فترات طويلة. أضف إلى ذلك أنه لم يوفّق في حياته المدرسية أول الأمر، حتى أوشك أبوه أن يخرجه من المدرسة الثانوية ليعلمه صناعة الأحذية. غير أنه نجح أخيراً في التغلب على جميع الصعاب التي كانت تعترضه، حتى تمكن من مواصلة دراساته العالية في الطب وعلم النفس والعلوم الاجتماعية. وفي سنة 1898 ابتدأ في مزاولة طب العيون، ثم اهتم خاصة بالأمراض العصبية.

وكانت فيينا في مستهل القرن العشرين تضارع باريس في الشهرة العلمية، وخاصة في الفلسفة والطب والبحوث السيكولوجية المختلفة. ففي الوقت الذي كان فيه العالِم الفرنسي شركو Charcot وتلميذه بيير جانيه Pierre Janet يسيران ببحوث علم النفس المرضي سيراً حثيثاً، كان فرويد يضع أسس مذهبه في التحليل النفسي مع أفراد جماعته. فانضم أدلر إلى مدرسة فرويد سنة

= Study of Organ Inferiority and its Psychical Compensation
نُشِر بالألمانية سنة 1907 ونُشِرت الترجمة الإنكليزية سنة 1917.

Le temperament Nerveux (1926, 1912).
The Practice and Theory of Individual Psychology (1927, 1920).
Understanding Human Nature (1930, 1929).

1909، غير أنه لم يلبث طويلاً حتى ساءه تعنّت فرويد في فرض آرائه فرضاً على زملائه، ونزوعه القوي إلى السيطرة المطلقة، فاعتزله وكوّن سنة 1912 جماعة علم النفس الفردي. ومن هذه السنة حتى وفاته سنة 1937 أخذ أدلر في نشر مذهبه في ألمانيا وإنكلترا، وخاصة في الولايات المتحدة حيث عيّن أستاذاً في جامعة كولومبيا سنة 1929.

لنظرية أدلر نواح كثيرة جديرة بالدرس والتحليل[1]، غير أني سأكتفي بإشارة موجزة إلى تلك النواحي التي نحن في أمسّ الحاجة إلى دراستها والأخذ بها من الوجهة العملية. اهتم أدلر اهتماماً فائقاً بالمشاكل التي تثيرها تربية الطفل، ولم يكتفِ بدراسة هذه المشاكل دراسة نظرية بحتة، بل اتجه نحو التطبيق المنتج. فهو أول من أنشأ العيادات السيكولوجية لإرشاد الطفل وتوجيهه من الوجهة الخلقية، ومعالجة مشاكله السلوكية واضطراباته النفسية. وما أشد حاجاتنا إلى إنشاء مثل هذه العيادات في مدارسنا الابتدائية والثانوية بل في معاهدنا العليا. فالمشاكل التي تعترض المدرس تزداد كل يوم شدة وإعضالاً مما يحول دون سير الدراسة سيرها السوي المنتج ودون جني الثمار التي نرجوها من التربية الحقة التي ترمي إلى خلق شخصيات قوية متكاملة متزنة. وإذ كان النقص الذي نلمسه في ناشئتنا يرجع بمزيد الأسف إلى قصور البيئة العائلية عن تقديم الغذاء الروحي الذي بدونه تصبح تربية المدرسة عقيمة فاشلة فإن مساهمة المدرسة في إرشاد الطفل إرشاداً منظماً بفضل ما تقدمه العيادات السيكولوجية من خدمات جليلة لا يعود بالفائدة العظمى على الأطفال وحدهم بل يعود بها أيضا على الأسر نفسها إذ إن في وسع الطفل الموجَّه التوجيه السليم أن يؤثر تأثيراً حسناً في بيئته العائلية، ويصلح ما قد يفسده إهمال الوالدين، أو على الأقل جهلهم أصول التربية القويمة الصالحة.

---

(1) سيظهر قريباً باللغة العربية بحث مستفيض في مذهب ألفرد أدلر من الوجهتين النظرية والعملية للأستاذ إسحاق رمزي.

وهناك نقطة ثانية متصلة اتصالاً وثيقاً بتربية النشء وجديرة بكل عنايتنا ألا وهي المشكلة الجنسية. أقول المشكلة الجنسية بوجه عام لا الغريزة الجنسية لأن لأدلر في هذا الميدان رأياً جوهرياً يميّزه كل التمييز عن فرويد وعن جمهرة الذين يطنبون في الكلام على الغريزة الجنسية وما لها من سلطان مطلق على سلوك هؤلاء الأسرى التعساء الذين ينوءون تحت أعباء الذكريات المكبوتة، ويتخبطون كالعمي في أدغال اللاشعور. ليست الغريزة الجنسية بمثابة الكل الذي يضم تحته أجزاء يشكّلها بشكله ويصبغها بصبغته، وليست هي نقطة البدء ونقطة الانتهاء كالدائرة المسحورة التي يستحيل على من تضمهم اجتياز حدودها والتخلص من نيرها القاسي، ولكنها قد تصبح هكذا إذا كان يحلو لنا أن نصورها بمثل هذه الصورة الجهنمية. والإنسان إذا أساء فهم طبيعته ونسي جوهره السامي واستسلم إلى الإيحاءات الكاذبة قد يجد لذة مرضية شاذة في أن يعتقد ذلك في نفسه، فلا غرابة إذن في أن يعجز عن تحطيم هذه القيود المسحورة التي نسجها حول نفسه بمخيلته المريضة المنحرفة.

أما أدلر فيقول لنا إن نقطة البدء ونقطة الانتهاء ليست هذه الغريزة أو تلك بل هي الذات الإنسانية التي تمتاز في جوهرها بالوحدة على الرغم من تعدد مظاهرها، هي الشخصية الجاهدة في تحقيق تكاملها. والغريزة الجنسية، أو بعبارة أصح الوظيفة الجنسية، هي إحدى الوظائف التي يتكون من مجموعها الإنسان، فهي جزء خاضع كبقية الأجزاء للنظام الكلي وهو الشخصية. وسيطرة الكل على الأجزاء -ما دام النمو يسير سيره الطبيعي- سابقة من حيث المبدأ ومن حيث الواقع على ما يقتضيه الجزء من سيطرة على الكل بسبب سوء التوجيه والتربية. والتربية التي نسميها بالتربية الجنسية يجب أن يبدأ بها من اليوم الأول من حياة الطفل، أي أن التربية الجنسية يجب أن تتضمنها التربية العامة التي تتناول الشخصية من جميع نواحيها؛ وذلك دون الإلحاح على جانب دون غيره وخاصة على الجانب الجنسي، لئلا يتضخم فيطغى على النواحي الأخرى، فتنشأ الفوضى ويعم الشخصية كلها التفكك والانحراف. ومن ثم نستطيع أن نفهم ما يقوله أدلر حين يقرر أن المشكلة الجنسية مشكلة نتائج أكثر مما هي مشكلة أسباب.

هذه بعض النواحي التي رأينا أن نشير إليها وهي بلا شك جديرة بأن تسترعي نظر القراء بوجه عام والمربين منهم من آباء ومدرسين بوجه خاص. ولا يسعنا إلا أن نرجو لهذا الكتاب القيِّم ما يستحقه من نجاح حتى يعم نفعه جميع الأوساط.

الدكتور يوسف مراد

كلمة عن المؤلف وكتابه

يسير الدكتور ألفرد أدلر في بحوثه في علم النفس على الطريقة العملية التي يسير عليها علم النفس العام، ولكن أول ما تعنى به هذه الدراسات هو شخصيتنا الفردية كل منها على حدة، ولذلك أطلق عليها اسم «علم النفس الفردي»[1]. وموضوع هذا العلم هو بنو الإنسان الفُرادى المميزون من غيرهم والذين نراهم ونُحس بوجودهم. وليس في وسعنا أن ندرس هذا العلم دراسة حقة إلا ممن يتصلون بنا من الرجال والنساء والأطفال.

وترجع أهمية هذه البحوث، التي أضيفت إلى علم النفس الحديث، إلى الطريقة التي كشفت بها عن كيفية تضافر جميع قوى النفس البشرية لخدمة الفرد، وتوجيه كل مواهبه وجهوده لغاية واحدة. وبذلك يكون في وُسعنا أن ندرك ما لإخواننا من البشر من مُثُل عليا، وما يعترضهم من صعاب، وما يبذلون من جهود، وما يعتريهم من مثبطات؛ فنحصل من ذلك كله على صورة كاملة حية لكل فرد بوصفه شخصيةً مستقلة بنفسها.

وهذه الفكرة الجامعة المنسِّقة تؤدي بنا إلى أبعد درجات البحث أو ما يشبه أبعد درجاته، وإن كان من واجبنا أن نذكر أنها ليست كذلك إلا من حيث الأساس الذي تقوم عليه. وتلك طريقة في البحث لم يسبقها قط ما يماثلها في دقتها وفي إمكان تكييفها، رغم هذه الدقة، لتتبع التقلبات التي تعتري النفس البشرية الفردية، تلك النفس التي هي أكثر الحقائق زوغاناً وتقلباً وأقلّها قابلية للبحث.

(1) Individual Psychology

ولما كان الفرد أدلر لا يرى أن العلم وحده نتيجة اشتراك جهود الإنسانية، بل يرى أن العقل أيضاً أثر من آثار هذه الجهود، فإن شعوره بفضله العظيم على العلم يمتزج به ويخفف منه كثيراً اعترافه بجهود معاونيه، من مضى ومن لا يزال على قيد الحياة. ولذلك كان من المفيد أن نقول كلمة مهما كانت قصيرة عن صلات أدلر بالحركة المسماة بحركة التحليل النفساني، وأن نبدأ بذكر الدوافع الفلسفية التي أوحت بهذه الحركة بوجه عام.

إن تصور اللاوعي على أنه ذاكرةٌ حيوية[1] -أو ذاكرة بيولوجية- من الأفكار المألوفة في علم النفس الحديث بوجه عام. ولكن فرويد وهو من أول الأمر أخصائي في الهستيريا، يُعد ذكريات النجاح والخيبة في الحياة الجنسية[2] أهم الذكريات جميعها؛ بل إنه لا يكاد يرى أهمية لغيرها من الذكريات. ويحاول ينج، وهو من عباقرة الأخصائيين في الأمراض العقلية، أن يوسع هذه النظرة المؤسسة بعمله على إماطة اللثام عن الذكريات العنصرية[3]، ويعتقد أن لهذه الذكريات ما للذكريات الجنسية من القوة، وأنها أعظم منها نفعاً للحياة.

ثم جاء أدلر، وهو طبيب واسع التجارب العامة، فمكّن الصلة بين فكرة اللاوعي وبين الحقائق المستمدة من علم الأحياء. ولما كان أدلر من مدرسة التحليل النفساني الأولى، فقد وصل إلى نتائج كثيرة بتحليل الذكريات من حالتها العاطفية المتجمعة المختلطة إلى حالة الوضوح والتمييز الموضوعية؛ ولكنه أظهر أن نظام الذاكرة بأكمله يختلف في كل فرد عنه في غيره من الأفراد. فالأفراد في رأيه لا يُكوِّنون ذكرياتهم اللاوعيية حول دافع مركزي بعينه لا يتغير فيهم جميعاً كالدافع الجنسي مثلاً، بل يرى أن لكل فرد طريقته الخاصة التي يختار بها تجاربه من بين جميع التجارب الممكنة. فما هو الأساس الذي يقوم عليه هذا الاختيار؟ لقد أجاب أدلر عن هذا السؤال بأن هذا المبدأ الأساسي هو أولاً وقبل كل شيء الشعور العضوي بحاجة ما، أي بنقص خاص يجب أن

---

(1) Vital

(2) Sexual

(3) Racial

يعوض. فكأن كل نفس تشعر بحقيقتها كلها وتعمل بإصرار، دون هوادة، على تعويض ما فيها من نقائص.

وبذلك يمكن أن تُفسَّر حياة الرجل الصغير الجسم مثلاً بأنها كلّها كفاح من جانبه للحصول على العظمة العاجلة بطريقة ما، كما يمكن تفسير حياة الرجل الأصم بأنها سعي منه لتعويض ما ينقصه من عجز عن السمع. على أن المسألة ليست بهذه البساطة بطبيعة الحال، لأن طائفة من النقائص قد تولد مجموعة من الأفكار الموجهة المرشدة، كما أننا نقابل في الحياة البشرية نقائص خيالية ومحاولات خيالية وهمية لتعويضها، ولكن الأساس واحد حتى في هذه الحالات.

والحياة الجنسية لا تسيطر على جميع نواحي النشاط، وليست هذه الحياة في حقيقة أمرها إلا جزءاً من هذه المحاولات الهامة تلتئم معها كل الالتئام؛ لأنها خاضعة قبل كل شيء للانفعال، والانفعال يشكله تاريخ الحياة بأجمعه. ومن أجل ذلك فإن التحليل الذي يعمل على طريقة فرويد وإن كان يصف النتائج الجنسية لنهج خاص من مناهج الحياة وصفاً حقيقياً، ولكنه وصف صحيح بهذا المعنى وحده[1].

والآن وقد أصبح علم النفس لأول مرة جزءاً أساسياً من علم الأحياء، نرى أن ميول النفس ونماء العقل تسيطر عليهما من أول الأمر الجهود التي تبذل لتعويض ما يوجد في الإنسان من نقص في جسمه، أو قصور في مكانته، وبهذه الطريقة ينشأ كل ما هو شاذ أو فردي في ميول الكائن العضوي. وينطبق هذا المبدأ على الإنسان والحيوان، وأكبر الظن أنه ينطبق أيضاً على المملكة النباتية نفسها. ويجب أن تُفهم المزايا والمواهب الخاصة التي تمتاز به الأنواع على أنها أثر من آثار الشعور بالعيوب والنقائص التي يُحس بها النوع في علاقته بالبيئة، والتي عوضها بنشاطه ونموه وتركيبه.



(1) أي بالنسبة لنظرية فرويد الجنسية.

وليس ثمة شيء جديد في فكرة التعويض من حيث هي مبدأ من مبادئ علم الأحياء. ذلك أن العلماء كانوا يعرفون من زمن طويل أن بعض أجزاء الجسم ينمو نمواً غير عادي ليعوِّض ما يصيبه من ضرر في أجزائه الأخرى. فإذا وقفت إحدى الكليتين عن العمل مثلاً نمت الكلية الأخرى نمواً غير عادي، حتى تؤدي عمل الكليتين معاً. وإذا ثُقب أحد صمامات القلب تضخم القلب كله ليعوض ما فقده من قدرة على العمل. وإذا تلفت بعض الأنسجة العصبية حاولت أنسجة أخرى غير عصبية قريبة منها أن تؤدي وظيفة الأعصاب. وجملة القول إن النمو التعويضي في الجسم بوجه عام، إذا اضطُرّ هذا الجسم إلى القيام بعمل غير عادي أو بذل جهود خاصة، أكثر وأظهر من أن يحتاج إلى إيضاح. ولكن الدكتور أدلر هو الذي نقل هذا المبدأ بكليته إلى عمل النفس وجعله من مبادئه الأساسية، وأوضح الدور الذي يمثله في النفس والعقل على السواء.

وليس الأطباء وحدهم هم الذين يوصيهم الدكتور أدلر بدراسة علم النفس الفردي، بل هو يوصي غير الأطباء عامة، والمدرسين خاصة، بهذه الدراسة. ذلك أن التثقيف بدراسة علم النفس قد أصبح من الضرورات العامة التي يجب أن يُدعى الناس إليها على الرغم مما تلقاه من مقاومة، يتذرع أصحابها بأن دراسة علم النفس تتطلب تركيز العقل في حالات المرض والبؤس تركيزاً يضربه ويضعفه. نعم إن ما كتب في التحليل النفساني قد كشف عن أهم الشرور الأساسية وأكثرها انتشاراً في المجتمع الحديث، ولكن المسألة الآن ليست مسألة التفكير في أغلاطنا بل هي وجوب الاستفادة من هذه الأغلاط. لقد ظللنا طوال لوقت نحاول أن نعيش عيشة من يظن أن النفس البشرية ليس لها وجود حقيقي؛ وأن في مقدورنا أن نحيا حياة متحضرة تتعارض مع الحقائق النفسانية، ولا نقيم لهذه الحقائق وزناً؛ وليس الذي ينصح به أدلر هو أن يدرُس الناس كلهم علم النفس المرضي؛ بل الذي ينصح به هو إصلاح المجتمع وإصلاح ثقافته إصلاحاً عملياً قائماً على أساس من علم النفس العلمي الإيجابي الذي وضع مبادئه الأولى. وليس في استطاعتنا أن نفعل

ذلك إذا كنا نرهب الحقيقة فوق ما ينبغي أن نرهبها؛ وليس في وسعنا أن ندرك الأغراض الصحيحة للحياة إدراكاً واضحاً -وهو إدراك لا غنى لنا عنه- إلا إذ عرفنا أكثر من ذي قبل، ما قد وقعنا فيه من الأغلاط. وقد لا نكون راغبين في معرفة الحقائق المُرّة، ولكننا كلما زدنا علماً بالحياة زاد علمنا بالأغلاط التي تعترضنا فيها، كالضوء كلما زاد تركيزاً زادت ظلاله تحديداً.

وليس من المستطاع أن يُستمد علم النفس الإيجابي من الظواهر النفسية وحدها؛ وإذا كان ذلك مستحيلاً فأكثر منه استحالة أن يُستمد من مظاهر المرض وحده. إن هذا العلم يحتاج فوق ذلك إلى أساس تُنظَّم هذه الظواهر بمقتضاه؛ ولم يحجم أدلر عن الاعتراف بهذه الحاجة، وذلك باعترافه بمنطق الصلات الاجتماعية في الدنيا على أنه حقيقة مطلقة من حقائق ما وراء الطبيعة.

فإذا أقررنا هذا المبدأ وجب علينا أن ننتقل إلى النظر في نفسية الفرد من حيث علاقته به. ويمكن تحديد الطريقة التي تربط حياة الفرد الداخلية بالكائن الاجتماعي في ثلاثة من «اتجاهات الحياة» كما يسميها العلماء وهي استجاباته العامة للمجتمع وللعمل وللحب.

وفي وسع الرجل والمرأة أن يعرفا ما لديهما من الشجاعة الاجتماعية إذا عرفا شعورهما نحو المجتمع بوجه عام، نحو أي فرد فيه، ونحو جميع أفراده. ذلك بأن الشعور بالنقص يظهر على الدوام في صورة شعور بالخوف أو بالتردد في المجتمعات، سواء كان المظهر الخارجي لهذا الشعور هو الجبن أو التحدي، أو التحفظ أو الإفراط في القلق؛ فإذا شاهدت في الفرد شعوراً بالريبة، أو العداوة، أو الحذر الغامض غير المحدد، أو الرغبة في الاختفاء، ورأيت هذه الأحاسيس تؤثر في علاقته بالمجتمع بوجه عام، فاعلم أنها كلها مظهر لشيء واحد: هو ميل ذلك الفرد للابتعاد عن الحقيقة، وهو ميل يمنعه عن إثبات ذاتيته. وخير موقف يقفه الفرد من المجتمع، أو على الأصح أن الموقف السوي الذي يجب أن يقفه الفرد من المجتمع، هو موقف المساواة التي لا يؤثر فيها تباين المراكز، على ألا يكون فيه مغالاة ولا تكلف. وتقف الشجاعة الاجتماعية على هذا الشعور، شعور الإنسان بأنه عضو أصيل في الأسرة البشرية؛ ولا

يكون هذا الشعور إلا إذا كانت حياة الإنسان نفسها متناسقة منسجمة. وفي وسع الإنسان أن يستدل على مقدار اطمئنانه إلى نفسه من شعوره نحو جيرانه وأهل مدينته وأمته ونحو غيرها من الأمم، بل إن في وسعه أن يستدل على هذا الاطمئنان من الأثر الذي تحدثه فيه قراءته عن هؤلاء في صحيفة سيارة.

وموقف الإنسان من عمله شديد الصلة أيضاً باطمئنانه إلى نفسه في المجتمع. ذلك أن الإنسان في العمل الذي يحصل منه على حظه من طيبات المجتمع ومزاياه مضطر إلى مواجهة منطق الضرورات الاجتماعية؛ فإذا كان قوي الشعور بضعفه أو بانفصاله عن المجتمع الذي يعيش فيه، حال هذا الشعور بينه وبين الاعتقاد بأن المجتمع سيعرف قدره، بل إنه ليبلغ به الأمر ألا يعمل على أن يُعرف قدرُه، ويقصر سعيه على العمل لسلامته، ولكسب المال أو غيره من الميزات، ويكبت في نفسه ما يعتقد أنه خير ما يستطيع أن يؤديه للمجتمع من الخدمات؛ وتراه يخشى على الدوام أن يقدم أحسن ما عنده، أو يطلب أحسن ما عند الناس، لأنه يخشى ألا يعود عليه بالنفع؛ أو قد تراه يسعى على الدوام لأن يقوم في الحياة الاقتصادية بعمل ثانوي هادئ بعيد عن الأنظار، يستطيع أن يعمل فيه ما يشاء من غير أن يُراعي نفع هذا العمل أو الربح الذي ينتج منه. ولن يقتصر ضرر هذا في كلتا الحالتين على المجتمع بحرمانه خير ما يستطيع أن يؤديه الفرد من الخدمات، بل يتعداه إلى الفرد نفسه، لأن الفرد الذي لم يصل فيه إلى مكانته الاجتماعية الحقة يظل على الدوام مستاء أشد الاستياء. ومن أجل ذلك نرى العالم في الوقت الحاضر غاصاً بالرجال، الناجحين منهم وغير الناجحين في الشؤون الدنيوية، الذين هم في نزاع صريح مع المهنة التي يعملون فيها، فهم لا يؤمنون بنفع هذه المهنة ويُلقون اللوم على الظروف الاجتماعية والاقتصادية؛ وهم في لومهم هذا محقون بعض الحق، ولكن من الحق أيضاً أنهم في معظم الأحوال كانت تعوزهم الشجاعة التي تمكنهم من الكفاح للحصول على خير القيم من أعمالهم الاقتصادية؛ فقد كانوا يخشون أن يطالِبوا بحقهم في أن يُقدِّموا للمجتمع ما يعتقدون أنه خير ما يقدم إليه، أو أنهم كانوا يشعرون باحتقارهم للخدمات التي كان المجتمع يطلب

إليهم أداءها، ومن أجل ذلك سعوا لكسبهم الخاص بروح فردية، أو بروح ماكرة خفية. على أننا لا يسعنا إلا أن نعترف بأن في نظام المجتمع عيوباً وأخطاء كثيرة، تعرِّض الفرد الذي يعتزم أداء خدمات اجتماعية حقة إلى الخطأ في أحكامه، وإلى مواجهة المقاومة الشديدة في كثير من الأحيان. وأشد ما يحتاج إليه هذا الشخص هو شعوره بأنه يكافح ليقدم خير ما يستطيع تقديمه للمجتمع، وأن حاجته إلى المجتمع لا تقل عن حاجة المجتمع نفسه إلى عمله. وليس في مقدور الإنسان أن يحب مهنة لا تتيح له فرص التغلب على الصعاب، ويكتفي فيها بالعمل على التوفيق بينها وبين ظروفه الخاصة.

والموقف الثالث من مواقف الإنسان من الحياة هو موقفه من الحب؛ وهو الذي يحدد مجرى الحياة الغرامية. وإذا كان الموقفان السابقان، موقف الإنسان من المجتمع وموقفه من العمل، قد نُظِّما تنظيماً صحيحاً، فإن هذا الموقف الثالث يكون أيضاً سليماً بطبيعته؛ وإذا كان هذا الموقف خاطئاً ملتوياً، استحال إصلاحه وحده من غير أن يصلح الموقفان الأولان. ومع أن في وسعنا أن نفكر في إصلاح مهنتنا الاجتماعية، فإن تركيز الفكر في مشكلة الفرد الجنسية لا يزيد هذه المشكلة إلا تعقيداً، وذلك لأنها مشكلة نتائج أكثر مما هي مشكلة أسباب. فالنفس التي لم تفلح في الحياة الاجتماعية العادية، أو التي خابت في مهنتها، تتصرف في الحياة الجنسية تصرف من يحاول أن يحصل على عوض عما عجز عن الإفصاح عنه في ميادينه الصحيحة، وذلك خير وجه لفهم جميع السورات الجنسية، سواء أدت هذه السورات إلى اعتزال الفرد للمجتمع، أو إلى الحط من شأن الشريك الجنسي، أو إلى شذوذ هذه الغريزة والتوائها بطريقة ما. والصداقات التي يكونها الفرد جزء أساسي من حياة الحب عامة؛ وليس ذلك لأن الصداقة هي عبارة عن تسامي الجاذبية الجنسية، كما كان المحللون النفسانيون يظنون، بل لأن الأمر عكس هذا تماماً. فالإكراه الجنسي -أي العلاقة الجنسية إن أصبحت عاملاً نفسانياً عاصياً متمرداً- ليس إلا حالة نفسية شاذة قد حلّت محل الصداقة النافعة الوثيقة التي تبعث الحياة في النفس. وليس الاتصال الجنسي بين شخصين من جنس واحد في جميع الحالات إلا نتيجة للعجز عن الحب.

والمعنى الذي نفهمه من الإحساسات وقيمتها لدينا، يتصلان كذلك اتصالاً وثيقاً بالحياة الغرامية، كما أوضح ذلك كثير من الشعراء المجيدين. ذلك أن شعورنا نحو الطبيعة، وتأثرنا بجمال البحر والبر، وبالمعاني التي يوحيها إلينا الشكل والصوت واللون، وما نشعر به من الثقة والاطمئنان وسط مناظر العواصف والظلمة، كل هذا مما توحيه طهارة الحب ونقاوته، ولذلك فإن الحياة التي تقدر الجمال وتعنى به وما يفيده منها الفن والثقافة، هذه الحياة مشتقة أصولها مما يتصف به الأفراد من شجاعة اجتماعية ورغبة في العمل النافع.

ولا ينبغي لنا أن نعد إحساس الإنسان بالصلة التي بينه وبين المجتمع من الأشياء التي يصعب خلقها، وذلك لأن هذا الإحساس طبيعي متأصل فينا تأصل الأنانية نفسها، بل إننا إذا نظرنا إليه من حيث هو عنصر من العناصر الأولية للحياة، ألفينا له السبق على الأنانية. وليس بنا حاجة إلى أن نخلُقه خلقاً، بل كل ما يجب أن نفعله هو أن نطلقه إذا كان مقموعاً، لأنه العامل المنقذ في الحياة بشكلها الحاضر. وإذا كان في الناس من يظن أن الأعمال التي يقوم بها رجال السيارات العامة، والطرق الحديدية، وبائعو اللبن، يستطاع أداؤها على الوجه الذي تؤدَّى به الآن من غير أن يكون لدى القائمين بها قسط كبير من الشعور الغريزي بما بينهم وبين المجتمع من صلات، إذا كان في الناس من يظن هذا الظن، فإن إدراكه للأشياء يكون بلا شك إدراك الإنسان المصاب بأشد أنواع الاضطراب النفسي. ولا شيء يمنع الإحساس بتلك الصلة إلا غرور النفس البشرية الشديد، وهو غرور خفي دقيق لم يستطع عالم محترف من علماء النفس قبل أدلر أن يوضحه، وإن كان بعض رجال الفن قد تكهنوا بوجوده عند جميع الناس. وإن المطامع التي تسيطر على عقول صغار الصحفيين، أو صغار البائعين -بله عظماء الرجال في العالم- لتكفي لإسقاط أكبر مَلَك في السموات، وإن كانت هذه المطامع، في غالب الأحيان، خفية لا يدركها أحد. وكل شعور بالنقص، نغَّص على الإنسان صلته بالحياة، قد أضاف قسطاً جديداً إلى ما يتصوره الإنسان في نفسه من العظمة، وقوَّى هذا الخيال ووسَّع نطاقه حتى لم يعد يكفي لتهدئة سورته أن يكون لصاحبه السيادة على هذا العالم، بل

أصبح يتطلب أن يُخلق له عالم جديد يكون هو ربه الأعلى. فالطبيعة البشرية عميقة بعيدة القرار، ويتضح لنا ذلك من دراسة حالات المقاومة السلبية والتسويف والتمارض، أكثر مما يتضح من دراسة المطامع العملية مهما عظمت، وذلك لأن هذه الحالات هي التي تدل أوضح دلالة على أن الشخص الذي يشعر بعجز مؤلم عن السيطرة على العالم الحقيقي يأبى أن يتعاون مع هذا العالم مهما أصابه من الضرر من جراء موقفه هذا. والغرض الذي يرمي إليه هو أن يسيطر على عالم أضيق من هذا العالم وأن يستبد وحده به مدفوعاً إلى ذلك بشعور خاطئ غير معقول يصور له أن العالم الحقيقي، إذا لم ينل منه مساعدته القدسية الربانية، تصدع في يوم من الأيام وانكمش حتى يلائم قدره الضئيل ولا يزيد عليه[1].

ولا بد إذن من أن يواجهنا هذا السؤال: وما حيلتنا إذا كان في النفس البشرية هذا الميل إلى الاغترار الشديد الذي لا نريد أن نزيده شدة على شدته بأن نفرض أننا أفذاذ في هذا العالم لا مثيل لنا فيه؟ يجيب أدلر عن هذا السؤال بأننا يجب أن نقف من تجاربنا موقفاً خاصاً يسميه هو الموقف «الوسط»، وهو الموقف الذي يسمح للعالم أو للمجتمع أو للشخص الذي نتصل به أن يكون له نصيب من الصواب مساوٍ لنصيبنا نحن منه؛ أي أننا يجب ألا نستخف بشأننا أو بشأن الوسط الذي نعيش فيه، بل نفترض أن الصواب مقسم نصفين بيننا وبين هذا الوسط؛ ولذلك فإن من واجبنا أن نعمل على إثبات وجودنا بقدر ما نعمل على إثبات وجود سوانا. وليس يَصْدُق هذا على ما نتصل به من النفوس البشرية فحسب، بل يصدق كذلك على انفعال عقولنا بالجو المَطير، وبما نعجز عن التمتع به من عطلة أو نعيم، بل وعلى السيارة العامة التي عجزنا عن اللحاق بها.

---

(1) إذا بدا للقارئ في هذا شيء من المبالغة فإنا نذكر له أن أكثر الطوائف تعصباً وأضيقها عقلاً، دينية كانت أو غير دينية، تعتقد كلها بأن نكبة كبرى سوف تحل بالعالم، أي أن العالم الذي خرجوا منه ويئسوا من حمله على اعتناق آرائهم سيحل به الدمار والخراب ولا يبقى منه إلا بقية صغيرة تعتنق آراءهم وتؤمن بها.

وإذا فُهم هذا الميل الأعلى فهماً صحيحاً، لم يكن فيه شيء من الذلة الكريهة الصعبة على النفس؛ ذلك أن الإنسان إذا وضع نفسه موضع المساواة في الوجود والعظمة مع سائر المخلوقات مجتمعة أياً كانت الصورة التي يشاهدها عليها، فإنه يضع نفسه في منزلة غاية في السمو والرفعة، وإذا طلب لنفسه منزلة أقل منها كان ذلك هو التواضع الكاذب، لأن كل اتصال بيننا وبين غيرنا يقف نصف حقيقته على الطريقة التي نحقق بها نحن هذا الاتصال. ومن ثم كان من واجب الفرد أن يؤكد نصيبه في كل ما يحدث له، وأن يرى في هذا النصيب نصفه الخاص به.

وكثيراً ما يصعب على الإنسان أن يتبع هذه النصيحة فيما يختص بمهنته. ذلك أن الناس في أعمالهم يواجهون حقائق أكثر سفوراً من التي يسمح بظهورها عادة في الحياة الاجتماعية. ويكاد يكون مستحيلاً في كثير من الأحيان أن يعترف الإنسان بأن في مطالبه من جهة، وفي العالم المضطرب المخْتل النظام من جهة أخرى، نصيباً متساوياً من الصحة. أما إذا اعترف بذلك فإن هذا الاعتراف يكون تسليماً منه بأن أحوال العالم بالحالة التي هو عليها هي مشكلة الإنسان الحقة وميدان عمله الحق. ولقد كان نظام توزيع العمل، على الرغم مما فيه من النفع وعلى الرغم من انطباقه على قواعد المنطق، فرصة أتيحت لجنون العظمة في بني الإنسان، خلقت به بين الناس فروقاً كاذبة، ومميزات ومظالم أصبحنا بسببها نعيش في حالة اقتصادية مضطربة لا تكاد تتماسك عناصرها؛ وكثيراً ما يجد خيار الناس أن من الصعب عليهم أن يثابروا على مقاومة هذه الظروف السيئة وأن يعترفوا بحقيقته ويعملوا على إصلاحها، بل إنهم ليجدون لديهم من المعاذير ما يغريهم بقبول هذه الفوضى؛ وقد يلجأون في علاجها إلى وسائل سطحية لا تمت إلى المشكلة الأساسية بصلة ما، وتراهم أحياناً ينظرون إلى حياة العمل كأنها رجس كتب عليهم أن يلوثوا بما فيه من قذارة متأصلة، ولا يعلمون أن هذه النظرة تميت ضمائرهم وتبعث فيهم الغرور والكبرياء. وقلة من الناس من يدرك أن الطريقة المثلى لعلاج هذه الحالة هي أن يأتلفوا مع غيرهم ممن يشتركون معهم في مهنتهم وأحوالهم، وأن يثبتوا ما لهذه المهنة من

كرامة بوصفها إحدى الخدمات الاجتماعية، وأن يصلحوا من شأنها. قلما يدرك الناس ذلك؛ مع أن الفرد لا يستطيع أن يوفق بينه وبين وظيفته الاقتصادية توفيقاً حقاً إلا إذا سلك هذه السبيل. وإن كثيراً ممن يشكون مر الشكوى من الظروف السائدة في عملهم لا يفعلون شيئاً قط لإصلاح نظام هذا العمل باعتباره وظيفة من وظائف الحياة الإنسانية، ولا يفكرون مطلقاً في علاج فوضى الفردية التي هي علة اضطرابه وفساده. ويقرر علم النفس الفردي في صراحة ليس فيها غموض أن من واجب كل إنسان أن يجعل الجو الذي يحيط بمهنته، أياً كان نوعها، جو أخوة وصداقة، وأن يكون هو ومن يعملون معه وحدة اجتماعية تشيع فيها روح معنوية قوية من التعاون؛ كم يقرر أن الإنسان إذا لم يشأ أن يفعل ذلك كانت حالته النفسية مزعزعة مضطربة. نعم إن كثيراً من المهن في الوقت الحاضر يجعل العبء الذي يتطلبه القيام بهذا الواجب عبئاً شاقاً غاية في الصعوبة، ولكن تلك الصعوبة نفسها هي التي تحتم على الإنسان أن يبذل ما يستطيع من الجهد للاضطلاع به على الوجه الأكمل. ذلك أن عمل الإنسان لا يُطلِق كل القوى الكامنة في نفسه إلا إذا بذل كل جهد لجعله مظهراً لكيانه بأجمعه. ولهذا يجب عليه ألا ينظر إلى مهنته على أنها مجرد سلطة تنفيذية يستقل هو فيها بالعمل، بل يجب أن ينظر إليها على أنها سلطة تنفيذية وسلطة تشريعية له بعض الحق في توجيهها. وإذا ما سار الإنسان في حياته العملية على قاعدة الموقف الوسط الذي أسلفنا ذكره، وقدرها هذا التقدير، أدى به ذلك إلى الاعتراف بالحقيقة الواقعة ومواجهتها بالطريقة العملية الوحيدة وهي طريقة التعاون ما في ذلك شك.

وليس للمبادئ التعليمية التي ينطوي عليه علم النفس الفردي قيمة ما إذا لم ينضم إليها السعي العملي للوصول إلى هذا التنظيم الاجتماعي. وإن ما قلناه من قبل عن واجب الفرد في مهنته لينطبق معظمه على وظيفته الاجتماعية بقضها وقضيضها؛ ويدخل في وظيفة الإنسان الاجتماعية عضويتُه العاملة في أمته، وفي الإنسانية بأسرها، وفي أسرته قبل ذلك بطبيعة الحال. إن في العالم برلماناً لا تنفض دورتُه، وتخضع الجمعيات المنتخبة كلها آخر الأمر لأحكامه؛

وهو يجتمع في المدارس والأسواق وفي كل مكان في البر والبحر، لأنه برلمان الإنسانية عامة؛ وكل كلمة أو نظرة يتبادلها أعضاؤه، سواء أكانت مجاملة أم اتهاماً، وسواء أصدرت عن حكمة أم عن سفاهة، لها خطرها في شؤون الجنس البشري. ومن الخير لكل إنسان أن يعمل على أن تكون هذه الجمعية البشرية العامة أكثر اتحاداً، وأن يكون نقاشها أكثر وضوحاً؛ إذ ليس لأحد منا وجود إنساني إلا إذا كان مستمداً منها. فإذا كانت اجتماعاتها هادئة سمت حياتُنا كلها، وتقدمت الصحة، ونمت الثروة، وازدهرت العلوم والفنون؛ أما إذا غلب على نقاشها التحفظ والريبة تعطل الناس ومات الرجال جوعاً واضمحلت صحة الأطفال؛ وإذا اشتد فيها الخصام واللجاج مات الناس بآلاف الآلاف؛ وكل قراراتها التي تحيا بها أو تموت، وترقى بها أو تضمحل، متأصلةٌ في مواقفنا الفردية بإزاء جميع الناس، رجالهم ونسائهم وأطفالهم، وفي كل ما له صلة بالحياة.

وإذا ما واجهنا هذه الحقيقة الناشئة من علاقة النفوس البشرية جميعها بعضها ببعض، ومن التبعة الملقاة عليها بعضها نحو بعض، فماذا يكون تفكيرنا في الاضطراب الداخلي الذي يجيش في نفس الإنسان المصاب بالأمراض النفسية؟ أليس هذا الاضطراب مجرد ضيق في دائرة اهتمامه، وإفراط في تركيز العقل على بعض المآرب الشخصية الخاصة بالفرد دون غيره؟ إنما يصاب الإنسان بالاضطراب النفسي إذا عامل سائر البشر كأن حياتهم وأغراضهم أقل أهمية من حياته هو وأغراضه؛ وبذلك يفقد اهتمامه بكل أنواع الحياة الواسعة الخارجة عن نطاق حياته الفردية وكثيراً ما يحدث نقيض هذا، فيفكر المصاب بهذا الداء في مشروعات واسعة لإنقاذ نفسه وغيره من الناس، فيدعي لنفسه من الذكاء ما يحاول به تعويض ما يشعر به من العزلة والضعف في المجتمع الإنساني بالمبالغة في أهمية نفسه وفي نشاطه في عمل الخير، فيرغب مثلاً في إصلاح التعليم، وإلغاء الحروب، ونشر الإخاء العام بين بني الإنسان، أو في خلق ثقافة جديدة في العالم؛ وقد يبلغ به الأمر أن يضع الخطط لتأليف جمعيات تعمل لهذه الأغراض، أو ينضم إلى جمعيات قائمة لتحقيقها. ولا حاجة إلى

القول بأنه يفشل في هذه الأغراض؛ لأن اتصاله بغيره من الناس وبالحياة بوجه عام اتصال خاطئ غير قائم على معرفة الحقائق الواقعة؛ فكأنه في هذه الحالة قد اتخذ موقفه خارجاً عن دائرة الحياة كلها، وشرع يحاول توجيهها بفن خفي من فنون السحرة.

والحياة الحديثة في المدن بوجه خاص، وما يحيط بها من جو فكري، تفسح المجال واسعاً أمام المصاب بالاضطراب النفسي لأن يستعيض عن عدم رغبته في مخالطة الناس بأن يتوهم في نفسه القدرة على إصلاح ما في العالم من فساد. ونتيجة ذلك تفكك الشعب الذي يكثر فيه هؤلاء المنقذون الذين لا وئام بينهم ولا ائتلاف.

والذي يحتاجه العالم بطبيعة الحال شيء يختلف عن هذا كل الاختلاف؛ فهو لا يتطلب أن ينبذ الفرد كل أمل في إصلاح العالم، لأن جزءاً من تبعة مستقبل الجنس البشري بأجمعه ملقى على عاتقه؛ تلك حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، ومن أجل ذلك كان من الواجب عليه أن ينظر نظرة تدبر وحكمة إلى ما وهب من القدرة على إنقاذ المجتمع بعد أن يلم بأحواله إلماماً صحيحاً من وجهة نظره هو. ويجب أن يصبح قادراً على أن ينظر إلى علاقاته الشخصية المباشرة وإلى ما يقوم به من أعمال نظرته إلى أشياء ذات شأن عالمي كبير، لأن لها في الحقيقة هذا الشأن الكبير، إذ هي وحدها التي تجعل للفرد معنىً عالمياً. فإذا كانت هذه العلاقات والأعمال مضطربة أو خاطئة، فسبب هذا الاضطراب والخطأ أننا في تجاربنا اليومية لا نفهم أن لهذه العلاقات والأعمال معنىً عالمياً. نعم إننا في بعض الأحيان نعدّها ذات شأن خطير، ولكنا نعدها كذلك من الناحية الشخصية الفردية دون غيرها.

ومن أصعب الأشياء أن يُخضَع ميل النفوس في هذه الأيام إلى تضييق دائرة اهتمامها من الوجهتين العملية والفكرية، وذلك لأن طريقة إدراكنا العقلي للأشياء تقوي هذا الميل بدل أن تنقصه، ومن أجل هذا لا يستطيع الفرد وحده أن يتغلب عليه إلا في أحوال نادرة جداً. فهو إذن في حاجة إلى الاتصال بعقول غير عقله، وإلى اتصال من نوع جديد كل الجدة. فإذا صمم على أن ينظر إلى ما

حوله من الأشياء، وإلى نواحي نشاطه اليومي، كأنها هي وحدها أهم ما يجب أن يُعنَى به في الحياة، فإن ذلك يخلق للفرد مشاكل مع القوى الداخلية في نفسه، وهي القوى التي تقاوم هذه النزعة؛ وكثيراً ما يؤدي أيضاً إلى مشاكل خارجية ليس في وسعه أن يدركها على الفور، ولا يستطيع غيره من الناس أن يقدروها حق قدرها إلا إذا كانوا هم أنفسهم ممن يعانونها. ولذلك تتطلب ممارسة علم النفس الفردي من طلابه أن يبحث كل منهم زميله، وأن ينظر إلى شخصيته كلها على أنها وحدة. ومن أصعب الأشياء بطبيعة الحال أن يبدأ الإنسان هذه الممارسة التي تقوض أركان الفردية الخاطئة، وهي أساس الأمراض النفسية بكافة أنواعها؛ ولكن نجاحه فيها هو الذي يقف عليه مستقبل التحليل النفساني من حيث هو عامل مؤثر في الحياة بأوسع معانيها خارج نطاق العيادات الطبية وغرف الاستشارة.

ولقد ظهر أثر الجماعات التي تقوم بهذا العمل في دائرة التعليم في مدينة فيينا، ففيها أحدث التعاون الذي نشأ بين المدرسين والأطباء المحترفين انقلاباً خطيراً في علم بعض المدارس، وأوجد نوعاً من المساواة بين المدرسين والتلاميذ، وبين التلاميذ بعضهم وبعض. وقد أفلحت هذه المساواة في شفاء كثير من الأطفال مما فيهم من ميول إجرامية وبلادة وخمول. وقد وُجد أن إلغاء التنافس وبث روح التشجيع مما يطلق نشاط التلاميذ والمدرسين. وأخذت هذه التطورات تؤثر في محيط الحياة العائلية، وهي الحياة التي لا بد أن تدخل في دائرة البحث ساعة تبدأ المدرسة تنظر في أمر الطفل من الناحية النفسانية. وليست دائرة التعليم وحدها هي الدائرة التي يجب أن يغزوها نشاط تلك الجماعات وإن كانت بطبيعة الحال أولى بالدوائر؛ بل إن الأوساط التجارية والصناعية والأوساط السياسية التي تأثرت أشد التأثر بجمود الحياة الحاضرة، كلها في حاجة إلى أن يبعث فيها الحياة علمُها بالطبيعة البشرية التي غابت عنها كيفية إدراكها.

وقد أنشأ الفرد أدلر الجمعية الدولية لعلم النفس الفردي لتقوم بهذا العمل خاصة؛ أي بإطلاق قُوًى جديدة تعمل في الحياة اليومية وتقوم

بإصلاحها. ولقد كان من أثر هذه الجهود أن أخذت الأفكار من الآن تتجه نحو التفكير في سلوك الإنسان من جميع نواحيه. وكان للناس أن يأخذوا هذا العمل على أنه أقرب الأشياء إلى سفاسف علم الأخلاق لولا ما يؤدي إليه من نتائج عملية وما يستند إليه من طرق علمية. وكبار المفكرين الصينيين هم أكثر الناس شبهاً بأدلر في إدراكه الواقعي لما لمشكلة الفرد من صفة اجتماعية، وفي إقامة الدليل القاطع على أن الصحة والأخلاق المنسجمة وحدةٌ مرتبطة غير قابلة للانفصال. وإذا لم يكن العالم الغربي في هذه الأيام قد اشتطّ في تفكيره، حتى لم يعد قادراً على الانتفاع بخدمات هذا العالِم، فإن المستقبل كفيل بأن يجعل منه كنفشيوس الغرب.

فيليب ميرت



الفصل الأول

علم تدبير الحياة

يقول الفيلسوف الكبير وليم جيمس William James إن العلم الصحيح هو العلم الذي يتصل بالحياة من قرب؛ وفي وسعنا أن نضيف إلى ذلك أن النظريات والأعمال تصبحان وحدة لا تكاد تقبل التجزئة في العلم الذي يتصل بالحياة من قرب. ولما كان علم الحياة يتشكل بحركات الحياة نفسها فإنه يصبح هو العلم الذي يعلمنا كيف ندبر الحياة. وهذه الآراء تنطبق بنوع خاص على علم النفس الفردي، لأن هذا العلم ينظر إلى الحياة الفردية من جميع نواحيها، ويعد كلّ انفعال وكل حركة وكل دافع مظهراً يعبر به عن موقف الفرد من الحياة. ويعد هذا العلم بالضرورة من العلوم العملية لأن المعلومات التي نستمدها منه تعيننا على إصلاح نظرتنا إلى الحياة، وعلى تبديل هذه النظرة إذا اقتضيا الأمر، وبذلك يكون علم النفس الفردي علماً تنبؤياً بمعنيين مختلفين: فهو أولاً يتنبأ بما سيحدث، ولكنه يتنبأ به ليمنع حدوثه، كما فعل النبي يونس.

وقد نشأ علم النفس الفردي من الجهود التي بُذِلت لفهم تلك القوة الغريبة المبدعة في الحياة، وهي القوة التي تفصح عن نفسها بالرغبة في النماء والسعي والظفر بالنتائج، وفي تعويض النقص في ناحية وبالسعي إلى النجاح في ناحية أخرى. وهذه القوة غائيّة وتفصح عن نفسها بالعمل لبلوغ هدف معين؛ وتشترك في هذا العمل جميع حركات الإنسان جسمية كانت أو نفسية. لذلك كان من السخف أن تدرس الحركات الجسمية والأحوال العقلية مجردة، دون

أن تدرس صلتها بالفرد كاملاً. فمن السخف مثلاً في علم النفس الجنائي أن يعنى بالجريمة أكثر مما يعنى بالمجرم، مع أن المجرم أولى بالدرس من الجريمة. ومهما أمعنا في التفكير في الجريمة نفسها فليس في وسعنا أن نفهم حق الفهم ما تنطوي عليه من إجرام إلا إذا نظرنا إليها على أنها حادث من حوادث حياة فرد من الأفراد. وقد يكون الفعل الخارجي الواحد جريمة في حالة ما وغير جريمة في حالة أخرى؛ ولهذا كان من المهم أن نفهم الظروف المحيطة بالفرد، أي هدف حياته الذي يحدد الاتجاه الذي تتجه إليه كل أعماله وحركاته. وهذا الهدف هو الذي يعيننا على تفهم المعنى الخفي الكامن وراء أعماله الفردية، فنراها جميعاً أجزاء من كل. وعكس هذا صحيح أيضاً، أي أننا إذا درسنا الأجزاء -على شريطة أن ندرسها على أنها أجزاء من كل- كان إدراكنا لهذا الكل أحسن وأوفى.

أما أنا شخصياً فقد نشأ اهتمامي بعلم النفس من ممارسة علم الطب، وقد كانت هذه الممارسة هي التي عودتني النظر في العلل الغائية، وفي الأغراض المقصودة المتعمدة التي لا بد منها لفهم حقائق علم النفس. ففي الطب نرى أعضاء الجسم كلها تعمل لأغراض معينة محدودة، كما أن لهذه الأعضاء صوراً معينة تبلغها متى كمل نموها. وإذا كان ثمة نقص في بعض الأعضاء نرى الطبيعة على الدوام تبذل جهوداً خاصة للتغلب عليه أو تعويضه بتنمية عضو آخر يؤدي عمل العضو المصاب بهذا النقص. ذلك أن الحياة تعمل دائماً للإبقاء على نفسها، ولا تخضع قوّتها للعقبات الخارجية دون كفاح.

وحركات النفس شبيهة بحركات الحياة الجسمية؛ ففي كل عقل فكرة الغرض أو المثل الأعلى؛ وهي الرغبة في تخطي الحالة الراهنة والتغلب على النقائص والصعاب الحاضرة بتحديد غرض واضح للمستقبل. وبفضل وجود هذا الغرض أو الهدف الواضح يستطيع الفرد أن يفكر ويشعر بأنه أكبر من الصعاب الحاضرة، لأنه يفكر في نجاحه في المستقبل. ولولا هذا الإحساس بالهدف لما كان للنشاط الفردي معنى مطلقاً.

وتدل الشواهد كلها على أن تحديد هذا الهدف -أي إعطاءه صورة مجسمة- يبدأ في حياة الإنسان المبكرة في عهد الطفولة التكويني. ففي ذلك

الوقت ينشأ لدى الإنسان مثاله الأول أو صورة الشخصية الناضجة التي يريد أن تكون له. وليس من الصعب علينا أن نتصور طريقة نمو هذا المثال. فالطفل لضعفه يشعر بما فيه من نقص ويجد نفسه في ظروف لا يقوى على تحملها، ولذلك يعمل لكي ينمو، ويكون هذا النمو في الاتجاه الذي يحدده الهدف الذي يختاره لنفسه. والمادة التي يستخدمها الطفل لنموه في هذه المرحلة أقل شأناً من الغرض الذي يحدد اتجاه هذا النمو. وليس من السهل علينا أن نعرف كيف يحدد هذا الهدف، ولكن الذي لا شك فيه أن هذا الهدف يوجد بالفعل، وأنه يسيطر على كل لحظة من حياة الطفل. كذلك لا نعرف إلا النزر اليسير عن القوى والدوافع والعلل، ومواطن القوة والضعف في هذا العهد المبكر؛ وليس ثمة ما يرشدنا إلى هذه المعرفة في ذلك الوقت لأن الاتجاه لا يحدد تحديداً نهائياً إلا بعد أن يعين الطفل هدفه؛ ويتعذر علينا أن نتنبأ بالخطى التي سوف يخطوها الطفل في المستقبل إلا بعد أن نرى الاتجاه الذي تتجه إليه حياته.

وعندما يتكون المثال الأول -أي الشخصية المبكرة التي تنطوي على الهدف- يحدد بعد ذلك خط الاتجاه، ويصبح الفرد وقد حدد موضعه تحديداً نهائياً؛ وهذا هو الذي يمكننا من أن نتنبأ بما سوف يحدث له في حياته المستقبلية. ومن ذلك الحين يتأثر إدراك الفرد للأشياء بخط اتجاهه؛ ذلك أن الطفل لا يرى الحالات التي أمامه في الصورة التي هي عليها في الواقع، بل يراها حسب نظام خاص من الإدراك العقلي، أو بعبارة أخرى إنه يرى الحالات التي تواجهه متأثراً في ذلك بما توحيه إليه نواحي اهتمامه الخاصة.

ومما عرف من الحقائق الطريفة ذات الصلة بهذا الموضوع أن الأطفال المصابين بنقص في أجسامهم يربطون كل تجاربهم بوظيفة العضو المصاب بالنقص. فالطفل المعمود مثلاً يُظهِر اهتماماً غير عادي بالأكل؛ والشخص الضعيف البصر تشغله المرئيات أكثر مما يشغله غيرها من الأشياء. وهذا الاهتمام يتفق مع نظام الإدراك العقلي الخاص الذي قلنا من قبل إنه يميز كل فرد من غيره من الأفراد. وقد يظن، بناءً على ذلك، أننا إذا أردنا أن نعرف دائرة اهتمام طفل من الأطفال لم يكن علينا إلا أن نعرف العضو المصاب بالنقص من أعضاء جسمه؛ لكن الأمور لا تجري على هذا النظام الهيِّن، فالطفل لا يشعر

بالنقص في عضو من أعضائه بالطريقة التي يُشاهَد بها هذا النقص من ينظر إليه من الخارج، ولكنه يشعر بذلك النقص معدلاً حسب نظام إدراكه العقلي. ومن ثم نرى أنه وإن كان النقص الذي يصاب به عضو من أعضاء الجسم ذا شأن في نظام إدراك الطفل العقلي، فإن ملاحظة النقص من الخارج لا يُستدَل منها حتماً على نظام الإدراك العقلي نفسه.

والطفل في حقيقة الأمر يسبح في جو من النسبية؛ شأنه في هذا شأننا جميعاً، إذ ليس فينا من وُهِب نعمة معرفة الحقيقة المطلقة، والعلم ذاته لم يوهب معرفة الحقيقة المطلقة، بل هو قائم على الإدراك الفطري العام. ومعنى هذا أنه دائم التغير، وأنه يقنع بأن يستبدل بالأغلاط الكبرى أغلاطاً أصغر منها. فكلنا يخطئ ولكن الشيء المهم أننا نستطيع أن نصحح أخطاءنا، ويكون هذا التصحيح في وقت تكوين المثال الأول أسهل منه في أي وقت آخر. على أننا إذا لم نصحح أغلاطنا في ذلك الوقت، كان في وسعنا أن نصححها فيما بعد، إذا تصورنا ظروف ذلك الوقت بتمامها. وإذا وجب علينا في وقت من الأوقات أن نعالج شخصاً مصاباً بالاضطرابات النفسية، لم تكن المشكلة التي يجب علينا أن نحلها هي أن نعرف الأخطاء العادية التي يرتكبها في حياته بعد أن أصيب بهذا المرض، بل تنحصر هذه المشكلة في معرفة الأخطاء الأساسية التي ارتُكبت في حياته المبكرة، عندما كان مثاله الأول في دور التكوين؛ فإذا عرفنا هذه الأخطاء أمكننا أن نصححها بالعلاج النافع لها.

وبهذا يقل شأن مشكلة الوراثة في ضوء علم النفس الفردي. فبمقتضى هذا العلم لا يكون الشيء المهم هو ما ورثه الإنسان عن أبويه، بل ما يفعله بما ورثه في حياته المبكرة أي بمثاله الأول الذي تكوَّن في محيط الطفل وبيئته. ولسنا ننكر بطبيعة الحال أن قوانين الوراثة هي سبب العيوب الجسمية الموروثة، ولكن واجبنا في هذه الحالة ينحصر في إزالة هذه الصعوبة الخاصة ووضع الطفل في الوسط الصالح الملائم له؛ بل إنه ليصح لنا أن نقول إن مهمتنا في هذه الحال غير عسيرة، لأننا وقد رأينا النقص نعرف ماذا نفعل بعلاجه. وكثيراً ما يحدث أن الطفل الصحيح الجسم الذي لم يرث قط عيوباً

تسوء حاله من أثر سوء التغذية أو الأخطاء التي ترتكب في تربيته، أكثر مما تسوء حال الطفل الذي ورث هذه العيوب.

وأهم شيء في حالة الأطفال الذين يولدون وفي أجسامهم نقص هو الوضع النفساني الذي هم فيه. ذلك أن هؤلاء الأطفال يُظهِرون أدلة واضحة على غلوّهم في الشعور بالنقص؛ لأنهم يوجدون في أحوال أصعب من التي يوجد فيها سواهم، فتراهم في الوقت الذي يتكون فيه مثالهم الأول أكثر اهتماماً بأنفسهم منهم بغيرهم، وهم يميلون إلى الاستمرار على ذلك في مستقبل حياتهم. وليس النقص الجسمي وحده هو سبب ما يرتكب من الأغلاط في تكوين المثال الأول؛ بل إن ظروفاً أخرى قد تنشأ عنها الأغلاط نفسها. ومن أمثلة ذلك الأطفال المدللون والأطفال المكروهون. وستتاح لنا الفرصة فيما بعد لوصف هذه الأحوال وصفاً أوفى وأدق، وعرض أمثلة واقعية توضح الحالات الثلاث التي هي أشد من غيرها معاكسة للطفل ونموه السليم، وهي حالات الأطفال ذوي العيوب الجسمية والأطفال المدللين والأطفال المكروهين. وحسبنا في هذا المقام أن نقول إن هؤلاء الأطفال ينشأون في ظروف تعوق تقدمهم، وإنهم على الدوام يخشون الاعتداء عليهم لأنهم نشأوا في جو لم يعرفوا فيه معنى الاستقلال.

ومن الضروري أن يعرف من بادئ الأمر ما يعنى به الطفل من الناحية الاجتماعية، لأن هذه العناية أهم ما تقوم عليه تربيته ومعاملته وإصلاح عيوبه. ولن يفيد من صعاب الحياة ومزاياها إلا ذوو الشجاعة والثقة بالنفس والاطمئنان إلى العالم، لأن هؤلاء لا يخشون شيئاً، فهم يعرفون أن في الحياة صعاباً، ولكنهم يعرفون أيضاً أن في مقدورهم أن يتغلبوا على هذه الصعاب. وهم على استعداد لمواجهة مشاكل الحياة كلها لأنها، أياً كانت صورتها، مشاكل اجتماعية. والواجب على الإنسان -لأنه إنسان- أن يهيئ نفسه لأن يكون سلوكه في الحياة سلوكاً اجتماعياً. والثلاثة الأنماط من الأطفال سالفي الذكر ينمو مثالهم الأول ضعيف الصلات الاجتماعية لأنهم ينقصهم ذلك الاتجاه العقلي الذي يمكنهم من أن يؤدوا ما يجب عليهم أداؤه في الحياة، أو أن يحلوا مشاكلها. فإذا شعروا بالهزيمة وقف مثالهم الأول من مشاكل الحياة موقفاً

خاطئاً، واتجهوا في نمو شخصياتهم إلى الجانب غير النافع من الحياة. وواجبنا، عندما نعالج هؤلاء المرضى، أن نوجه سلوكهم إلى الجانب النافع من الحياة، وأن نجعلهم بوجه عام يقفون من الحياة والمجتمع موقفاً نافعاً.

ولا فرق مطلقاً بين من ليست لهم ميول اجتماعية ومن يتجهون نحو الناحية غير النافعة من الحياة؛ وأولئك هم الأفراد الذين تتألف منهم جماعات الأطفال المعضلين، وجماعات المجرمين والمعتوهين والسكيرين. وواجبنا نحوهم أن نعرف الوسائل التي نستطيع بها أن نؤثر فيهم تأثيراً يعود بهم إلى الجانب النافع من الحياة، ونحملهم على الاهتمام بغيرهم من الناس. وعلى هذا الاعتبار يكون علم النفس الفردي في حقيقة الأمر علم نفس اجتماعي.

وإذا ما خلقنا في الفرد الميول الاجتماعية وجب علينا بعد ذلك أن نبحث عن الصعاب التي تواجهه في نموه. ويبدو هذا الواجب لأول وهلة شاقاً محيراً أكثر من الواجب الأول، ولكنه ليس في الحقيقة كثير التعقيد. فمن الحقائق الثابتة أن كل طفل مدلل يصبح طفلاً مكروهاً. ذلك أن من شأن مدنيتنا أن تجعل المجتمع والأسرة غير راغبين في أن يستمر التدليل إلى الأبد. فالطفل المدلل لا يلبث أن يواجه مشاكل الحياة، فيجد نفسه في المدرسة وسط نظام اجتماعي جديد، وأمام مشكلة اجتماعية جديدة، فتراه لا يميل إلى الكتابة أو اللعب مع زملائه لأن تجاربه لم تعِدّه لحياة المدرسة المشتركة، بل إن هذه التجارب التي اجتاز بها مرحلة تكوين مثاله الأول تجعله يخشى هذه الظروف ويتطلع إلى استمرار التدليل. وليست خصائص هذا الطفل وأمثاله من الخصائص الموروثة، وفي وسعنا أن نستنتجها إذا عرفنا طبيعة مثاله الأول وهدفه. ولما كان نموذج هذا الطفل متصفاً بتلك الصفات الخاصة التي تحتم عليه السير في الاتجاه الموصل لهدفه، فليس في وسعه أن تكون له خصائص تميل به إلى السير في غير هذا الاتجاه.

والخطوة الثانية في علم تدبير الحياة هي دراسة الشعور الوجداني، وهذا الشعور يسيطر عليه خط المحور، أي خط الاتجاه الذي يحدده الهدف، كما يسيطر على خصائص الفرد وحركاته الجسمية وتعبيراته وأعراضه الخارجية

العامة. ومن أجدر الأشياء بالملاحظة أن الأفراد يحاولون على الدوام أن يبرروا مواقفهم بشعورهم الوجداني. فإذا أراد الإنسان مثلاً أن يعمل عملاً طيباً فإن هذه الفكرة تعظم حتى تسيطر على حياته الانفعالية كلها. لكننا نستطيع أن نقرر أن الوجدانات تتفق على الدوام مع نظرة الفرد إلى واجبه، وهي تقوِّي فيه ميله إلى النشاط. لكننا مع ذلك نفعل على الدوام ما نريد أن نفعله، ولو لم يتدخل في ذلك شعورنا الوجداني، وكل ما لهذا الشعور من أثر أنه يصحب أعمالنا ويسير إلى جانبها.

وفي وسعنا أن نرى هذه الحقيقة واضحة جلية في الأحلام. ولعل الكشف عن القصد من هذه الأحلام كان من أهم نتائج بحوث علم النفس الفردي. وقد عرف أن لكل حلم غرضاً بطبيعة الحال، وإن كانت هذه الحقيقة لم تعرف إلا في هذه الأيام. والغرض من الحلم -إذا عبرنا عنه بعبارات عامة غير مخصصة- هو أن يوجد حركة معينة في الشعور الوجداني والانفعالات النفسية، وهذه الحركة تزيد هي أيضاً في حركة الحلم. ومن الطريف أن نوازن بين هذه الفكرة وبين الفكرة القديمة التي كانت تقول إن الحلم خداع في جميع الأحوال. فالأحلام ليست خداعاً، بل إن الإنسان ليحلم بالطريقة التي يريد أن يكون عليها سلوكه في يقظته. وليست الأحلام إلا تكراراً انفعالياً للخطط والاتجاهات التي نريد أن يكون عليها سلوكنا في اليقظة، ولكنه تكرار لرواية قد لا تمثل قط. وبهذا المعنى دون غيره يمكن أن نسمي الأحلام خداعاً - لأن الخيال الانفعالي يبعث فينا نشوة العمل غير مصحوبة بالعمل نفسه. وإنا لنجد هذه الخاصية من خواص الأحلام في حياة اليقظة أيضاً. فنحن نميل ميلاً قوياً إلى أن نخدع أنفسنا من الناحية الانفعالية، ونريد دائماً أن نقنع أنفسنا بأن نسير في الطريق التي كانت مُثُلنا الأولى تسير فيها عندما تكونت في السنة الرابعة أو الخامسة من سني حياتنا.

ومن أجل هذا كان تحليل المثال الأول هو المرحلة الثانية من مراحل الخطة التي سنسير عليها في هذا العلم، وقد قلنا من قبل إن المثال الأول يكون قد تم تكوينه في السنة الرابعة أو الخامسة، ولذلك كان علينا أن نبحث عن

الآثار التي تنطبع على الطفل في ذلك الوقت أو قبله. وهذه الآثار متنوعة ومختلفة أكثر مما نتصوره إذا نظرنا إليها بعين الرجل العادي الكامل النمو. ومن أكبر المؤثرات في عقل الطفل شعور القمع الناشئ من إفراط الأب أو الأم في العقاب أو السب. وهذا الأثر يدفع الطفل إلى العمل على التخلص من هذا القمع، وقد يفصح عن عمله هذا أحياناً بالعزلة النفسانية. ولذلك فإن بعض البنات اللاتي يكون آباؤهن سريعي الغضب تتكون لهن مُثُل أولى تصد عن الرجال لأن هؤلاء الرجال كانوا سريعي الغضب. وقد يصد عن النساء الأولاد الذين تقمعهم أمهاتهم القاسيات. ويعبِّر الأبناء عن هذا الصد بطرق مختلفة، فقد يصبح الغلام مثلاً حيياً خجولاً، أو قد يفسد من الناحية الجنسية (وليس هذا الفساد في الحقيقة إلا طريقة أخرى من الصد عن النساء)، وهو غير موروث بل ينشأ من البيئة التي تحيط بالطفل في هذه السنين.

والأغلاط التي يقع فيها الطفل في بدء حياته وخيمة العاقبة عليه؛ ولكن الطفل على الرغم من هذه الحقيقة لا يلقى من الإرشاد إلا قليلاً؛ فالآباء لا يعرفون نتائج خبرتهم، وإن عرفوها فإنهم لا يعترفون بها لأطفالهم، ولذلك يسير الطفل في الحياة على هواه.

ومن أغرب الأشياء أننا لا نجد طفلين حتى من بين الأطفال الذين يولدون في أسرة واحدة ينشآن في وسطين متشابهين كل المشابهة؛ فالجو الذي يحيط بكل طفل حتى في الأسرة الواحدة يختلف كل الاختلاف عن غيره من الأجواء. فالمعروف مثلاً أن الطفل الأول من أطفال الأسرة تحيط به مع الأسف طائفة من الظروف لا تشابه ما يحيط بسائر الأطفال، فهو في أول الأمر وحيد الأسرة، وهو من أجل ذلك موضع عنايتها والتفاتها. فإذا ما وُلد للأسرة طفل ثانٍ وجد الأول نفسه وقد أُنزِل عن عرشه من فوره، وهو لا يحب هذا الوضع الجديد؛ وحين يشعر أنه قد زال عنه ما كان له من قوة عَدَّ ذلك مأساة من مآسي حياته؛ ولهذا الشعور أثر في تكوين مثاله الأول، وهو يبرز في خصائصه حين يكمل نموه. ولدينا أمثلة واقعية تدل على أن أمثال هذا الطفل يفشلون ويفسدون على الدوام.

ومن الفروق الأخرى في محيط الأسرة الواحدة ما يلقاه الأولاد من معاملة تختلف عما تلقاه البنات. فالآباء يقدِّرون الأبناء عادة أكثر من البنات، والبنات يعامَلن كأنهن لا يستطعن أن يؤدين عملاً ما، ولذلك ينشأن مترددات مرتابات على الدوام، ويظللن طول حياتهن كثيرات التردد، وتنطبع في نفوسهن فكرة أن الرجال وحدهم هم القادرون على أن يقوموا بعمل ما.

يضاف إلى هذا أن المركز الذي يشغله الطفل الثاني في الأسرة مركز خاص، فريد في نوعه. فهو يختلف كل الاختلاف عن مركز الطفل الأول. ذلك أنه يجد له على الدوام زميلاً يسير معه ويترسم خطاه. ويحدث عادة أن يتغلب الطفل الثاني على أخيه، لأن أكبر الطفلين قد ساءه أن يكون له منافس، وهذا الاستياء يؤثر آخر الأمر في مركزه في الأسرة، فهو يخشى هذه المنافسة ولا يحسن أداء عمله، ومن أجل ذلك تنحط منزلته ويصغر شأنه في نظر أبويه شيئاً فشيئاً، وتأخذ منزلة الطفل الثاني في الارتفاع. أما هذا الطفل الثاني فيرى أمامه على الدوام أخاه السابق له، ولذلك يكون معه في سباق مستمر، وتفصح خواصه كلها عن هذا المركز الخاص الذي يشغله في محيط الأسرة، وتراه فيها متمرداً لا يعترف بقوة أو سلطان.

وتقص التواريخ والأساطير حوادث كثيرة عن تفوق أصغر الأبناء على إخوتهم. ومن هؤلاء يوسف الذي أراد أن يتغلب على إخوته كلهم؛ ولم يغير من تفكيره هذا أن أبويه قد رزقا ولداً آخر بعد أن ترك هو بلاده، وذلك لأنه لم يعرف عن هذا الأخ شيئاً. ونجد هذا الوصف بعينه في جميع القصص الخرافية، فنرى أصغر الأبناء على الدوام صاحب الشأن الأكبر فيها. وفي وسعنا أن نعرف كيف تنشأ هذه الخصائص في عهد الطفولة الأولى، وكيف لا يستطيع الفرد أن يبدلها حتى يزداد فهماً واستبصاراً. فإذا أردنا أن نصلح من حال الطفل وجب علينا أن نُفهمه ما حدث في أوائل طفولته، وأن نبين له أن مثاله الأول يؤثر في كل مواقفه من الحياة تأثيراً خاطئاً مستديماً.

ومن الوسائل النافعة التي تعين على فهم المثال الأول، وفهم طبيعة الفرد تبعاً لذلك، دراسة الذكريات القديمة، وتضطرنا كل معلوماتنا

وملاحظاتنا إلى الحكم بأن هذه الذكريات مستمدة من مثالنا الأول. والمثل الآتي يعين على توضيح هذه المسألة. خذ مثلاً لذلك طفلاً مصاباً بعاهة جسمية وليكن ضعيف المعدة مثلاً. إن هذا الطفل إذا تذكر أنه رأى شيئاً فأكبر الظن أن يكون هذا الشيء ذا صلة ما بالمأكولات. أو خذ طفلاً أعسر تر أن عسره هذا يؤثر في وجهة نظره؛ وقد يحدثك شخص عن أمه التي دللته أو عن ولادة طفل أصغر منه، وقد يقول لك كيف كان يُضرَب إذا كان له أب حاد الطبع، أو كان يهاجَم إذا كان طفلاً مكروهاً في المدرسة. كل هذه أدلة كبيرة القيمة على شريطة أن تعرف الفن الذي تستطيع به أن تدرك معناها.

وفن فهم الذكريات القديمة يتطلب حظاً وافراً من التعاطف، وهو القدرة على أن ننظر إلى الطفل في ظروف طفولته بعين الطفل نفسه؛ وبهذا التعاطف وحده نستطيع أن ندرك الأثر القوي الذي يُحدِثه في حياة الطفل مولد طفل آخر للأسرة أصغر منه، أو الأثر الذي ينطبع في عقل الطفل عندما يسبّه أب حاد الطبع سريع الغضب.

ونؤكد بهذه المناسبة تأكيداً مَهْما قوى لا يمكن أن نُتَّهم بالمبالغة فيه، وهو أنه لا فائدة تُرجى من العقاب والتحذير والوعظ، وأن لا رجاء في صلاح الطفل أو اليافع إذا لم يعرف أي شيء من أحواله يجب أن يتغير. فإذا لم يفهم الطفل ذلك أصبح أخبث مما كان وأكثر جبناً. على أن مثاله الأول لا يمكن تغييره بالعقاب والوعظ، كما لا يمكن تغييره بتجاربه في الحياة دون غيرها، لأن تجارب الحياة تكون عندئذ مسيرة حسب طريقة الفرد الخاصة في الإدراك العقلي. وإذن فليس في وسعنا أن نُحدِث أي تغيير في حياة الفرد، إلا إذا وصلنا إلى معرفة شخصيته الأساسية.

وإذا رأيت أسرة أطفالها سيئو النشأة، تبينت أنهم يشعرون شعوراً قوياً بالنقص، وفي وسعك أن تعرف هذا الشعور من أعراضه ومظاهره، وإن بدا لك أنهم كلهم أذكياء، إذا فهمت من الذكاء أنك إذا سألتهم سؤالاً أجابوك عنه الجواب الصحيح. ولا حاجة للقول بأن الذكاء ليس هو الإدراك الفطري العام، فإن للأطفال عقلية شخصية تستطيع أن تسميها عقلية خاصة بهم من

نوع العقلية التي يجدها الإنسان في المصابين بالاضطرابات النفسية، فالمصاب بالاضطراب النفسي الناشئ عن الإرغام يدرك مثلاً أن صرف الوقت في إحصاء عدد النوافذ باستمرار عبث ومضيعة للوقت، ولكنه لا يستطيع الامتناع عن إحصائها. والشخص الذي يهتم بالأشياء النافعة لا يفعل مثل هذا الفعل أبداً. ومن خصائص المعتوهين أيضاً أن يكون لهم لغة خاصة ونوع من الفهم خاص، ذلك بأن المعتوه لا يتكلم لغة أصحاب الإدراك الفطري العام السليم التي تمثل أرقى أنواع الاهتمام الاجتماعي.

وإذا وازنا بين حكم الإدراك الفطري العام وحكم الفهم الخاص وجدنا الحكم الأول في العادة قريباً جداً من الصحة، فبالإدراك الفطري نميز الطيب من الخبيث. ويحدث عادة في الأحوال المعقدة أن نخطئ في هذا التمييز ولكن الأخطاء تصلح نفسها بنفسها بحركة الإدراك الفطري نفسها. أما الذين يتطلعون على الدوام لفائدتهم الشخصية فليس في وسعهم أن يميزوا الخطأ من الصواب بالسهولة التي يميزه بها غيرهم. ويبدو عليهم عجزهم عن هذا التمييز، لأن حركاتهم كلها تشف عن هذا العجز.

خذ الإجرام مثلاً: إنك إذا فحصت عن ذكاء المجرم وإدراكه والباعث له على ارتكاب الجريمة، رأيت أنه على الدوام يعد جريمته عملاً من أعمال المهارة والبطولة، فهو يعتقد أنه قد بلغ بجريمته هدفاً من أهداف التفوق، وهو أنه كان أمهر من رجال الشرطة، وأن في وسعه أن يتغلب على غيره من الناس. فهو إذن يرى نفسه بطلاً، ولا يرى أن أعماله تدل على حالة هي أبعد ما تكون عن البطولة، وأنها تختلف عنها كل الاختلاف؛ وإن نقص اهتمامه الاجتماعي، ذلك النقص الذي يوجه نشاطه إلى الناحية غير النافعة من الحياة، ليتصل بنقص في الشجاعة والجبن، وإن كان هو لا يعرف ذلك. ومثله كمثل أولئك الذين يصرفون جهودهم في الناحية غير النافعة من الحياة، والذين تراهم في كثير من الأحيان يخشون الظلام والوحدة، ويرغبون في الوجود مع غيرهم من الناس، وذلك جبن من غير شك، ويجب أن يوسم بهذه السمة. وخير طريقة لمنع الإجرام هي أن نقنع كل إنسان أن الإجرام دليل على الجبن.

ومن المعروف أن بعض المجرمين إذا اقتربوا من سن الثلاثين اتخذوا لهم عملاً شريفاً وتزوجوا وأصبحوا في مستقبل أيامهم من خيار المواطنين. فما الذي حدث لهؤلاء فبدّل حالهم؟ انظر إلى السارق مثلاً. كيف يستطيع سارق في سن الثلاثين أن ينافس سارقاً في سن العشرين؟ إن ثانيهما أمهر وأقوى من الأول؛ ثم إن المجرم متى بلغ الثلاثين اضطر إلى أن يحيا حياة تخالف حياته السابقة، ونتيجة ذلك أن صناعة الإجرام لا تعود عليه بعدئذ بنفع كبير، ولذلك يجد من السهل عليه أن يتخلى عنها.

ومن الحقائق التي يجدر بنا ألا نغفلها قط فيما يتعلق بالمجرمين أن تشديد العقوبة لا يرهب المجرم بل يزيد من إيمانه ببطولته. ويجب ألا يغيب عن بالنا أن المجرم يعيش في عالم ينحصر همّه فيه في نفسه، عالم لا يجد فيه شجاعة حقة ولا ثقة بالنفس ولا إدراكاً فطرياً عاماً سليماً ولا فهماً للقيم العامة. وليس في وسع مثل هذا الشخص أن ينضم إلى مجتمع ما. ولذلك فإن المصابين بالاضطرابات النفسية قلما يتخذون لهم نوادي، وهو عمل لا يستطيع أن يأتيه المعتوهون ولا المصابون بداء كره المجتمعات. وشواذ الأطفال والذين ينتحرون لا يرتبطون مع غيرهم برباط الصداقة أبداً؛ ولم يتقدم أحد بإيضاح سبب هذا، ولكن هناك مع ذلك سبباً، فهم لا يصادقون غيرهم، لأن حياتهم الأولى قد وُجِّهت توجيهاً جعلهم يحصرون اهتمامهم في أنفسهم، كما أن مُثُلهم الأولى قد وُجِّهت نحو أهداف خاطئة، وسارت في اتجاهات على الجانب غير النافع من الحياة.

والآن فلنبحث في المنهج الذي يقدمه علم النفس الفردي لتربية المصابين بالاضطرابات النفسية وتدريبهم – ومنهم الأطفال المصابون بهذا الداء والمجرمون والسكيرون الذين يلجئون إلى السُّكر ليفروا من الجانب النافع من الحياة.

فإذا أردنا المبادرة إلى فهم مشاكل هؤلاء كان علينا أن نبدأ بالسؤال عن الوقت الذي نشأت فيه المشكلة. وسنجد أن منشأها يُعزى عادة إلى ظرف طارئ جديد، ولكن هذا زعم خاطئ، لأن بحث حال المريض يدلنا على أنه في حقيقة الأمر لم يكن قد أُحسن إعداده لاستقبال هذا الظرف الطارئ وقت

حدوثه. ولقد بقيت أخطاء مثاله الأول خفية غير ظاهرة، طالما وجد في ظروف ملائمة له، لأن كل حالة جديدة وجد فيها تُعَد بمثابة اختبار يستجيب له حسب طريقة الإدراك العقلي، التي أوجدها مثاله الأول. وليست استجاباته مجرد رد فعل لهذه الحالات بل هي استجابات مبتكرة ملائمة لهدفه الذي له السيطرة عليه طوال حياته. وقد دلتنا التجارب في أول عهدنا بدراسة علم النفس الفردي على أن في وسعنا أن نغفل أهمية الوراثة. ونحن نرى أن المثال الأول للإنسان يستجيب للتجارب بما يلائم طريقته الخاصة في الإدراك العقلي. وهذه الوسيلة من وسائل الإدراك العقلي هي التي يجب أن يعتمد عليها في الوصول إلى نتائج أيّاً كان نوعها.

هذا مجمل مبادئ علم النفس الفردي الذي نشأ في الخمس والعشرين سنة الأخيرة. وفي وسعنا أن نقول إن هذا العلم قد قطع مرحلة طويلة في اتجاه جديد؛ ذلك أنه توجد أنواع جمة من علم النفس، كما يوجد كثيرون من الأطباء النفسانيين. فترى عالماً نفسانياً يتجه هذا الاتجاه، وترى عالماً غيره يتجه اتجاهاً آخر، وليس فيهم من يعتقد أن غيره على صواب. ولعل من واجب القارئ نفسه أن لا يؤمن بأقوالهم وألا يأخذها على علاتها، بل عليه أن يوازن بينها، وسيرى أننا نحن لا نؤمن بما يسمونه علم النفس «الدافعي Drive Psychology»[1] وخير من يمثله في أمريكا هو «مكدوجل McDougall»، لأن من أهم الدوافع في نظرهم الميول الموروثة؛ كما أننا لا نؤمن بما يسمونه «الأفعال العكسية الشرطية» و«ردود الأفعال» التي يقول بها السلوكيون، ونعتقد أن من العبث أن يُبنى مصير الفرد وأخلاقه على الدوافع وردود الأفعال إلا إذا فهمنا الهدف الذي تتجه إليه هذه الحركات كلها، وليس في هذه الأنواع من علم النفس نوع يسير في تفكيره على أساس الأهداف الفردية.

نحن لا ننكر أنه إذا ذكر لفظ «هدف» فإن فكرة القارئ عنه تكون في الغالب غامضة غير واضحة، ولذلك فإن هذه الفكرة في حاجة إلى الإيضاح والتمثيل. إن وجود هدف للإنسان معناه النهائي الأعلى أن صاحبه يأمل أن

---

(1) الذي يقول بوجود عدد كبير من الدوافع الغريزية.

يكون إلهاً قديراً، ولكن التشبه بالإله هو الهدف الأسمى بطبيعة الحال أي هدف الأهداف، إن جاز هذا التعبير. ومن واجب المربين أن يحذروا أشد الحذر أن يكون هدف من يقومون بتربيتهم من هذا النوع. والواقع أن الطفل في أثناء نموه يستبدل بهذا الهدف الأسمى هدفاً أوضح وأقرب منالاً، فالأطفال ينظرون إلى أقوى شخص في البيئة المحيطة بهم ويتخذونه نموذجاً أو هدفاً لهم. وقد يكون هذا الشخص أباهم وربما كان أمهم، فقد يقلّد الولد الذكر أمه إذا حالها أقوى من يتصل به، وقد يرغب الأطفال فيما بعد أن يكونوا سائقي عربات لأنهم يعتقدون أن سائق العربة أقوى من يرونه من الناس.

فإذا تصور الأطفال هذا الهدف سلكوا سلوك السائق وقلّدوه في شعوره وملابسه، واتصفوا بكل الصفات التي تلائم هدفهم هذا، ولكنهم لا يكادون يرون الشرطي يأمر وينهى حتى يصبح هذا السائق في نظرهم لا شيء. وقد يصير هدفهم فيما بعد هو الطبيب أو المدرس لأن المدرس يستطيع أن يعاقب الطفل فيصبح في نظره رجلاً قوياً واجب الاحترام.

ويرى الطفل أمامه رموزاً مجسمة يختار منها هدفه، ويكون الذي يقع عليه اختياره في واقع الأمر دليلاً على ما يهتم به من الناحية الاجتماعية. وقد سئل صبي مرة عما يريد أن يكون في مستقبل حياته فأجاب «إني أريد أن أكون جلاداً»، وهو جواب يدل على أن الطفل لا يهتم بالمجتمع لأنه أراد أن يكون المتصرف في الحياة والموت فحسب أي في حق من حقوق الله وحده؛ لقد أراد أن يكون أعظم قوة من المجتمع، ولذلك اتجه نحو الحياة غير النافعة. ورغبة الطفل في أن يكون طبيباً تتشكل أيضاً حول رغبته في التشبه بالله في سيطرته على الحياة والموت، ولكن الهدف في هذه الحالة الأخيرة يتحقق عن طريق العمل لخدمة المجتمع.

الفصل الثاني

عقدة النقص[1]

إن استخدام لفظي «الوعي» و«اللاوعي» للدلالة على عاملين متميزين استعمال خاطئ في نظر علم النفس الفردي؛ ذلك بأن الوعي واللاوعي عاملان يسيران معاً في اتجاه واحد وليسا متناقضين كما يظن الكثيرون، بل إنه لا يوجد بينهما حد واضح يفصل أحدهما عن الآخر. فلم يبقَ إذن إلا أن نتبين الغرض الذي يتجهان نحوه معاً. وليس في مقدورنا أن نقول هذا وعي وذاك لاوعي، إلا بعد أن ندرك الصلة بينهما كاملة؛ وهذه الصلة مما يكشف عنه المثال الأول أي أسلوب الحياة الذي حللناه في الفصل السابق.

وفي وسعنا أن نوضح الصلة الوثيقة بين الوعي واللاوعي بالحادثة الواقعية الآتية: كان رجل متزوج في الأربعين من عمره يشكو اضطراباً من نوع معين، هو رغبته في أن يقفز من النافذة، ولكنه كان يقاوم هذه الرغبة على الدوام؛ وكان فيما عدا هذا سليماً في كل شيء، فقد كان له أصدقاء، وكان في منصب حسن، وكان يعيش سعيداً مع زوجته. وحالته هذه لا يمكن فهمها إلا على أنها نتيجة لاشتراك الوعي واللاوعي معاً. فأما من ناحية الوعي فقد كان الرجل يحس بأنه يجب عليه أن يقفز من نافذة، ولكنه مع ذلك ظل يعيش، بل إنه في الواقع لم يحاول قط أن يقفز من نافذة، وسبب ذلك وجود ناحية أخرى

---

(1) Inferiority Complex وهي التي يسميها بعضهم مركب النقص أو عقدة القصور أو «الدونية».

من حياته، ناحية يقوم فيها الكفاح ضد الرغبة في الانتحار بدور خطير. وكانت نتيجة تعاون الجانب اللاواعي من حياته مع الجانب الواعي منها أن خرج الرجل من الكفاح منتصراً، ومعنى هذا أنه في «أسلوب حياته» -إذا تعجلنا فاستعملنا هذا اللفظ الذي سنذكر عنه الشيء الكثير فيما بعد- قد انتصر ونال هدف التفوق. وقد يسأل القارئ كيف يشعر هذا الرجل بالتفوق وفيه هذا الميل الواعي إلى الانتحار؟ والجواب أنه كان في حياة الرجل شيء يكافح الميل إلى الانتحار، وكان انتصاره في هذا الكفاح هو الذي أناله الظفر وجعله إنساناً ناجحاً متفوقاً. فإذا نظرت إلى الأمر من الناحية الموضوعية وجدت أن ضعف هذا الرجل هو الذي هيأ له سبيل الكفاح من أجل التفوق، وتلك في كثير من الأحيان حال الأشخاص الذين يحسون بنقص في ناحية من النواحي. ولكن المهم في حالة هذا الرجل أن كفاحه الخاص وسعيه للتفوق، أي للحياة وللظفر، قد غلبا على شعوره بالنقص ورغبته في الموت، وهذا على الرغم من أن الشعور بالنقص والرغبة في الموت كانا يظهران في حياته الواعية، في حين أن كفاحه من أجل التفوق كان يحدث في حياته اللاواعية.

ولننظر الآن هل يؤيد نمو المثال الأول لهذا الرجل هذه النظرية. ولنبدأ بتحليل ذكريات طفولته. لقد علمنا أنه قد لقي في حياته الأولى متاعب في المدرسة، فلم يكن يحب غيره من الأولاد، وكان يرغب في الابتعاد عنهم، ولكنه مع ذلك استجمع قواه كلها للبقاء معهم ومواجهتهم، أي أنه في هذا الوقت المبكر كان يبذل الجهود للتغلب على ضعفه، فقد واجه مشكلته وتغلب عليها.

وإذا نحن حللنا أخلاق هذا المريض تبين لنا أن تغلبه على خوفه وقلقه كان هدفه الوحيد في حياته، وكانت أفكاره الواعية وأفكاره اللاواعية تتعاون كلها وتعمل متحدة للوصول إلى هذه الغاية. ولقد يعتقد من لا يدرك أن الإنسان وحدة متصلة الأجزاء أن هذا المريض لم يكن متفوقاً ولم يكن منتصراً، وقد لا يرى فيه إلا أنه إنسان طموح كل ما يرغب فيه هو أن يحارب ويكافح ولكنه في حقيقة أمره جبان؛ وذلك رأي خاطئ لأن القائل به لا يلم بكل ما يتصل بالأمر من حقائق، ولا يفسرها بالرجوع إلى وحدة الحياة البشرية. وإن

علم النفس كله، وفهمنا للأفراد أو محاولة فهمهم، ليصبحان شيئاً تافهاً عديم النفع إذا لم ندرك أن الكائن الحي وحدة لا تتجزأ؛ وإذا نحن افترضنا في هذا الكائن وجود ناحيتين لا علاقة بين إحداهما والأخرى استحال علينا أن نرى للحياة وجوداً كاملاً موحداً.

يجب علينا إذن أن نعد حياة الفرد وحدة متصلة، ويجب علينا فوق ذلك أن نلم بها مرتبطة بما حولها من صلات اجتماعية. فالأطفال يولدون ضعافاً، وهذا الضعف يحتم على غيرهم أن يعنوا بهم. وعلى هذا فإن أسلوب حياة الطفل أو نمطها لا يمكن فهمه إلا بالرجوع إلى الأشخاص الذين كانوا يعنون به، والذين يعوضونه عن ضعفه. وللطفل علاقات متبادلة مع أمه وأسرته، وهذه العلاقات لا يمكن إدراكها إذا قصرنا بحثنا على الطفل من حيث هو جسم مادي في فراغ؛ والحقيقة أن شخصية الطفل تعترض فرديته الجسمية، ويدخل فيها كل ما يحيط به من صلات اجتماعية.

ويصدق على الناس كافة إلى حدٍّ ما ما يصدق على الطفل الصغير، فضعف الطفل الذي يضطره إلى أن يعيش في أسرة يقابله ذلك الضعف الذي يضطر الناس إلى أن يعيشوا في مجتمع؛ ذلك أن الناس كلهم يشعرون بالعجز في بعض الظروف، ويحسون بأن صعاب الحياة تطغى عليهم، وأنهم أضعف من أن يواجهوها فرادى، ولذلك كان من أقوى ميول الإنسان أن يُكوِّن مع بني جنسه جماعات لكي يعيش عضواً في مجتمع لا فرداً منفصلاً عن غيره. وما من شك في أن هذه الحياة الاجتماعية قد أعانته كثيراً على التغلب على ما يشعر به في نفسه من ضعف ونقص. وتلك حال الحيوانات أيضاً، فالأنواع الضعيفة منها تعيش دائماً في جماعات حتى تستطيع بقواها المجتمعة أن تواجه حاجاتها الفردية. مثال ذلك أن في وسع قطيع من الجاموس أن يحمي نفسه من الذئاب مجتمعاً، فالواحدة من هذا القطيع تعجز بمفردها عن الدفاع عن نفسها، لكنها إذا اجتمعت كلها تلاصقت برؤوسها وقاتلت بأرجلها حتى تنجو كلها من عدوها. وتستطيع الغيلان والأسود والنمورة أن تعيش منفردة، لأن الطبيعة قد وهبتها وسائل الدفاع عن نفسها. أما الإنسان فلم يُعطَ ما أُعطيت من قوة

وبطش، وليس له مخالب أو أسنان مثلها، ولهذا فإن بني الإنسان لا يستطيعون أن يعيشوا فرادى، ومن ثم نرى أن ضعف الفرد هو منشأ الحياة الاجتماعية.

ولهذا السبب نفسه لا تتساوى كفايات الناس جميعاً ومواهبهم في المجتمع. ولكن المجتمع الذي أُحسن تنظيمه لن يتوانى عن تنمية قوى الأفراد الذين يتألف منهم. وتلك من الحقائق الهامة التي يجب ألا نغفل عنها حتى لا نظن أن الأفراد يجب أن يُحكَم عليهم حسب قواهم الموروثة دون غيرها. والحقيقة أن الفرد الذي يبدو ضعيفاً في بعض مواهبه إذا عاش في عزلة يستطيع أن يعوض هذا النقص إذا عاش في مجتمع حسن التنظيم.

وإذا فرضنا أن نقائصنا الفردية موروثة كان من أغراض علم النفس أن يُعوِّد الناس أن يعيشوا مع غيرهم على أحسن حال ليستعينوا بذلك على تخفيف آثار نقصهم الطبيعي. وإن تاريخ الرقي الاجتماعي ليقص علينا كيف يتعاون الناس ليتغلبوا على ما فيهم من ضعف ونقص، فما من أحد يجهل مثلاً أن اللغة من اختراع المجتمع، ولكن قلة من الناس من يدرك أن النقص الفردي هو سبب هذا الاختراع. وتظهر هذه الحقيقة في سلوك الأطفال الأول، فهم إذا لم تشبع رغباتهم حاولوا أن يلفتوا الأنظار إليهم بلغة من نوع ما، أما إذا لم يكن الطفل في حاجة إلى أن يلفت نظر غيره إليه، فإنه لا يحاول الكلام قط، وهذه حال الطفل في الشهور الأولى من حياته حين تجيبه الأم إلى كل ما يحتاجه قبل أن يتكلم. ولدينا أمثلة لأطفال لم يتكلموا حتى بلغوا السنة السادسة من عمرهم لأنهم لم يجدوا قط حاجة إلى الكلام قبل هذه السن. ولدينا شاهد آخر على هذه الحقيقة وهو حال طفل لأبوين أبكمين أصمين. فقد سقط هذا الطفل وجُرِح وصرخ، ولكنه صرخ من غير أن يُخرِج صوتاً، فقد عرف أن الصوت لا يفيده لأن أبويه لا يستطيعان سماعه. ولهذا مَثَّل مظهر الصياح ليلفت إليه أنظار أبويه، ولكنه كان صياحاً من غير صوت.

من أجل هذا كان الواجب علينا دائماً أن نلم بجميع الظروف المحيطة بالحقائق الاجتماعية التي ندرسها، يجب أن ندرس البيئة الاجتماعية لكي ندرك «هدف التفوق» الخاص الذي اختاره الطفل لنفسه، ويجب أن ننظر كذلك إلى

الظروف الاجتماعية لندرك ما فيها من عدم توافق، فكثير من الناس لا توافق بينهم وبين بيئتهم، لأنهم يجدون أن من المستحيل عليهم أن يتصلوا اتصالاً عادياً عن طريق اللغة بغيرهم من الناس. ومن أمثلة هؤلاء الشخص الذي يتمتم في كلامه، فإذا بحثت عن أمره تبين لك أن هذا الشخص لم يكن بينه وبين المجتمع توافق قط، فلم يكن مثلاً راغباً في أن يشترك في نواحي نشاطه المختلفة، ولم يكن راغباً في أن يختار له أصدقاء أو رفقاء. لقد كان نمو لغته في حاجة إلى أن يأتلف هو مع غيره، ولكنه لم يكن راغباً في هذا الائتلاف، ولهذا بقيت تمتمته. والواقع أن لدى المصابين بالتمتمة ميلين، أحدهما يدعوهم إلى الائتلاف مع غيرهم، وثانيهما يدعوهم إلى أن يطلبوا العزلة لأنفسهم.

وبعض الراشدين من الرجال الذين يحيون حياة اجتماعية يعجزون عن أن يخطبوا في الجمهور ويرهبون مواقف الخطابة، والسبب في هذا أن أولئك الناس يعدون مستمعيهم أعداء لهم، ويشعرون بأن فيهم هم أنفسهم نقصاً حين يواجهون مستمعين يظنونهم أعداء لهم متفوقين عليهم. والحقيقة أن الإنسان لا يستطيع أن يحسن الكلام إلا إذا كان واثقاً من نفسه ومن مستمعيه، وفي هذه الحالة دون غيرها لا يخشى الوقوف على منصة الخطابة.

وهكذا نرى أن الشعور بالنقص ذو صلة وثيقة بالتربية الاجتماعية، فكما أن الشعور بالنقص ينشأ من عدم التوافق الاجتماعي بين الإنسان ووسطه، كذلك تكون التربية الاجتماعية هي الوسيلة التي يستطيع بها أن يتغلب على ما يشعر به من نقص.

وثمة اتصال مباشر بين التربية الاجتماعية والإدراك الفطري العام. فإذا قلنا إن الناس يحلّون مشاكلهم بإدراكهم الفطري العام، فإن الذي نفكر فيه في هذه الحالة هو أنهم يحلونها بما تجمّع فيهم من ذكاء الهيئة الاجتماعية. أما الذين يعملون بلغة خاصة لهم وفهم خاص بهم، فإنهم كما قلنا في الفصل السابق يبدو عليهم مظهر الشذوذ. والمعتوهون ومرضى النفوس والمجرمون كلهم من هذا القبيل، يجدون أشياء معينة لا تلذ لهم، فالناس والنظم والمعايير

الاجتماعية لا تعنيهم، وخلق هذه اللذة فيهم هو السبيل التي يمكن سلوكها لإنقاذهم من ورطتهم.

والواجب علينا حين نعمل مع أمثال هؤلاء الناس أن نجعل الحقائق الاجتماعية تسترعي أنظارهم. ويظن الأشخاص العصبيون دائماً أن كل ما يجب عليهم هو أن يُظهِروا حُسْن نيتهم واستعدادهم للعمل، ولا يدركون أن الذي يُطلَب إليهم شيء أكثر من حُسْن النية، ولذلك يجب أن نعلمهم أن الذي يهم المجتمع هو ما يعملونه، وما ينتجونه بالفعل، لا ما يريدونه فحسب.

ولما كان الشعور بالنقص والسعي للتفوق عامّين في كل الناس، فإن من الخطأ أن نعد وجودهما في الناس كلهم دليلاً على أنهم جميعاً متساوون. فالنقص والتفوق هما الحالتان العامتان اللتان تسيطران على كل سلوك الناس، ولكن يوجد غيرهما فروق في قوة الجسم وصحة البدن وفي الوسط الذي يعيشون فيه، ومن أجل هذه الفروق تختلف الأغلاط التي يرتكبها الأفراد في الظروف المماثلة. فإذا بحثت حال الأطفال رأيت أنه لا توجد طريقة صحيحة صحة مطلقة، ومحددة تحديداً مطلقاً، يستجيبون بها للمؤثرات، فهم يستجيبون بها بطرقهم الفردية الخاصة، وهم يسعون إلى أسلوب من الحياة خير من الأسلوب الذي هم فيه، ولكنهم يسعون إليه بطريقتهم الخاصة، ويقعون في أغلاطهم الخاصة بهم، ويحددون أساليبهم الخاصة التي يرون أنها تقربهم من النجاح.

ويجدر بنا أن نحلل بعض خواص الأطفال والفروق التي بينهم. ولنبدأ أولاً بالأطفال العسر. إن ثمة أطفالاً لا يعرفون أنهم عسر، لأنهم قد دُرِّبوا بعناية على أن يستخدموا أيديهم اليمنى. وهؤلاء في أول أمرهم لا يحسنون استعمال أيديهم اليمنى، وربما كانوا يُلامون على ذلك ويُنتقَدون، ويُسخَر منهم، لكن الاستهزاء بهم خطأ، والواجب أن تعالج هذه الحالة بأن تمرّن كلتا اليدين. ويمكن أن تعرف الطفل الأعسر في مهده، لأن يده اليسرى تتحرك أكثر من يده اليمنى، وقد يشعر هذا الطفل في الحياة المستقبلية أن عليه عبئاً يثقله لعدم إتقانه استخدام يده اليمنى. وكثيراً ما يحدث عكس هذا، فيتولد لديه اهتمام كبير بيده اليمنى وذراعه اليمنى، وقد يبدو هذا الاهتمام مثلاً في عنايته بالرسم والخط

وما إلى ذلك. وليس من حقنا أن نعجب إذا رأينا طفلاً من أولئك الأطفال في حياته المستقبلية يفوق الطفل العادي في مرانه، ذلك أن هذا الطفل قد اضطر إلى الاهتمام بأمر نفسه، أو أنه قد «استيقظ مبكراً» إذا جاز هذا التعبير، فأدى ما به من نقص إلى زيادة العناية بتدريب نفسه، وكثيراً ما يكون هذا ميزة كبرى في تنمية الموهبة الفنية والقدرة الفنية. والطفل الذي يجد نفسه في هذه الظروف يكون في العادة طموحاً يكافح للتغلب على ما يعترضه من صعاب. على أن الطفل قد يتولد فيه الحسد لغيره من الناس والغيرة منهم إذا كان هذا الكفاح حاداً شديداً؛ ولذلك ينشأ فيه شعور قوي بالنقص يكون التغلب عليه أصعب منه في الأحوال العادية. وقد يخلق منه هذا الكفاح، المستمر طفلاً أو رجلاً مقاتلاً دائم الكفاح، ثبت في فكره أنه يجب أن لا يكون سمجاً ناقصاً، ويكون عبء الحياة على هذا الفرد أثقل منه على غيره.

ويعمل الأطفال ويخطئون ويتطورون بطرق تختلف باختلاف المُثُل الأولى التي كونوها لأنفسهم في السنين الأربع أو الخمس الأولى من حياتهم. ويختلف هدف كل منهم عن هدف غيره، فمنهم من يريد أن يكون نقاشاً، ومنهم من يريد أن يخرج من هذا العالم الذي لا يصلح له؛ وقد نعرف نحن كيف يستطيع هذا الطفل أو ذاك أن يتغلب على نقائصه، أما هو فلا يعرف ذلك، ويحدث في أغلب الأحيان ألا تُفسر له الحقائق التفسير الصحيح.

وكثير من الأطفال لهم عيون وآذان ورئات وبطون غير سليمة، ولذلك نرى اهتمامهم أكثر ما يكون في الناحية التي هم فيها ناقصون. ومن الأمثلة الغريبة لهذه الحالات أن رجلاً كان لا يصاب بنوبات من الربو إلا حين يعود من مقر عمله في المساء ، وكان هذا الرجل في الخامسة والأربعين من عمره، وكان متزوجاً ويشغل منصباً حسناً. وسئل لِمَ تصيبه النوبات على الدوام بعد أن يعود إلى منزله؟ فقال «إن زوجتي مادية محضة، وأنا رجل مثالي، ولهذا فنحن لا نتفق. فإذا عدت إلى منزلي كان كل رغبتي أن أظل هادئاً، وأن أمتع نفسي فيه. أما زوجتي فتريد أن تغشى المجتمعات، ولهذا تراها دائمة الشكوى من بقائها في المنزل، فأتضايق وتعتريني نوبات الاختناق».

ولكن لِمَ يختنق هذا الرجل ولِمَ لا يتقيأ مثلاً؟ الواقع أنه كان وفياً لمثاله الأول، إذ يلوح أنه وهو طفل كانت تلف أربطة حوله، لأنه كان مصاباً بضعف ما، وقد أثرت هذه الأربطة القوية في مجاريه التنفسية، وسببت له متاعب جمّة؛ وكانت له خادمة تحبه فكانت تجلس إلى جانبه وتسليه وتحصر كل عنايتها فيه لا في نفسها هي. ومن أجل هذا انطبع في ذهنه أنه يحق له على الدوام أن يُسَلَّى ويُسَر فلما بلغ الرابعة من عمره تزوجت الخادمة وفارقته، وذهب هو معها إلى المحطة وهو يبكي بكاءً مراً، ولما فارقته قال لأمه «لم يبقَ لي في العالم ما أهتم به بعد أن فارقتني خادمتي».

ولهذا ظل في سن الرجولة، كما كان في سن مثاله الأول، يتطلع إلى وجود شخص مثالي يسره دائماً ويسليه ويوجه إليه كل عنايته. فلم يكن سبب متابعه إذن قلة الهواء، بل كان سببها أنه لم يكن يُسَر ويُسلَّى في جميع الأوقات، وليس من السهل بطبيعة الحال أن يجد الشخص الذي يسره ويسليه على الدوام. وكان هذا الرجل فوق ذلك يرغب أن يسيطر دائماً على ما حوله، ولما نجح في ذلك عاد عليه هذا النجاح ببعض الفائدة، وذلك أنه لما كان يختنق كانت زوجته تمتنع عن الذهاب إلى دور التمثيل وغشيان المجتمعات، ونجح بذلك في الوصول إلى «هدف التفوق».

وكان سلوك هذا الرجل من حيث وعيه سليماً على الدوام لا غبار عليه مطلقاً، ولكنه كان في قرارة نفسه راغباً في أن يكون هو الغالب المسيطر. لقد كان يريد أن يجعل زوجته مثالية غير مادية على حد تعبيره، ولكن الحقيقة أنه كانت تحركه بواعث خفية تختلف عن البواعث الظاهرة السطحية.

وكثيراً ما نرى الأطفال ذوي العيون الضعيفة يوجهون جلّ اهتمامهم إلى المرئيات، ومن ثم تنمو لديهم موهبة قوية في هذه الناحية. فالشاعر العظيم جستاف فريتاج Gustav Freitag كانت له عينان ضعيفتان مصابتان بعدم القدرة على تسديد البصر (الاستجماتزم) ولكنه جاء بالشيء الكثير. وكثيراً ما يصاب الشعراء والمصورون بأمراض في عيونهم، ولكن هذه الأمراض نفسها كثيراً ما تزيد من اهتمامهم بعملهم، وفي ذلك يقول فريتاج عن نفسه: «لقد

كانت عيناي تختلفان عن أعين غيري من الناس، ولذلك يخيل إليّ أنني اضطررت إلى استخدام خيالي وإلى تدريبه؛ ولست أعرف أن هذا قد جعلني كاتباً عظيماً، ولكن الذي أعرفه أن ضعف بصري قد جعلني أرى في الخيال خيراً مما يراه غيري في الحقيقة».

وإذا نحن درسنا شخصيات العباقرة تبين لنا في أغلب الأحيان أنهم مصابون بعاهة في أبصارهم، أو بنقص آخر في حواسهم. وكانت آلهة الأساطير نفسها في جميع عصور التاريخ تُمثّل مصابة بعاهة من العاهات كالعور أو العمى مثلاً. وإن وجود عباقرة لا يكادون يبصرون لكنهم مع ذلك يستطيعون أن يدركوا أكثر من غيرهم ما بين الخطوط والظلال والألوان من فروق، ليدل على ما نستطيع أن نعمله للأطفال المصابين بهذه العاهة إذا نحن درسنا مشاكلهم وفهمناها على الوجه الصحيح.

ومن الناس من يهتمون أكثر من غيرهم بما يأكلون، ولهذا نراهم على الدوام يتحدثون عما يستطيعون أن يأكلوه وما لا يستطيعون، والغالب أن هؤلاء قد لاقوا متاعب خاصة بالطعام في مستهل حياتهم، فتولد فيهم هذا الاهتمام به أكثر من غيرهم. وأكبر الظن أن أمهاتهم كن كثيرات العناية بهم، وكن يحدثنهم عما يلائمهم من المأكولات وما لا يلائمهم. ويحتاج هؤلاء إلى أن يمرنوا على أن يتغلبوا على ضعف معدتهم، وهم لذلك في حاجة شديدة إلى العناية بما يطعمونه في الصباح والظهر والمساء. وقد يؤدي تفكيرهم الدائم في الطعام إلى أن يصبحوا مهرة في الطهي أو في غيره من الشؤون المتعلقة بالطعام.

وقد يحدث أحياناً أن يكون ضعف المعدة أو الأمعاء حافزاً للمصابين بهذا الضعف على أن يبحثوا عن شيء غير الطعام يوجهون إليه عنايتهم. وقد يكون هذا البديل هو المال، ومن ثم يصبح هؤلاء الناس بخلاء مقترين، أو من أصحاب المصارف وأرباب الأموال. وكثيراً ما يبذل هؤلاء أقصى جهودهم في جمع المال، ويدربون أنفسهم ليلاً ونهاراً على الوسائل التي توصلهم إلى جمعه، ولا ينقطعون قط عن التفكير في عملهم هذا. وقد يكسبهم هذا التفكير ميزة

كبرى على غيرهم ممن يعملون في مثل مهنتهم، ومن الطريف أن نلاحظ هنا أننا كثيراً ما نسمع عن الأغنياء الموسرين المعمودين.

وجدير بنا في هذا المقام أن نستعيد ما يذكره الناس عادة من الصلة بين الجسم والعقل، فنقول إنه ليس من المحتم دائماً أن يؤدي كل نقص معين إلى نتيجة معينة، وليس من الضروري أن تكون الصلة بين عيب جسمي وأسلوب خاطئ من الحياة هي صلة العلة بالمعلول. وفي وسعنا أن نعالج النقص الجسمي علاجاً ناجعاً بالتغذية الصالحة، وننقذ المريض بذلك من متاعبه الجسمية بعض الإنقاذ؛ ولكن النقص الجسمي ليس هو سبب النتيجة السيئة التي وصل إليها المريض، بل إن سبب هذه النتيجة هو موقف المريض نفسه من هذه العلة. ومن أجل هذا فإن العيوب الجسمية المحضة، أو النقص الجسمي دون غيره، أمور لا وجود لها عند العالم بعلم النفس الفردي، وإنما الذي له وجود لديه هو الموقف الخاطئ الذي يقفه المريض من هذه الأمور. وهذا أيضاً هو السبب في أن العالم بعلم النفس الفردي يعمل لأن يخلق في الشخص الرغبة في مقاومة الشعور بالنقص وقت تكوين مثاله الأول.

ونرى في بعض الأحيان شخصاً ملولاً عاجزاً عن أن يصبر حتى يتغلب على الصعاب، أو نرى أشخاصاً دائبي الحركة مهتاجين ثائرين، أولئك قوم يستدل من حالتهم هذه على أنهم يتملكهم شعور قوي بالنقص. ذلك أن من يعلم أنه قادر على قهر الصعاب لا يكون ملولاً، وإن لم يكن في وسعه على الدوام أن ينجز ما لا بد له من إنجازه. وإذا رأيت أطفالاً متغطرسين وقحين مشاكسين دلّت هذه الصفات على أنهم أيضاً يتملكهم شعور بالنقص قوي، وعلينا في هذه الحالة أن نبحث عن أسباب هذا الشعور، أي عن الصعاب التي تعترضهم، حتى نصف لهم طريقة التغلب عليها، ولا يحق لنا مطلقاً أن ننتقد الأخطاء التي نشأت من أسلوب الحياة الذي كان يحياه المثال الأول، أو أن نعاقب عليها.

وفي وسعنا أن نتعرف بين الأطفال على صفات المثال الأول بما نشاهده من سلوكهم الخاص به، ومما يهتمون به من أشياء غير عادية، ومن سعيهم

للتفوق على غيرهم، ومما يضعونه من خطط وما يقومون به من عمل لبلوغ هدف التفوق. ومن الأطفال من يثق بنفسه في حركاته وتعبيره، ويحب أن يبتعد عن غيره قدر استطاعته، ويفضل ألا يذهب إلى حيث يواجه مواقف جديدة، وأن يقيم في الدائرة الصغيرة التي يشعر بتمكنه من نفسه فيها. وهو يفعل هذا بعينه في الدراسة، وفي الحياة، وفي المجتمعات، وفي الزواج؛ وهو يرجو على الدوام أن يفعل الشيء الكثير في دائرته الصغيرة، لكي يصل من وراء ذلك إلى هدف من أهداف التفوق. وهذه صفة نجدها في الكثيرين من الناس، فتراهم جميعاً ينسون أن المرء لا يستطيع أن يصل إلى النتائج إلا إذا كان مستعداً لكل الاحتمالات ولمواجهة كل الصعاب. أما إذا تجنب بعض المواقف وبعض الأشخاص، فإنه لن يكون له ما يعتمد عليه إلا ذكاءه الخاص به، وليس هذا بالذي يكفيه. ذلك بأن الإنسان في حاجة إلى جميع الصلات الاجتماعية، وإلى الإدراك الفطري العام ليبعثا فيه القوة والنشاط.

نعم إن الفيلسوف الذي يريد أن ينجز عمله لا يستطيع أن يذهب في كل يوم للغداء أو العشاء في صحبة الناس، لأنه في حاجة إلى الانفراد بنفسه فترات طويلة من الوقت يستجمع فيها شوارد أفكاره، ويختار فيها الطريقة المثلى لأداء عمله؛ ولكن هذا الفيلسوف عينه لا يعظم شأنه فيما بعد إلا إذا اتصل بالمجتمع، وكان هذا الاتصال جزءاً هاماً من نمائه. ومن أجل هذا فإنا إذا التقينا بشخص من هذا النوع وجب علينا أن نذكر هاتين الحاجتين، حاجته إلى الانفراد بنفسه، وحاجته إلى الاتصال بغيره؛ وعلينا أن نذكر أيضاً أن في مقدوره أن يكون نافعاً أو غير نافع، وأن علينا لهذا السبب أن نعني بمعرفة الفرق بين النافع وغير النافع من السلوك.

ومفتاح المسألة الاجتماعية كلها هو أن الناس يسعون على الدوام لأن يضعوا أنفسهم في وضع يبرزون فيه. ومن أجل هذا نرى الأطفال الذين يشعرون شعوراً قوياً بالنقص يريدون أن يبتعدوا عمن هم أقوى منهم من الأطفال، ويلعبوا مع من هم أضعف منهم، ومن يستطيعون هم أن يخضعوهم لسلطانهم ويسيطروا عليهم، وذلك مظهر مَرَضي شاذ من مظاهر الشعور

بالنقص. ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن الشعور بالنقص في حد ذاته ليس هو الأمر المهم، بل المهم هو نوع هذا الشعور ومقداره.

وقد أطلق على الشعور الشاذ بالنقص اسم «عقدة النقص»، ولكن لفظ «عقدة» ليس هو التعبير الصحيح عن هذا الشعور الذي يسري في شخصية المرء بأكملها، فهو شيء أكثر من عقدة، ويكاد يكون مرضاً يفتك بالناس فتكاً يختلف باختلاف الظروف. وقد لا نلاحظ أحياناً شعور المرء بالنقص إذا كان يشتغل في عمله، لأنه يشعر بأنه واثق من نفسه فيه، ولكننا نستطيع أن نتبين هذا الشعور إذا رأيناه غير واثق من نفسه في المجتمعات، أو في علاقته بالجنس الثاني رجلاً كان أو امرأة.

ونرى الأخطاء شديدة واضحة في الظروف الصعبة أو التي تؤدي إلى توتر الأعصاب؛ وسبب ذلك أن المثال الأول للشخص يظهر على حقيقته في هذه الأحوال الصعبة أو الجديدة، والأحوال الصعبة تكاد تكون على الدوام هي بعينها الأحوال الجديدة؛ ومن أجل هذا قلنا في الفصل الأول من الكتاب إن درجة الاهتمام الاجتماعي تتضح في الأحوال الاجتماعية الجديدة.

وإذا أرسلنا الطفل إلى المدرسة كان في وسعنا أن نشاهد فيها عنايته الاجتماعية كما نشاهدها في الحياة الاجتماعية العامة. ففي وسعنا أن نرى مثلاً هل يختلط بزملائه أو يتجنبهم؟ فإذا رأينا أطفالاً ذوي نشاط شديد غير عادي، ومكر وصبر، كان علينا أن نفحص عن حالتهم العقلية لنرى منشأ هذه الصفات فيهم. وإذا رأينا بعضهم مترددين لا يعملون إلا على قدر، كان علينا أن نتوقع ظهور هذه الخصائص نفسها في حياتهم المستقبلية في المجتمع، وفي الحياة العامة، وفي الزواج.

ويقابل المرء على الدوام أشخاصاً يقول له الواحد منهم «سأفعل هذا الشيء بهذه الطريقة»؛ «وسأعمل في هذه المهنة»؛ «وسأقاتل هذا الرجل... ولكن...!»، وكل هذه الأقوال شواهد على وجود شعور قوي بالنقص في قائلها. والواقع أننا إذا نظرنا إليهم من هذه الناحية ألقت هذه النظرة ضوءاً

جديداً على بعض انفعالاتهم به كالشك مثلاً. والشخص الشاك يبقى في الغالب شاكّاً على الدوام ولا يتم عملاً قط، أما الشخص الذي يقول «لا أريد» فأكبر الظن أنه سوف يعمل ما يدل عليه قوله هذا.

وفي وسع العالم النفساني إذا عنى بالبحث أن يجد المتناقضات في الفرد الواحد من الناس. وقد تعد هذه المتناقضات شاهداً على الشعور بالنقص، ولكن علينا قبل أن نحكم هذا الحكم أن نلاحظ أيضاً حركات الشخص الذي نفحص عن مشكلته، فقد تكون طريقة اقترابه من الناس ومقابلتهم غير مستحبة؛ وعلينا أيضاً أن نلاحظ هل يسير هذا الشخص نحو الناس بخطى غير ثابتة وهيئة مترددة؟ فإذا رأيناه كذلك فلا بد أن نرى هذا التردد نفسه يبدو غالباً في مواقف أخرى في الحياة. وإذا رأيت رجلاً يخطو خطوة إلى الأمام وخطوة أخرى إلى الوراء فاعلم أن هذا دليل على شعور قوي بالنقص.

وينحصر واجبنا في هذه الأحوال في أن ندرب هؤلاء الأشخاص على الخروج من ترددهم. وخير ما نعالجهم به أن نشجعهم لا أن نثبط من عزيمتهم؛ وعلينا أن نُفْهمهم أنهم قادرون على مواجهة الصعاب وحل مشاكل الحياة، وبغير هذه الطريقة لا يستطاع بث روح الثقة بالنفس فيهم، وليس ثمة طريقة غير هذه لعلاج ما ينتابهم من شعور بالنقص.

الفصل الثالث

عقدة التفوق

تكلمنا في الفصل السابق على عقدة النقص وما لها من علاقة بالشعور العام بالنقص، ذلك الشعور الذي نشترك فيه جميعاً، والذي نعمل جميعاً للتخلص منه. وسننتقل الآن إلى الكلام على نقيض هذا الموضوع أي على عقدة التفوق.

لقد رأينا أن كل عَرَض مَرَضي من أعراض حياة الفرد يعبَّر عنه بحركة، أي بخطوة إلى الأمام، ومن ثم يمكن القول إن لكل عرض ماضياً ومستقبلاً. فالمستقبل مرتبط بسعينا وهدفنا، أما الماضي فيمثل حالة النقص أو عدم الكفاية التي نحاول التغلب عليها. وهذا هو السبب في أن الذي نهتم به في حالة عقدة النقص هو البداية، في حين أن ما نهتم به أكثر من غيره في حالة عقدة التفوق هو الاستمرار أي سير الحركة نفسها. وفوق هذا فإن بين العقدتين صلة طبيعية، فليس من حقنا أن نعجب إذا تبين لنا أن ثمة عقدة تفوق مستترة بدرجة قليلة أو كثيرة في الأحوال التي نشاهد فيها عقدة نقص، كما أننا إذا فحصنا عن حالة عقدة تفوق ودرسنا استمرارها، كان في وسعنا على الدوام أن نجد فيها عقدة نقص مستترة بدرجات متفاوتة.

وعلينا أن نذكر بطبيعة الحال أن كلمة عقدة عندما تضاف إلى كلمة نقص أو تفوق لا يقصد بها إلا حالة مبالغ فيها من الشعور بالنقص أو العمل على التفوق؛ فإذا ما نظرنا إلى الأشياء هذه النظرة زال ما يتراءى لنا من تناقض ناشئ عن وجود ميلين متعارضين في الفرد الواحد، هما عقدة النقص وعقدة

التفوق. فليس يخاف أن العمل على التفوق والشعور بالنقص إحساسان عاديان يكمل أحدهما الآخر، فنحن لا نعمل للتفوق والنجاح إذا لم نشعر بوجود نقص ما في حالتنا الحاضرة؛ ولما كانت العُقد النفسية كما يسميها العلماء تنشأ عن العواطف الطبيعية في الإنسان، فليس فيها من التناقض أكثر مما في هذه العواطف نفسها.

والسعي للتفوق دائم لا ينقطع أبداً، وهو الذي يُكوِّن في الواقع عقل الفرد أي نفسه؛ ولقد قلنا من قبل إن الحياة هي الوصول إلى هدف أو صورة، وإن السعي للتفوق هو الذي يحرك الإنسان إلى العمل للوصول إلى مرماه أو هدفه، فهو كالمجرى الذي يجرف معه كل ما يجده في طريقه من مواد. فإذا نظرنا إلى الأطفال الكسالى ورأينا نقصاً في اهتمامهم بشيء من الأشياء، ظننا أنهم جامدون لا يتحركون، ولكننا مع ذلك نجد فيهم رغبة في التفوق تحفز الواحد منهم إلى أن يقول «لو لم أكن كسولاً إلى هذا الحد لاستطعت أن أكون رئيساً»، فهم يتحركون ويعملون بشروط وقيود، إذا صح هذا التعبير، وهم يحسنون الظن بأنفسهم ويرون أن في وسعهم أن يتموا الشيء الكثير في الناحية النافعة من الحياة إذا... وهذا كذب بطبيعة الحال، إنه خيال ووهم، ولكن النوع البشري كثيراً ما يرضى بالخيال كما هو معروف. وأكثر ما يصدق هذا على الأشخاص الذين تعوزهم الشجاعة فهؤلاء يقنعون كل القناعة بالخيال، لأنهم لا يشعرون بأن لهم قوة كبيرة، ولذلك تراهم يلفون ويدورون، ويرغبون على الدوام في الفرار من الصعاب؛ وبهذا الفرار نفسه، أي يتجنب الكفاح، يسري فيهم الشعور بأنهم أقوى وأنشط مما هم في الواقع.

والأطفال الذين يشرعون في السرقة مصابون بالشعور بالتفوق، وهم يعتقدون أنهم يخدعون غيرهم وأن غيرهم لا يعرف أنهم يسرقون، وأنهم بذلك يثرون بأقل مجهود. ويبدو هذا الشعور نفسه واضحاً في حالة المجرمين الذين يظنون أنهم أبطال متفوقون.

ولقد ذكرنا من قبل شيئاً عن هذه الخلة من ناحية أنها مظهر للذكاء الخاص وليست إدراكاً فطرياً أو اجتماعياً عامّاً؛ فإذا ظن القاتل أنه بطل فتلك

فكرة خاصة به، وهو تعوزه الشجاعة لأنه يريد أن ينظم الأمور بحيث يفر من حل مشاكل الحياة. فالإجرام إذن نتيجة لعقدة تفوق، وليس مظهراً لخبث أساسي متأصل.

ونرى مثل هذه الأعراض بادية بين الأشخاص المصابين بالاضطرابات النفسية، فهم ينتابهم الأرق مثلاً، ولهذا نراهم في اليوم التالي ضعفاء لا يستطيعون النهوض بمطالب مهنتهم، وهم من أجل هذا الأرق يشعرون بأنهم لا يصح أن يطلب إليهم أن يعملوا لأنهم أضعف من أن يقوموا بالعمل الذي كان يسعهم القيام به لولا هذا الأرق، وهم يقولون في حسرة وأسف «وأي عمل لا يسعني القيام به لو أنني استطعت النوم!».

ونرى هذه الحالة بعينها بين الأشخاص المكتئبين المصابين باضطراب البال[1] واضطراب بالهم هذا يدفعهم إلى الاستبداد بغيرهم، وهم يستخدمونه للسيطرة على سواهم، ويتطلبون أن يكون الناس معهم على الدوام، وأن يصحبوهم أينما ذهبوا، فيضطر هؤلاء الصحاب إلى ، يحيوا حياتهم بالطريقة التي تناسب هؤلاء المكتئبين.

والأشخاص المعتوهون المحزونون يكونون موضع اهتمام أسرتهم على الدوام، وفيهم نرى ما لعقدة النقص من سلطان، فهم يشكون من أنهم يشعرون بالضعف وينقصون في الوزن وما إلى ذلك، ولكنهم رغم هذه الشكوى أقوى الناس، لأنهم يسيطرون على الأصحاء. ولا ينبغي أن يثير هذا دهشتنا لأن ثقافتنا الحاضرة تمكن الضعفاء من أن يكونوا أقوياء مسيطرين، (ولو أننا سألنا أنفسنا عن أقوى شخص في ظروفنا الثقافية الحاضرة لكان الجواب المنطقي أنه هو الطفل، لأنه يسيطر على الناس ولا يسيطر عليه أحد).

والآن فلندرس ما بين عقدتي النقص والتفوق من علاقة، ولتكن الوسيلة إلى هذه الدراسة طفلاً معضلاً مصاباً بعقدة التفوق، أي طفلاً وقحاً متغطرساً شرساً. نرى أن هذا الطفل يريد على الدوام أن يظهر أعظم مما هو في

---

(1) Anxiety

الواقع؛ وليس يخفى على أحد منا كيف أن الأطفال الذين تتملكهم عادة سورة الغضب يرغبون في السيطرة على غيرهم بالهجوم عليهم فجأة، فما هو السبب الذي يثيرهم ويفقدهم صبرهم؟ السبب هو أنهم لا يثقون بأن لهم من القوة ما يوصلهم إلى هدفهم، أي أنهم يشعرون بالنقص. ونتبين على الدوام في الأطفال المشاكسين المعتدين عقدة نقص ورغبة في التغلب عليها، فمثلهم مثل من يحاولون أن يرتفعوا على أصابع أقدامهم حتى يظهروا أعظم مما هم شأناً، ولينالوا النجاح والعظمة والتفوق بهذه الوسيلة الهيِّنة.

وعلينا أن نبحث عن الوسائل التي نُعالج بها أمثال هؤلاء الأطفال. إنهم يسلكون هذا المسلك لأنهم لا يرون ما في الحياة من تآلف وارتباط، وما في الأشياء من تسلسل طبيعي. وليس من حقنا أن نعيب عليهم عدم رغبتهم في إدراك هذا وذاك، لأننا إذا ما واجهناهم بحقيقة أمرهم أصروا دائماً على أنهم لا يشعرون بأنهم ناقصون، بل يرون أنهم متفوقون، ولذلك كان من واجبنا أن نشرح لهم وجهة نظرنا كما يشرح الصديق لصديقه وجهة نظره، وأن نفهمهم إياها شيئاً فشيئاً.

وإذا رأيت شخصاً مدعياً متظاهراً بما ليس فيه، فاعلم أنه إنما يفعل ذلك لأنه يشعر بالنقص، ولأنه لا يرى في نفسه من القوة ما يمكنه من أن ينافس غيره في الجانب النافع من الحياة، ولهذا تراه يلجأ إلى الجانب غير النافع منها. فليس هذا الشخص متفقاً مع المجتمع ولا منسجماً معه من الناحية الاجتماعية، وهو لا يعرف كيف يحل مشاكل الحياة، ولهذا ترى النزاع قائماً على الدوام بينه وبين أبويه ومدرسيه في عهد طفولته؛ ومن الواجب في هذه الأحوال أن يفهم الأطفال هذا الظرف وأن يمكنوا من فهمه.

ونرى هذا الارتباط بين عقدتي النقص والتفوق في المصابين بالاضطرابات النفسية. فكثيراً ما يُعبِّر المصاب بهذا الداء عن عقدة تفوقه، ولكنه لا يدرك عقدة نقصه. ولنذكر حادثة واقعية لفتاة مصابة بهذا المرض لأن فيها ما يوضح قولنا هذا أحسن الإيضاح. كانت فتاة شديدة الصلة بأخت لها أكبر منها سناً، ذات جمال، يعجب بها الناس ويقدرونها أعظم تقدير. نقول هذا

من البداية لما له من خطر عظيم، لأنه إذا كان في الأسرة فرد ظاهر أكثر من سائر أفرادها، فإن هؤلاء الأفراد يقاسون من جراء ذلك الشيء الكثير. وتلك حالة واقعية تشاهد على الدوام، سواء كان الشخص المحظوظ هو الوالد أو أحد الأطفال أو الأم، وينشأ من ذلك لسائر أفراد الأسرة مشكلة غاية في الصعوبة، يشعرون في بعض الأحيان أنهم لا يطيقونها.

ولذلك نرى سائر أطفال الأسرة مصابين بعقدة نقص، ويعملون لبلوغ عقدة تفوق. وطالما كانوا لا يهتمون بأنفسهم فحسب، بل يهتمون بغيرهم أيضاً، فإنهم يحلون مشاكل حياتهم حلاً موفقاً مرضياً. ولكنهم إذا قويت فيهم عقدة النقص رأيتهم وكأنهم يعيشون في بلد معادٍ لهم، يبحثون فيه دائماً عن مصالحهم الشخصية لا عن مصالح غيرهم، وبذلك لا يُؤتَون القدر الصحيح من الإحساس بالألفة، وهم يعالجون ما في الحياة من مشاكل اجتماعية بشعور لا يؤدي إلى حلها. ومن ثم تراهم يبحثون عما يريحهم من هذا العناء، بأن يتجهوا إلى الجانب غير النافع من الحياة، وليس بخافٍ علينا أن ليس في هذا الاتجاه راحة حقيقية، وإن كان الامتناع عن حل المشاكل والاعتماد على الغير يبدو شبيهاً بالراحة. فهم والحالة هذه كالمتسولين الذين يعلوهم غيرهم، والذين يشعرون بالراحة من اضطرابهم النفسي باستغلال ضعفهم.

ويلوح أن من الخلال الملازمة للطبيعة البشرية أن الأفراد -صغاراً كانوا أو كباراً- إذا شعروا بالضعف لم يعودوا يهتمون بالمجتمع، بل يأخذون في السعي للتفوق. وهم يريدون أن يحلوا مشاكل الحياة بطريقة يحصلون بها على التفوق الشخصي، دون أن يمتزج بهذا التفوق شيء من الاهتمام الاجتماعي. وما دام الشخص يسعى للتفوق، ولكنه يلطف هذا السعي ويصلحه بالاهتمام الاجتماعي، فإن عمله هذا لا غبار عليه، وهو في هذه الحالة على الجانب النافع من الحياة وفي وسعه أن يعمل الخير. أما إذا فقد الاهتمام الاجتماعي فإنه يكون في حقيقة أمره غير مستعد لحل مشاكل الحياة؛ ويشمل هذا الصنف من الناس كما قلنا من قبل الأطفال المعضلين والمعتوهين والمجرمين والمنتحرين وأمثالهم.

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى الفتاة التي بدأنا قصتها فنقول إنها نشأت في بيئة غير صالحة لنشأتها، وشعرت بالقيود التي تضايقها؛ ولو أنها كانت تعنى بما حولها من الشؤون الاجتماعية وتفهمها حق الفهم لسارت في نموها في غير الطريق الذي سارت فيه. أما وأنها لم تؤت هذه العناية، ولم تفهم ذلك الفهم، فقد بدأت تدرس الموسيقى، ولكنها كانت على الدوام متوترة الأعصاب غير هادئة من جراء عقدة النقص الناشئة من تفكيرها الدائم في أختها المميزة عنها، فاعترضتها الصعاب في هذه الناحية أيضاً؛ فلما أتمت عشرين سنة من عمرها تزوجت أختُها وبدأت هي تتطلع إلى الزواج لتنافس أختها في هذا المضمار. وهكذا أخذت حالتها تزداد سوءاً، وأخذت تبتعد كل يوم عن الجانب الصالح النافع من الحياة، ونشأ لديها الاعتقاد بأنها فتاة سيئة حقاً، وأن لها قوة سحرية تستطيع بها أن تلقي بالناس في الجحيم.

ونحن نرى في هذه القوة السحرية عقدة تفوق، أما هي فكانت تشكو منها كما يشكو ذوو اليسار أحياناً من سوء حظهم لأنهم موسرون. ولم يكن شعور هذه الفتاة بتلك القوة الإلهية، قوة إلقاء الناس في الجحيم، هو كل شيء بل إنها كانت في بعض الأحيان ترى أن في وسعها، وأن من واجبها، أن تنقذ هؤلاء الناس من الجحيم. ولا حاجة إلى القول بأن هاتين العقيدتين كانتا وهماً باطلاً، ولكنها بهذا الوهم الباطل كانت تقنع نفسها بأن لها قوة أعظم من قوة أختها المفضلة عليها؛ وكانت هذه هي السبيل الوحيدة التي تستطيع بها أن تتغلب على أختها. ومن ثم أخذت تشكو من أن لها هذه القوة، لأنها كلما كثرت شكواها منها قوى الظن بأنها مستحوذة عليها حقاً، ولو أنها سخرت منها لكان هذا مجلبة للشك فيها؛ ولذلك لم يكن لها غير الشكوى سبيل لأن تشعر بأنها سعيدة بما قُسِم لها. وهنا نرى كيف تكون عقدة من عقد التفوق مختفية أحياناً لا يعرف وجودها، ولكنها موجودة بالفعل لتعوض صاحبها عما فيه من عقدة النقص.

أما أختها الكبرى فنشأت محبوبة مفضلة، لأن أبويها لم يكن لهما أطفال غيرها في وقت من الأوقات. فعاشت مدللة منعمة، وكانت موضع عناية الأسرة، حتى إذا بلغت الثالثة من عمرها وُلِدت لها أخت ثانية؛ وغيَّر هذا

الحادث من ظروف حياتها، فقد كانت من قبل وحيدة أبويها وموضع عنايتهما، أما الآن فقد أُنزِلت عن عرشها؛ وكانت نتيجة هذا أن أصبحت طفلة مشاكسة مقاتلة. ولا سبيل إلى القتال إلا إذا وُجِد للقوي رفقة ضعاف، ذلك بأن الطفل المقاتل ليس في حقيقة أمره شجاعاً، وهو لا يقاتل إلا من هم أضعف منه. فإذا كان الوسط الذي يعيش فيه قوياً أصبح الطفل نكداً أو مكتئباً بدل أن يكون مشاكساً. وأكبر الظن أن منزلته في محيط الأسرة تقل لهذا السبب.

وشعرت البنت الكبرى في هذه الظروف بأنها لم تعد محبوبة كما كانت من قبل ورأت من مظاهر التغير ما يؤيد ظنها هذا، واعتقدت أن أكبر الذنب واقع على أمها لأنها هي التي جاءت بالبنت الثانية إلى البيت، ولهذا لا يصعب علينا أن نعرف لِمَ كانت هذه البنت توجه هجماتها نحو أمها.

وكانت الطفلة الصغيرة في حاجة إلى أن تلاحَظ وتراقَب وتُدلَّل كما يدلل كل الأطفال، ولهذا كانت في موضع الحب والإعزاز. ومن أجل هذا السبب نفسه لم تكن في حاجة إلى بذل جهد أو إلى كفاح، فنشأت دمثة لينة محبوبة كل الحب؛ وكانت موضع عناية الأسرة، فكانت لذلك قوية ذات سلطان، لأن الفضيلة في صورة الطاعة كثيراً ما تكون لها الغلبة والسلطان.

ولنبحث الآن هل كانت هذه الدماثة ولين العريكة والشفقة في الناحية النافعة أو غير النافعة من الحياة؟ وفي وسعنا أن نظن من بادئ الأمر أن الطفلة لم تكن ذلولة سهلة الانقياد إلا لأنها منعمة؛ لكن مدنيتنا لا تحب الأطفال المنعمين، وقد يعرف الأب ذلك في بعض الأحيان فيرغب في وضع حد لتدليل طفله، وأحياناً تتدخل المدرسة في الأمر، ويكون مركز الطفل من هذا النوع معرضاً للخطر على الدوام، ولهذا يشعر الطفل المدلل بأنه أقل شأناً من غيره. ونحن لا نشاهد هذا الإحساس بالنقص بين الأطفال المدللين ما داموا في الوضع الملائم لهم، ولكنهم لا يكادون يوجدون في وضع غير ملائم حتى تنحط حالهم ويصبحوا مكتئبين مغمومين، أو تراهم وقد نشأت لديهم عقدة تفوق.

وتتفق عقدة النقص وعقدة التفوق في أنهما توجدان على الدوام في الجانب غير النافع من الحياة، وليس في وسعنا قط أن نرى طفلاً في الجانب النافع من الحياة إذا كان متغطرساً وقحاً مصاباً بعقدة تفوق.

وإذا ذهب هؤلاء الأطفال المنعمون إلى المدرسة لم يبقوا في الوضع الملائم لهم، ولهذا نراهم من هذه اللحظة وقد شرعوا يقفون من الحياة موقف التردد لا يتمون قط شيئاً. وكانت هذه الحال حال الأخت الصغرى التي كنا نتحدث عنها. وقد بدأت هذه البنت تتعلم الخياطة، وتضرب على البيانو ونحو ذلك، ولكنها امتنعت عن هذه الأعمال بعد قليل، وفقدت في نفس الوقت اهتمامها بالمجتمع، ولم ترغب في الخروج من دارها، وشعرت بالكآبة وخور العزيمة، وأحست بصغر شأنها إذا قيست إلى أختها، وذلك بسبب ما كان لهذه الأخت من الصفات المحببة أكثر من صفاتها هي، وقد أضحت بسبب ترددها أضعف مما كانت ونشأ عن هذا انحطاط في أخلاقها.

وأخذت في مستقبل حياتها تتردد في أعمالها، ولا تتم شيئاً قط. وترددت أيضاً في الحب وفي الزواج على الرغم من رغبتها في أن تنافس فيهما أختها؛ ولما بلغت سن الثلاثين من عمرها تلفتت حولها فألفت رجلاً مصاباً بالسل، ولسنا نتوقع بطبيعة الحال أن يرضى أبواها عن هذا الاختيار، ولهذا لم تكن في هذه المرة في حاجة إلى الامتناع عن إتمام عمل، لأن أبويها أعفياها من هذا الامتناع، وبذلك لم يتم الزواج. ثم تزوجت في السنة التالية برجل يكبرها بخمسة وثلاثين عاماً، ومن كان في هذه السن لا يظن أنه قد بقيت له صفة الرجال، ولذلك فإن هذا الزواج، الذي لم يكن في الحقيقة زواجاً، كان عقيماً لا فائدة فيه، وكثيراً ما يكون من مظاهر عقدة النقص اختيار شخص زوجاً له أكبر منه سناً، أو لا يصلح أن يكون زوجاً قط، كالرجل المتزوج أو المرأة المتزوجة مثلاً. وكثيراً ما يظن الشخص نفسه جباناً إذا قامت في سبيله عقبات لا يسهل عليه تذليلها. ولما كانت هذه البنت التي نقص قصتها لم تشبع رغبتها في التفوق من طريق الزواج، فقد سلكت سبيلاً أخرى للحصول على عقدة التفوق.

ذلك أنها أخذت تصر على أن أهم شيء في هذا العالم هو أداء الواجب، وأن عليها أن تغتسل على الدوام، فإذا ما مسها شخص أو شيء كان عليها تطهير نفسها، وأصبحت لذلك في عزلة تامة عن المجتمع. وفي الحق إن يديها كانتا شديدتي القذارة لسبب لا يصعب علينا أن ندركه، وهو أن بشرتها قد أمست خشنة من كثرة ما اغتسلت، فلصقت بها الأقذار بكميات كبيرة.

كل هذا يبدو لنا من مظاهر عقدة نقص، لكنها هي نفسها كانت تحس بأنها الإنسان الوحيد الطاهر في هذا العالم، وكانت لا تفتأ تنتقد الناس وتعيب عليهم أنهم لا يتصفون بما تتصف به هي من جنون النظافة، فكأنها كانت في الواقع تمثل دوراً في رواية هزلية. لقد كانت ترغب على الدوام في أن تتفوق على غيرها، والآن وقد نالت هذا التفوق بطريقة وهمية غير حقيقية باعتقادها أنها أطهر مخلوق في العالم، فقد أصبحت عقدة نقصها عقدة تفوق تبدو لنا واضحة كل الوضوح.

ونرى هذه الظاهرة نفسها في المصابين بجنون العظمة، الذين يعتقد الواحد منهم أنه إمبراطور أو أنه يسوع المسيح. وهذا الشخص وأمثاله يضعون أنفسهم في الناحية الغير النافعة من الحياة، ويمثل كل منهم دوره فيها وكأن هذا الدور هو الحقيقة بعينها. لكنه في الواقع في عزلة عن المجتمع، ولو أننا رجعنا إلى ماضيه لوجدنا أنه كان يشعر بالنقص، وأنه قد نمى في نفسه عقدة تفوق بطريقة عقيمة لا نفع فيها قط.

ولنضرب لذلك مثلاً آخر. دخل ولد في الخامسة عشرة من عمره قبل الحرب الكبرى الماضية (1914-1918) مستشفى للأمراض العقلية لأنه كان مصاباً بالهذيان، وقد خيل إلى هذا الشاب أن إمبراطور النمسا قد توفي، ولم يكن هذا صحيحاً بطبيعة الحال، ولكنه ادعى أن الإمبراطور قد جاءه في الحلم وطلب إليه أن يقود الجيش النمساوي لقتال الأعداء، على الرغم من أنه كان شاباً صغير السن ضئيل الجسم بالنسبة لسنّه. ولم يتحول عن هذا الرأي ويقتنع أن الإمبراطور حي يُرزق حين عُرِضت عليه الصحف اليومية، وفيها أن الإمبراطور مقيم في قصره، أو أنه خرج في سيارته، بل أصر على أن الإمبراطور

قد توفي، وأنه زاره في حلمه. وكان علم النفس الفردي يحاول وقتئذ أن يعرف أهمية الوضع الذي يكون عليه الشخص في نومه، ودلالته على ما يشعر به من تفوق أو نقص. وتلك معلومات قد تكون ذات فائدة، فبعض الناس ينامون في فراشهم منحنين كالقنافذ يغطون رؤوسهم، وهذا دليل على وجود عقدة نقص فيهم، ولسنا نعتقد أن الشخص الذي يفعل هذا يكون شخصاً شجاعاً. وإذا رأينا شخصاً ممتداً في فراشه في خط مستقيم، فإن هذا الشخص لا يمكن أن يكون ضعيفاً يرزح تحت أعباء الحياة، بل هو شخص عظيم من الناحيتين المادية والمعنوية كما يبدو عظيماً في نومه. وقد لوحظ أن الذين ينامون على بطونهم أشخاص معاندون مشاكسون.

وقد درست حالة هذا الشاب ليعرف إن أمكن ما عسى أن يكون هنالك من صلة بين سلوكه في اليقظة وحالته في النوم. وقد وُجد أنه ينام وذراعاه مطويتان على صدره، كما كان يفعل نابليون، وكلنا نعرف أن نابليون يظهر في صوره في هذا الوضع. وسئل الولد في اليوم الثاني «أتعرف إنساناً يذكرك به هذا الوضع؟» فأجاب «نعم؛ مدرسي». وحيّر هذا الجواب سائله بعض الحيرة، إلى أن قال بعضهم إن المدرس قد يكن شبيهاً بنابليون. وتبين أن هذا القول صحيح، وأن الولد فضلاً عن هذا يحب هذا المدرس ويريد أن يكون مدرساً مثله، ولكن أسرته لم تكن تملك المال الذي يعينه على إتمام دراسته، فوضعته في مطعم يعمل فيه. فكان المترددون على هذا المطعم يسخرون منه لضآلة جسمه، فلم يطق صبراً على هذا وأراد أن يفر من ذلك المكان الذي يشعره بالذلة ولكنه فرّ منه إلى الجانب غير النافع من الحياة.

وفي وسعنا أن نستقصي ما حدث في حالة هذا الشاب. فقد كان في أول الأمر مصاباً بعقدة نقص سببها أنه ضئيل الجسم، وكان لهذا السبب موضع سخرية المترددين على المطعم، ولكنه كان على الدوام يعمل للتفوق. وكان يريد أن يكون مدرساً، غير أن الظروف حالت بينه وبين هذا العمل، فوجد هدفاً آخر للتفوق، واتجه نحو الجانب غير النافع من الحياة، فتفوق في النوم وفي الأحلام.

ومن هذا نرى أن هدف التفوق يكون أحياناً في الناحية النافعة وأحياناً في الناحية غير النافعة من الحياة، فإذا رأيت شخصاً محسناً مثلاً، فقد يكون معنى ذلك واحداً من اثنين، فإما أنه متوافق مع المجتمع راغب حقاً في معونة الناس، وإما أن يكون هذا الإحساس ناشئاً من رغبته في المباهاة لا أكثر. وكثيراً ما يقابل العالِم النفساني أناساً أكبر هدف لهم هو المباهاة. ومثال ذلك أن ولداً كان سيء السلوك في المدرسة، وقد بلغت حاله من السوء حداً حمله على الهروب منها وعلى سرقة بعض أدواتها. ولكنه كان على الدوام فخوراً مزهواً بنفسه، وكان السبب الذي حمله على فعل ذلك هو عقدة نقصه، فقد كان يريد أن يصل إلى نتائج في ناحية ما، ولتكن ناحية الخيلاء الكذابة لا أكثر، فأخذ يسرق النقود ويقدم الأزهار وغيرها من الهدايا إلى العاهرات. وفي يوم من الأيام خرج في سيارة وذهب بها إلى بلدة صغيرة نائية، وفيها طلب أن تُعَدّ له عربة وستة جياد؛ وجيء له بالعربة فركبها وطاف به في المدينة في أبهة وخيلاء حتى قُبِض عليه. لقد كان هذا الشخص يبغي من كل ما عمل أن يظهر أعظم من غيره من الناس، وأعظم مما هو في الحقيقة.

ويلاحظ في سلوك المجرمين هذا الميل عينه - الميل إلى طلب النجاح الهيِّن الذي أسلفنا الكلام عليه في مناسبة أخرى. وقد نشرت جرائد نيويورك من وقت قريب خبراً عن لص دخل بيتاً لبعض المدرسات، ودار بينه وبينهن حوار، قال فيه اللص للنساء إنهن لا يدركن ما في العمل العادي الشريف من صعاب جمّة، وأن التلصص أسهل كثيراً من العمل الشريف. فهذا الرجل قد فرّ إلى الجانب غير النافع من الحياة، ولكنه حين سلك هذه الطريق قد نمى فيه عقدة تفوق، وكان يشعر أنه أقوى من النساء، فقد كان مسلحاً وهنّ لا يحملن سلاحاً، ولكن هل كان يدرك أنه جبان؟ نحن نعرف أنه كذلك لأننا نرى فيه شخصاً يريد أن يفر من عقدة نقصه بالتجائه إلى الناحية غير النافعة من الحياة، أما هو فكان يظن نفسه بطلاً لا إنساناً جباناً.

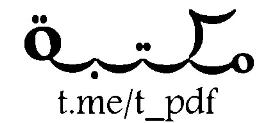
وثمة أشخاص من أنماط أخرى يلجئون إلى الانتحار ليلقوا عن كاهلهم عبء هذا العالم بأجمعه، وما فيه من صعاب؛ ويبدو عليهم أنهم لا يعنون بالحياة،

ولهذا يشعرون بالتفوق وإن كانوا في حقيقة الأمر جبناء. ومن هذا نرى أن عقدة التفوق ليست إلا مرحلة ثانية يعوض بها الشخص عقدة نقصه، والواجب علينا أن نبحث عن صلتها بالجسم، تلك الصلة التي قد يبدو فيها تناقض ولكنها في حقيقة الأمر متفقة مع الطبيعة البشرية كما بيّنّا ذلك من قبل. ومتى عرفنا هذه الصلة أصبح في مقدورنا أن نعالج عقدتي النقص والتفوق جميعاً.

وينبغي لنا ألا نختم موضع عقدتي النقص والتفوق قبل أن نقول كلمة قصيرة عن علاقة العقدتين بالأشخاص العاديين. لقد سبق القول إن كل إنسان يشعر بنقصه، ولكن هذا الشعور بالنقص ليس مرضاً من الأمراض، بل هو بعكس ذلك حافز يدفع الإنسان إلى السعي النافع العادي، وإلى النماء والرقي. وإنما يصبح هذا الشعور مرضاً حينما يطغى الإحساس بالنقص على الفرد فيجعله مكتئباً خائر العزيمة عاجزاً عن النماء، بدل أن يحفزه إلى النشاط النافع. وعقدة التفوق وسيلة من الوسائل التي قد يلجأ إليها الشخص المصاب بعقدة نقص ليفر بها مما يلاقيه من الصعاب. فهو يفترض أنه متفوق حين لا يكون كذلك، وهذا النجاح المزيف يعوضه عن حالة النقص التي يعجز عن تحملها. أما الشخص العادي فغير مصاب بعقدة التفوق، بل إنه لا يحس بالتفوق. إنه يسعى للتفوق بالمعنى الذي نفهمه من طموحنا كلنا للنجاح، وما دام سعيه هذا يبدو في العمل، فهو لا يؤدي به إلى أن يقدِّر نفسه تقديراً خاطئاً، والتقدير الخاطئ هو أصل المرض العقلي.

الفصل الرابع

أسلوب الحياة



إذا نظرت إلى شجرة صنوبر قائمة في أحد الوديان رأيتها تختلف في نموها عن شجرة مثلها في أعلى الجبل، وإن كانت الشجرتان شجرتي صنوبر من نوع واحد. وسبب الاختلاف أن هناك أسلوبين مختلفين لحياة هذه الشجرة. فأسلوب حياة الشجرة في أعلى الجبل يختلف عنه إذا نمت في الوادي، وأسلوب حياة شجرة ما هو فردية هذه الشجرة تعبِّر عن نفسها في بيئة ما. ونحن يسهل علينا أن ندرك أسلوب الحياة للشجرة حين نشاهدها في بيئة ما مختلفة عما نتوقعه في هذه البيئة لأننا نتبين في هذه الحالة أن لكل شجرة طرازاً من الحياة خاصاً بها، وليست مجرد رد فعل آلي للبيئة التي هي فيها.

ويصدق هذا على بني الإنسان كما يصدق على الأشجار سواءً بسواء. فنحن نرى أسلوب الحياة في أحوال معينة من البيئة؛ ومن واجبنا أن نحلل ما بين هذا الأسلوب وبين الظروف القائم فيها من علاقة، لأن عقل الإنسان يتبدل بتبدل البيئة التي حوله. وما دام الشخص في أحوال ملائمة له فإننا لا نستطيع أن نرى أسلوب حياته واضحاً جلياً؛ أما إذا وُجِد في ظروف جديدة يواجه فيها صعاباً، فإن أسلوب حياته يظهر واضحاً مميَّزاً عن غيره من الأساليب. وقد يكون في وسع العالِم النفساني المجرِّب أن يفهم أسلوب حياة إنسان ما، حتى إذا كان في ظروف ملائمة، ولكن هذا الأسلوب يبدو واضحاً حتى لغير العلماء إذا وضع الشخص في أحوال صعبة أو غير ملائمة له.

والحياة كما نعلم ليست مجرد لهو أو لعب، ولهذا فإنها لا تخلو من الصعاب، بل إن فيها على الدوام ظروفاً يجد الناس فيها أنفسهم أمام مشاكل. وإذا أراد علماء النفس أن يدرسوا شخصاً ما ليتبينوا حركاته وخصائصه المميزة له وجب عليهم أن يدرسوه عندما يواجه هذه المشاكل. وقد قلنا من قبل إن أسلوب الحياة وحدة متصلة الأجزاء، لأنه نشأ من صعاب الحياة الأولى ومن العمل لبلوغ هدف ما.

ولكن أكثر ما نعنى به هنا هو المستقبل لا الماضي، وإذا شئنا أن نفهم مستقبل شخص ما وجب علينا أن نفهم أسلوب حياته، لأننا حتى إذا فهمنا غرائزه ومنبهاته ودوافعه وغيرها فإن ذلك لا يكفي لأن نتنبأ بما لا بد من حدوثه له. نعم إن بعض علماء النفس يحاولون أن يصلوا إلى نتائج بمراقبة بعض غرائز الشخص، أو ما ينطبع في ذهنه من الآثار، أو ما يظهر من الأعراض الغير العادية، ولكن البحث الدقيق يُظهر أن من وراء هذه العناصر كلها أسلوباً للحياة متناسقاً موافِقاً لها، وأن كل تنبيه خارجي لا ينبه إلا لينقذ ويثبت أسلوباً للحياة.

وكيف ترتبط فكرة أسلوب الحياة بالأمور التي بحثناها في الفصل السابق؟ لقد رأينا كيف يصاب بشعور النقص أو بعقدة النقص الأشخاص الضعاف الأجسام لأنهم يواجهون الصعاب ويشعرون بعجزهم أمامها، وإذ كان بنو الإنسان لا يطيقون الصبر على هذا طويلاً فإن شعورهم بالنقص ينبههم إلى أن يتحركوا ويعملوا، وهذا يؤدي إلى وجود هدف للشخص؛ وقد أطلق علم النفس الفردي على هذه الحركة المتناسقة التي تعمل لبلوغ هذا الهدف اسم خطة الحياة؛ ولكن هذه التسمية قد نتج عنها أخطاء بين الباحثين، ولذلك استبدل بها الآن اسم أسلوب الحياة.

ولما كان لكل شخص أسلوب للحياة خاص، فإن من الميسور أن نستدل على مستقبله من مجرد الحديث إليه وسماع إجابته عن بعض الأسئلة. فكأننا في هذه الحالة نشاهد الفصل الخامس من مسرحية -وهو الفصل الذي يكشف فيه عن جميع خفاياها-، وفي وسعنا بهذه الوسيلة أن نتنبأ بما سيكون لأننا نعرف

مراحل الحياة وصفاتها ومسائلها. ففي وسعنا مثلاً بشيء من التجربة والعلم بقليل من الحقائق أن ننبئ بما سيحدث للأطفال الذين يعتزلون غيرهم على الدوام والذين يترقبون العون من غيرهم، والذين يُنَعمون ويدللون، والذين يترددون في معالجة الظروف الطارئة. فماذا يحدث مثلاً للشخص الذي يكون هدفه أن يعينه غيره من الناس؟ إن هذا الشخص يتردد ويفر من معالجة مسائل الحياة، أو يقف عاجزاً أمامها. ونحن نعرف أنه يتردد إذا واجهته الصعاب أو يقف أمامها أو يفر منها، لأننا قد رأينا هذا كله يحدث آلاف المرات؛ ونعرف أنه لا يريد أن يعمل بمفرده بل يريد أن يُنعَّم ويدلل، ويريد أن يبتعد عن مشاكل الحياة الكبرى ليشغل نفسه بما لا يفيد من الأمور، بدل أن يشغلها بالمفيد منها. وليس هذا الطفل ما يعنى به اجتماعياً، ولذلك فقد يصبح طفلاً معضلاً أو مصاباً بمرض نفساني أو مجرماً، أو منتحراً، وهذا هو ملجأه الأخير من الصعاب. وقد أصبح علم هذا كله الآن معروفاً أكثر من ذي قبل.

وإذا أردنا أن نعرف أسلوب حياة شخص ما، فعلينا أن نتخذ أسلوب الحياة العادي أساساً نقيس عليه، فنجعل من الشخص المنسجم مع المجتمع قاعدة، ثم نقيس ما بينه وبين غيره من اختلاف.

وقد يكون مما يعيننا على إيضاح هذا الموضوع أن نبين للقارئ كيف يحدَّد الأسلوب العادي للحياة، وكيف نستعين به على معرفة الأخطاء والخواص الغريبة للناس. ولكن علينا قبل أن نبحث هذا الموضوع أن نذكر أننا لا نحصي في هذه الدراسة أنماطاً من الناس، ولا نعد بني الإنسان أنماطاً مختلفة لأن لكل واحد منهم أسلوباً للحياة خاصاً به. فكما أن الإنسان لا يستطيع أن يجد ورقتين من شجرة متشابهتين في كل صغيرة وكبيرة، فإنه لا يستطيع أن يجد شخصين متماثلين في كل شيء، ذلك بأن الطبيعة غنية، وأن ما يصادف الشخص من بواعث وغرائز وأخطاء كثير العدد إلى حد يصعب معه وجود شخصين متماثلين في كل شيء. ولهذا فإننا إذا ذكرنا لفظ أنماط فإنما نذكره على أنها وسيلة ذهنية نستعين بها على فهم ما بين الأفراد من تشابه. ذلك أن حكمنا يكون أصح إذا اعتبرنا صنفاً من العقول نمطاً قائماً بنفسه ودرسنا خواصه. على أننا إذا فعلنا ذلك لا

نقيد أنفسنا باتباع التصنيف نفسه في جميع الأحوال، بل نستخدم من أنواع التصنيف أكثرها نفعاً في إيضاح ناحية معينة من نواحي التشابه. وأما الذين يتقيدون تقيداً شديداً بالتصنيفات، فإنهم إذا وضعوا شخصاً في صنف ما لا يدركون كيف يستطيعون أن يضعوه بعد ذلك في صنف آخر.

ولنضرب لذلك مثلاً يوضحه. إننا إذا تكلمنا على نمط من الناس غير متوافق مع المجتمع، فإننا نعني بهذا القول شخصاً يحيا حياة عقيمة ليس فيها أي اهتمام بالمجتمع. تلك طريقة من طرق تصنيف الأفراد، وقد تكون من أهم الطرق، ولكن انظر إلى حالة الفرد الذي يركز اهتمامه مهما يكن قليلاً على المرئيات وحدها. إن هذا الشخص يختلف كل الاختلاف عن الشخص الذي يركز معظم اهتمامه على الأشياء المنطوقة، ولكن كليهما قد يكون غير متوافق، ويرى أن من الصعب عليه أن ينشئ له صلات مع غيره من الناس. ومن هذا يرى أن تصنيف الناس أنماطاً منفصلة قد يكون مصدراً للاضطراب إذا لم ندرك أن الأنماط ليست في الحقيقة إلا تجريدات ذهنية لا يقصد بها إلا تيسير البحث.

ولنعد بعدئذ إلى الرجل العادي الذي اتخذناه معياراً لقياس الاختلافات، فنقول إن هذا الرجل العادي فرد يعيش في مجتمع، وقد كيّف طريقة حياته بحيث يستفيد المجتمع من عمله فائدة ما، سواء أراد هو ذلك أو لم يرده. وهو من الوجهة النفسية قد أوتي من النشاط والشجاعة ما يكفيه لمواجهة المشاكل والصعاب كلما عُرِضت له. وهاتان الصفتان معدومتان في الأشخاص المصابين بأمراض نفسية، فهم غير متوافقين من الناحيتين الاجتماعية أو النفسية مع واجبات الحياة اليومية. ولنضرب لذلك مثلاً رجلاً في الثلاثين من عمره كان يفر في آخر الأمر من حل الصعاب التي تواجهه؛ وكان له صديق ولكنه كان شديد الارتياب فيه، ومن ثم فإن هذه الصداقة لم تثمر ثمرة طيبة. والصداقة لا تنمو في مثل هذه الظروف لأن الشريك الثاني فيها يشعر بما في العلاقة بينه وبين الشريك الأول من توتر. ومن السهل علينا أن نعرف السبب في أن هذا الشخص لم يكن له أصدقاء على الرغم من أنه يتبادل الحديث مع عدد كبير من الناس. سبب ذلك أنه لم يكن ذا اهتمام كافٍ بالمجتمع، ولم يكن متوافقاً معه من

الوجهة الاجتماعية توافقاً يكفي لأن يربطه مع الناس برباط الصداقة. والحق أن هذا الرجل لم يكن يحب المجتمعات، وكان دائم السكوت حين يود مع الناس، وكان يعلل هذا بأنه إذا وجد في المجتمعات لم تكن لديه أفكار قط، فلا يجد لديه ما يتحدث عنه.

وكان الرجل إلى ذلك حيياً، وكان أحمر البشرة، وكانت حمرته تزداد إذا تحدث، ولكنه كان إذا استطاع التغلب على حيائه تحدث أحسن الحديث. وكان الذي يحتاجه في الواقع أن يساعَد بعض المساعدة على أن يتغلب على حيائه وألا يُنتقَد. ولا حاجة إلى القول بأنه لم يكن في حالته هذه ظريفاً، كما أن جيرانه لم يكونوا يحبونه. وكان هو يشعر بهذا، ومن ثم فإن كرهه الحديث أخذ يزداد زيادة مطردة. وقد يكون في وسعنا أن نقول إن أسلوب حياته كان بحيث يجعله إذا اتصل بغيره من الناس في المجتمع لفت أنظارهم إليه.

ويأتي بعد الحياة الاجتماعية وفن الانسجام مع الأصدقاء، مشكلة مهنة الإنسان وعمله. وكان هذا الشخص الذي نحن بصدده يخشى على الدوام أن يفشل في مهنته، فواصل الدرس ليلاً ونهاراً، وأجهد نفسه فوق طاقته، وبسبب هذا الإجهاد نفسه صار عاجزاً عن حل مشكلة مهنته أيضاً.

وإذا بحثنا الطريقة التي عالج بها هذا المريض المشكلتين الأولى والثانية من مشاكل حياته رأينا أنه كان على الدوام في حالة من التوتر أشد مما ينبغي، وذلك دليل على أنه كان شديد الشعور بالنقص، فكان يحط من قدر نفسه، وينظر إلى غيره من الناس، وإلى الظروف الجديدة التي يوجد فيها، كأنهم وكأنها أشياء بينه وبينها عداء، فكان مسلكه مسلك المقيم في بلد معادٍ له.

ولقد تجمع لدينا بعد هذا الوصف من المعلومات ما نستطيع به أن نصور أسلوب حياة هذا الرجل. إن في وسعنا أن نرى أنه يود النجاح في الحياة، ولكن الطريق كان في الوقت نفسه مغلقاً أمامه، لأنه كان يخشى الهزيمة، فكان كالواقف أمام هوة سحيقة مجهوداً متوتر الأعصاب، في وسعه أن يتقدم إلى الأمام بشروط وفي ظروف خاصة، ولكنه يفضل أن يقبع في عقر داره ولا يختلط بغيره.

وكانت المشكلة الثالثة التي واجهها هذا الرجل -وهي مشكلة ليس الكثيرون من الناس على استعداد تام لمواجهتها- هي مشكلة الحب. لقد تردد هذا الرجل في الاتصال بالنساء، فقد وجد أنه راغب في أن يحب ويتزوج، ولكنه كان شديد الخوف من مواجهة عواقب هذا الأمر لشدة ما يشعر به من النقص، فلم يستطع بلوغ غرضه فيه. وفي وسعنا بعد ذلك أن نلخص سلوكه كله وموقفه كله في هاتين الكلمتين «نعم... ولكن»، فتراه يحب فتاة ثم يحب أخرى، وذلك أمر كثير الحدوث في حالة المصابين بالأمراض النفسية، لأن فتاتين أقل من فتاة في معنى من المعاني؛ وتلك حقيقة تفسر لنا أحياناً ميل بعض الرجال إلى تعدد الزوجات.

والآن فلنبحث عن أسباب هذا الأسلوب من أساليب الحياة. إن من وظيفة علم النفس الفردي أن يحلل سبب وجود أسلوب الحياة، وهذا الرجل قد حُدِّد أسلوب حياته في الأربع أو الخمس السنين الأولى منها. فقد حدثت في ذلك الوقت مأساة صاغته وشكلته، ولهذا كان علينا أن نبحث عن هذه المأساة. وفي وسعنا أن نحزر من أول الأمر أن شيئاً ما قد أفقده اهتمامه العادي بغيره، وطبع في نفسه أن الحياة ليست إلا مشكلة عظيمة، وأن اليأس من النجاح فيها بتاتاً خير من مواجهة الصعاب فيها على الدوام، ولهذا أصبح حَذِراً متردداً باحثاً عن طرق للفرار.

وحقيقة الأمر أن هذا الرجل كان هو الطفل الأول لأبويه، ولقد تحدثنا من قبل عما لهذا الأمر من أهمية كبرى، وأظهرنا أن أهم المسائل في حال الطفل الأول من أطفال الأسرة أنه يبقى عدة سنين موضع عنايتها، ثم ينزل عن هذا المركز السامي ويفضَّل عنه غيره. وإذا رأينا شخصاً حيياً يخشى التقدم في الحياة، كان السبب في كثير من الحالات أنه فُضِّل عنه غيره، ولهذا لم يكن من الصعب علينا في حالة هذا الشخص الذي نحن بصدده أن ندرك منشأ مشكلته.

وقد لا نحتاج في كثير من الحالات إلى أكثر من أن نسأل المريض: «أأنت أول أطفال الأسرة أم ثانيهم أم ثالثهم؟» فيكون في جوابه كل ما نحن في حاجة إليه. وفي وسعنا أيضاً أن نلجأ إلى وسيلة أخرى تختلف عن الوسيلة السابقة كل

الاختلاف. في وسعنا أن نسأله عن ذكريات له قديمة، وسنفصل القول في الذكريات في الفصل التالي من هذا الكتاب. وحسبنا أن نقول الآن إن هذه الطريقة جديرة بالعناية، لأن الذكريات أو الصور الأولى هي العناصر التي تألف منها أسلوب الحياة الأول، الذي سميناه من قبل المثال الأول وفي مقدور الباحث أن يعرف جزءاً من هذا المثال الأول عندما يذكر المسؤول شيئاً من ذكرياته القديمة. ذلك أن كل إنسان إذا نظر إلى ماضيه تذكر أشياء مهمة، لأن الذاكرة لا يبقى فيها دائماً إلا ما يهم. لا ننكر أن ثمة طوائف من علماء النفس يتخذون أساس عملهم عكس هذا الفرض، ويعتقدون أن ما نسيه الشخص أهم ما يجب أن نعنى به، ولكن الحقيقة أنه لا يوجد فارق كبير بين الرأيين، فلربما استطاع إنسان أن يحدثنا عن ذكرياته الواعية، ولكنه لا يدرك معناها ولا يعرف ما بينها وبين أعماله من صلة، ومن ثم تكون النتيجة واحدة سواء أكّدنا المعنى الخافي أو المنسي للذكريات الواعية، أو أكّدنا أهمية الذكريات المنسية نفسها.

وفي قليل من وصف الذكريات القديمة ما ينير لنا السبيل كل الإنارة، فقد يقول لك إنسان إن أمه قد أخذته إلى السوق ومعهما أخوه الأصغر منه، فيكون في هذا القول ما يغنينا عن كل شيء وما نعرف منه أسلوب حياته، فهو يرسم لنا صورة مكونة منه ومن أخ أصغر منه سناً، فيدل بذلك على أن وجود أخ صغير له كان أمراً يهمه. فإذا استدرجته بعد ذلك وصلت إلى حال شبيهة بحال رجل تذكر أن المطر بدأ ينهمر في يوم ما، ثم أخذته أمه بين يديها ولكنها حين رأت أخاه الصغير تركته هو وحملت أخاه. ونستطيع من هذا أن نتصور أسلوب حياته. فهو دائماً يتوقع أن يُفضَّل عنه شخص آخر، ومن ثم يكون السبب الذي يمنعه من الكلام في المجتمعات أنه ينظر حوله على الدوام ليرى هل هناك شخص آخر يُفضَّل عنه. وينطبق هذا نفسه على الصداقة، فهو يظن دائماً أن صديقه يفضِّل عنه غيره، ولذلك لا يكون له قط صديق وفي، وهو يرتاب في الناس على الدوام، وينقب عن الأشياء التافهة التي تعكر صفو الصداقة.

وفي وسعنا أن ندرك أيضاً كيف عاقت المأساة التي حلّت به نمو اهتمامه الاجتماعي، فهو يذكر أن أمه حملت أخاه الأصغر بين ذراعيها، ويشعر أن هذا

الطفل كان يلقى من عناية أمه أكثر مما يلقى هو، وهو يشعر أن أخاه الأصغر يفضَّل عنه، ويبحث دائماً عما يؤيد هذه الفكرة، وهو مقتنع كل الاقتناع بأنه مصيب في ظنه، وهو يرزح على الدوام تحت عبء الصعوبة الناشئة من سعيه للقيام بأعماله في الوقت الذي يكون فيه غيره مفضلاً عنه.

والحل الوحيد لمشكلة هذا الطفل المرتاب هو العزلة التامة حتى لا يضطر إلى منافسة غيره في وقت من الأوقات، وليكون كأنه الشخص الوحيد على ظهر هذه الأرض. والواقع أنه قد يبدو لخيال هذا الطفل أحياناً أن العالم كله قد تهدم، فلم يبقَ فيه إلا هو وحده، ولم يعد غيره يفضَّل عنه. وهكذا نرى كيف يعالج كل الاحتمالات التي يستطيع أن ينقذ بها نفسه، ولكنه لا يتبع فيها سبيل الحق والمنطق والإدراك الفطري العام، بل يتبع سبيل الريبة ويعيش في عالم محدود تتملكه فيه فكرة خاصة للهرب منه؛ وهو مقطوع الصلة بغيره من الناس، ولا اهتمام له بأحد منهم؛ وليس لنا أن نلومه على ذلك لأننا نعلم أنه ليس في حقيقة أمره شخصاً سوياً.

ومن واجبنا أن نهيئ لهذا الشخص وأمثاله وسائل الاهتمام الاجتماعي الذي نتطلبه من شخص متوافق مع المجتمع. فكيف السبيل إلى ذلك؟ إن أصعب ما يعانيه أولئك الذين نشأوا هذه النشأة هو أنهم مجهَدون، وأنهم على الدوام يبحثون عما يؤيد أفكارهم الثابتة في عقولهم، ولهذا يستحيل علينا أن نبدل أفكارهم إلا إذا تيسر لنا بوسيلة ما أن ننفذ إلى شخصيتهم، وأن ننتزع منهم تصوراتهم الأولى، ولا بد للوصول إلى ذلك من الاستعانة ببعض الحيلة واللباقة. ومن أحسن الأشياء ألا يكون الناصح لهذا المريض وثيق الصلة به أو ممن يهمهم أمره، لأن الناصح إذا كان ممن يهمهم أمر المريض يجد على الفور أنه إنما يعمل لمصلحته الخاصة لا لمصلحة المريض نفسه، وتلك حالة لا تخفى على المريض بل يدركها وتداخله الريبة في الأمر.

وأهم ما في المسألة أن نقلل من شعور المريض بالنقص؛ وليس في الاستطاعة أن يستأصل هذا الشعور بأكمله، بل إنه ليس من المصلحة أن نستأصله كله، لأن الشعور بالنقص يمكن أن يُتخَذ أساساً صالحاً للبناء فوقه.

والذي يجب علينا أن نفعله هو أن نغيِّر الهدف. ولقد رأينا أن هدف هذا المريض هو الفرار لأن شخصاً آخر يفضَّل عنه، ولهذا يجب أن يكون عملنا موجهاً نحو هذه العقدة من الأفكار، فيجب أن نخفف من شعوره بالنقص بأن نُظهِر له أنه في حقيقة الأمر يحط من قدر نفسه. وفي وسعنا أن ندلّه على ما في حركاته من متاعب ونوضح له ميله لأن يكون مكدوداً مجهوداً كأنه واقف أمام هوة سحيقة، أو كأنه في بلد معادٍ له يتهدده الخطر فيه على الدوام، وفي استطاعتنا أن نبين له أن خوفه من أن يفضَّل غيره عنه يحول بينه وبين إجادة عمله، ويمنعه أن يُحدِث خير الآثار التلقائية في غيره.

وإذا أمكن حمل هذا الشخص على أن يستقبل الضيوف، فيهيئ أسباب السرور لأصدقائه، وأن يبش لهم ويؤنسهم ويفكر في مصالحهم، فإن ذلك يصلح حاله كثيراً. ولكننا نرى أن هذا الشخص في الحياة الاجتماعية العادية يعجز عن أن يسر نفسه، وأنه ليست لديه أفكار، وهو من أجل هذا يقول لنفسه «أولئك أشخاص بلهاء، إنهم لا يسرونني، وليس في وسعهم أن يحملوني على الاهتمام بهم».

وتنحصر المشكلة التي نواجهها في أمثال هذا الشخص في أنهم لا يفهمون ظروفهم بسبب عقليتهم الخاصة بهم ونقص إدراكهم الفطري العام، فكأنهم كما قلنا من قبل يواجهون على الدوام أعداء لهم، ويحيون كما يحيا الذئب المستوحش المنفرد بنفسه. وتلك الحياة شذوذ محزن في المجتمع الإنساني.

ولنبحث الآن حالة خاصة أخرى وهي حالة شخص مصاب بداء السوداء وهو مرض كثير الانتشار ولكنه ميسور العلاج. وفي مقدورنا أن نتعرف المصابين به في مستهل حياتهم. والواقع أننا نلاحظ كثيرين من الأطفال تبدو عليهم عندما يوجَدون في ظروف جديدة أعراض هذا الداء، وقد أصيب هذا الرجل الذي سنتحدث عنه الآن بعشر نوبات أو نحوها، وكانت هذه النوبات تحدث على الدوام عندما يُعيَّن في منصب جديد؛ وكانت حالته تبقى عادية تقريباً ما دام في منصبه القديم، وكل ما كان يبدو عليه من أحوال غير

عادية أنه لم يكن يحب الخروج إلى المجتمعات، وأنه كان يرغب في السيطرة على غيره، ولهذا السبب لم يكن له أصدقاء، وظل من غير زواج حتى بلغ الخمسين من عمره.

والآن فلنرجع إلى أيام طفولته لندرس أسلوب حياته. لقد كان في طفولته شكساً شديد الحساسية، وكان على الدوام يسيطر على إخوته الكبار وعلى أخواته، مستعيناً على ذلك بالمبالغة في آلامه وأسباب ضعفه. وحدث أن كان إخوته في يوم من الأيام يلعبون على الأريكة فدفعهم عنها دفعاً، فلما أنّبته عمته على عمله هذا قال لها «إنك قد قضيت على حياتي كلها لأنك عبت عليّ عملي» ولم يكن في هذا الوقت قد تجاوز السنة الرابعة أو الخامسة من عمره.

هكذا كان أسلوب حياته: كان على الدوام يحاول أن يسيطر على غيره ويشكو على الدوام من ضعفه ومما كان يعانيه، وقد أدت به هذه الصفات إلى أن يصاب في حياته المقبلة بالسوداء؛ وليس هذا الداء نفسه إلا إفصاحاً عن الضعف، ويكاد كل المصابين به ينطقون بهذه العبارة «إن حياتي كلها قد قضى عليها! لقد خسرت كل شيء» وكثيراً ما يكون هؤلاء ممن دُلِّلوا ثم حيل بينهم وبين تدليلهم فأثّر هذا في أسلوب حياتهم.

وبنو الإنسان في استجاباتهم لما يوجدون فيه من الظروف شديدو الشبه بأنواع الحيوان المختلفة. فالأرنب يستجيب استجابة تختلف عن استجابة الذئب أو النمر في الظروف المماثلة، وهذا شأن بني الإنسان أيضاً. وقد أخذ مرة ثلاثة أولاد من أنماط مختلفة إلى قفص فيه أسد ليُعلَم كيف يكون سلوكهم عندما يرون هذا الوحش المخيف أول مرة. فأما أولهم فقد لوى وجهه وقال: «فلنعد إلى المنزل»، وأما الثاني فقال: «ما ألطفه!» وكان يتظاهر بالشجاعة، ولكنه وهو يقول هذا القول كان يرتعد فرقاً، فكان في الحقيقة جباناً. وقال الثالث: «أيسمح لي بأن أبصق عليه؟». إن لدينا هنا ثلاث استجابات مختلفة، أي ثلاث طرق مختلفة للتأثر، وهي تدل فيما تدل عليه على أن بني الإنسان في معظم الأحوال يميلون إلى الخوف.

وهذا الخوف إذا بدا في الأحوال الاجتماعية يكون من أكبر أسباب عدم التوافق مع المجتمع. ولنضرب لذلك مثلاً: كان رجل من أسرة عريقة في المجد لا يريد قط أن يجهد نفسه، بل يرغب على الدوام أن يعينه غيره، وكان يبدو ضعيفاً، ولم يكن في وسعه بطبيعة الحال أن يجد له عملاً. ولما ساءت حال أسرته المالية أخذ إخوته يعيرونه ويقولون له: «لقد بلغ من غباوتك أنك لا تستطيع أن تجد لك عملاً، إنك لا تعقل شيئاً». ولذلك بدأ هذا الرجل يتعاطى المسكرات، ولم يمضِ عليه إلا بضعة شهور حتى أصبح سكيراً مدمناً، وساءت حاله حتى وُضِع في ملجأ من الملاجئ بقي فيه سنتين، وتحسنت حاله بهذه الطريقة لكنها لم تنصلح صلاحاً دائماً، لأنه أعيد إلى المجتمع من غير أن يُعدَّ له، فلم يستطع أن يجد له عملاً غير عمل الفعلة، مع أنه كان من سلالة هذه الأسرة الكريمة المعروفة. ولم يلبث أن أصيب بالهذيان فظن أن شخصاً يظهر له ليعاكسه حتى لا يستطيع العمل... لقد كان في أول الأمر عاجزاً عن العمل لأنه سكير، ثم أصبح لا يستطيعه لهذيانه، ومن هذا نرى أن العلاج الناجع للسكير لا يقتصر على منعه من الشراب بل العلاج الناجع أن نعرف أسلوب حياته ونصححه.

ولما بحثت حالة هذا الرجل تبين أنه كان طفلاً مدللاً، يريد على الدوام أن يعينه غيره، وأنه لم يُعَدّ للعمل بمفرده، فكانت النتيجة ما رأينا. ومن ثم كان الواجب علينا أن نحرص على أن يُعوَّد الأطفال الاستقلال بأنفسهم؛ والسبيل الوحيدة إلى هذا هي أن ندلّهم على ما في أسلوب حياتهم من أخطاء. وقد كان من الواجب أن يُدرَّب هذا الطفل الذي نتحدث عنه على أن يعمل عملاً؛ ولو دُرِّب لنجا من هذا الموقف الذي كان يستحي منه عندما يجتمع بإخوته وأخواته.

الفصل الخامس

الذكريات القديمة

بعد أن فرغنا من بحث أهمية أسلوب حياة الفرد ننتقل إلى موضوع الذكريات القديمة، وقد تكون هذه الذكريات أهم الوسائل التي توصلنا إلى معرفة أسلوب حياة إنسان ما. ذلك بأن في وسعنا إذا عدنا إلى ذكريات الطفولة أن نكشف عن المثال الأول للشخص، وهو لباب أسلوب حياته، أحسن مما نستطيع الكشف عنه بأي طريقة أخرى.

وإذا أردنا أن نعرف أسلوب حياة شخص ما، صغيراً كان أو كبيراً، وجب علينا بعد أن نستمع قليلاً إلى ما يشكو منه، أن نسأله عن ذكرياته القديمة، ثم نوازن بينها وبين ما يذكره من الحقائق الأخرى. وأسلوب الحياة لا يتغير قط في معظم أجزائه، فالشخص الواحد يظل هو بعينه محتفظاً بشخصيته وبوحدته. وقد سبق القول إن أسلوب الحياة يتكون من طريق السعي وراء هدف للتفوق خاص، ومن أجل ذلك يجب أن نتوقع أن تكون كل كلمة، وأن يكون كل عمل وكل شعور جزءاً أساسياً من خط العمل كله. ويكون خط العمل هذا في بعض النقط أوضح منه في البعض الآخر، ويحدث هذا على الأخص في الذكريات القديمة.

بيد أنه ينبغي لنا ألا نفرق أكثر مما يجب بين الذكريات القديمة والحديثة، لأن الذكريات الحديثة تنطوي هي أيضاً على خط العمل، كما تنطوي عليه الذكريات القديمة. والعثور على خط العمل في مبدأ الحياة أسهل وأكثر هداية لنا، لأن من اليسير علينا في ذلك الوقت أن نكشف عن موضوع بحثنا، ونستطيع أن نتبين أن أسلوب حياة الشخص لا يتغير تغيراً حقيقياً. وفي وسعنا

أن نجد في أسلوب الحياة الذي يتكون في سن الرابعة أو الخامسة ما بين ذكريات الماضي وأفعال الحاضر من صلة، ومن ثم نستطيع بعد كثير من أمثال هذه المشاهدات أن نستمسك بالنظرية القائلة إن في مقدورنا أن نجد في هذه الذكريات القديمة جزءاً حقيقياً من المثال الأول للمريض.

وإذا عاد المريض بعقله إلى ماضيه، فليس ثمة شك في أن كل ما تنطق به ذاكرته سيكون من الأشياء التي يهتم بها من ناحية انفعالاته النفسية. ولذلك يكون في وسعنا أن نجد فيها باباً ننفذ منه إلى معرفة شخصيته. ولسنا ننكر أن للذكريات التي نسيت شأناً ما في أسلوب الحياة وفي المثال الأول للإنسان، ولكن من الصعب علينا في كثير من الأحوال أن نعرف الذكريات المنسية أو الذكريات اللاواعية كما يسميها الباحثون. على أن الذكريات الواعية واللاواعية تشتركان في أن كلتيهما تؤدي إلى هدف التفوق نفسه، وأن كلتيهما جزء من المثال الأول الكامل، ولذلك يحسن أن نعرف الذكريات الواعية واللاوعية جميعاً إذا استطعنا إلى ذلك سبيلاً. ويكاد النوعان في آخر الأمر أن يكونا متساويين في الأهمية، وكلاهما يجهله صاحبه في الأغلب الأعم، وغيره هو الذي يجب عليه أن يعمل لفهمه وتفسيره.

ولنبدأ بالكلام على الذكريات الواعية، فنقول إن بعض الناس إذا سئلوا عن ذكرياتهم القديمة أجابوا بقولهم «لست أذكر منها شيئاً». وعلينا في هذه الأحوال أن نطلب إليهم أن يحصروا أفكارهم، وأن يحاولوا أن يتذكروا، وتراهم بعد أن يبذلوا بعض الجهد يتذكرون شيئاً؛ وقد يكون ترددهم هذا دليلاً على أنهم لا يريدون أن يعودوا بذاكرتهم إلى عهد بعيد في طفولتهم؛ وقد يؤدي بنا هذا إلى الحكم بأن هذه الطفولة لم تكن سارة. ومن واجبنا أن نرشد أمثال هؤلاء الأشخاص، وأن نلمح لهم من طرف خفي مما يعيننا على معرفة ما نرغب في معرفته، وسنجد في آخر الأمر أنهم على الدوام يتذكرون بعض الأشياء.

ويدعى بعض الأشخاص أن في وسعهم أن يعودوا بذكرياتهم إلى السنة الأولى من حياتهم، ولكن هذا غير مستطاع، وليس ما يذكرونه في الحقيقة إلا ذكريات خيالية. على أنه لا فرق بين أن يكون ما يذكرونه خيالات أو ذكريات

حقة، فهي في كلتا الحالتين أجزاء من شخصية الإنسان. ويؤكد بعض الناس أنهم لا يعرفون على وجه التحقيق هل ما يقولونه جزء من ذكرياتهم الخاصة، أو أن آباءهم قد حدثوهم به. وليس هذا أيضاً بالشيء المهم، لأنه حتى إذا كان آباؤهم هم الذين حدثوهم به، فإنه قد ثبت في عقولهم، وهو لهذا يعيننا على أن نعرف موضع اهتمامهم.

ولقد قلنا في الفصل السابق من هذا الكتاب إن مما يعيننا على الوصول إلى بعض أغراضنا أن نقسم الأشخاص أنماطاً، ونقول هنا إن الذكريات نفسها تنقسم أيضاً حسب هذه الأنماط. وهي تكشف ما يمكن أن نتوقعه من سلوك نمط خاص من الناس. ولننظر قليلاً إلى حالة شخص يتذكر أنه رأى شجرة عيد ميلاد عجيبة محملة بالأنوار والهدايا وفطائر العيد، فما هو أهم شيء في هذه القصة؟ إن أهم شيء هو «أنه رأى» ولِمَ يقول لنا هذا الشخص إنه رأى؟ سبب هذا أنه يهتم على الدوام بالمرئيات، وأغلب الظن أن هذا الشخص قد كافح بعض الصعاب الخاصة بالبصر، وكانت نتيجة التدريب الذي أفاده من هذا الكفاح أن أصبح يعنى على الدوام بالمرئيات، ويلتفت أشد الالتفات إليها. ولعل هذا ليس أهم العناصر التي يتكون منها أسلوب حياته، ولكنه جزء هام طريف من هذا الأسلوب، وهو يدلنا على أننا إذا ما أردنا أن نعين له عملاً من الأعمال، وجب أن يكون هذا العمل مما يستخدم فيه عينيه.

وكثيراً ما تهمل المدرسة هذا المبدأ في تربية الأطفال، فقد نجد فيها طفلاً لا يصغي إلى الدرس لأنه يريد على الدوام أن ينظر إلى شيء ما، وواجبنا في مثل هذه الحالة أن نصطنع الصبر عندما نحاول أن نعلمه الإصغاء. وفي المدارس كثيرون من الأطفال لا يُعلَّمون إلا من ناحية واحدة، لأنهم لا يُسرون إلا مما يدخل عقولهم عن طريق حاسة واحدة؛ فمنهم من يحسن السمع دون غيره، ومنهم من يريد على الدوام أن يتحرك وأن يعمل؛ وليس من حقنا أن ننتظر النتائج نفسها من هذه الأنماط الثلاثة، وبخاصة إذا كان المدرس يفضل طريقة واحدة من طرق التدريس كالطريقة التي تصلح للأطفال المصغين مثلاً، فإذا ما

استخدمت هذه الطريقة وحدها عاد استخدامها بالضرر على الأطفال الذين يفضلون النظر والعمل، وحالت بينهم وبين تقدمهم.

ولنبحث بهذه المناسبة حال شاب في الرابعة والعشرين من عمره كانت تنتابه نوبات إغماء، ولما سئل هذا الشاب عن ذكرياته تذكر أنه في السنة الرابعة من عمره أغمى عليه حين سمع صفير قطار. ومعنى هذا أنه كان رجلاً قد «سمع» أي أنه يعنى بالأشياء المسموعة. وليس من الضروري في هذا المقام أن نشرح كيف نشأت عند هذا الشاب نوبات الإغماء، وحسبنا أن نشير إلى أنه أصبح من أيام طفولته شديد التأثر بالأصوات. وكانت لهذا الطفل أُذُن موسيقية فلم يكن يحتمل الأصوات الناشزة والنغمات الصارة المتنافرة، فليس بعجيب أن يتأثر هذا التأثر كله بصفير القطار. وثمة أشياء كثيرة يهتم بها الأطفال أو الكبار، لأنها سببت لهم متاعب في يوم ما. ولعل القارئ يذكر حال الرجل الذي كان مصاباً بالربو والذي ورد ذكره في فصل سابق من فصول الكتاب. إن هذا الرجل قد لف وهو طفل لفاً شديداً حول رئتيه لمرض أصيب به وقتئذ، وكانت نتيجة هذا أن أصبح شديد الاهتمام بوسائل التنفس.

وقد يصادف الإنسان أشخاصاً يخيل إليه أن عنايتهم كلها منصرفة إلى ما يأكلون، ويجد أن الذكريات الأولى لهؤلاء ذات علاقة بالكل، وكأنما كان أهم شيء في العالم بالنسبة لهم هو كيف يأكلون؟ وماذا يأكلون أو لا يأكلون؟ وكثيراً ما نجد أن صعاباً ذات علاقة بالأكل صادفت هؤلاء في مستهل حياتهم فزادت من اهتمامهم بأمر الأكل.

ولننتقل الآن إلى حال من أحوال الذكريات ذات علاقة بالحركة والمشي. لقد رأينا كيف أن كثيراً من الأطفال لا يحسنون الحركة في مستقبل حياتهم لضعفهم أو لإصابتهم بالكساح، وهؤلاء يصبحون شديد الاهتمام بالحركة إلى درجة غير عادية، ويريدون على الدوام أن يسرعوا في مشيهم. والحالة التي سنذكرها بعد شاهد على هذا. جاء رجل في الخمسين من عمره إلى طبيب وشكا إليه أنه كلما عبر الشارع مع غيره انتابه خوف شديد من أن تصدمهما إحدى المركبات؛ وقال إنه يمر من الطريق نفسه منفرداً فلا ينتابه هذا الخوف، بل يظل

هادئاً كل الهدوء، أما إذا كان معه شخص آخر فإنه يكون شديد الاهتمام بإنقاذ هذا الشخص من المركبات، فهو يقبض على ذراع رفيقه، ويدفعه تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، ويضايقه بوجه عام. ونحن نصادف أشخاصاً من هذا الطراز وإن لم يكونوا كثيرين، ويحسن أن نحلل الآن أسباب هذه الأعمال السخيفة.

لما سئل هذا الرجل عن ذكرياته القديمة قال إنه وهو في الثالثة من عمره لم يكن يحسن الحركة، وإنه كان مصاباً بالكساح. وإنه اصطدم مرتين وهو يعبر الطريق. فلما بلغ أشده أصبح شديد الاهتمام بأن يظهر أنه تغلب على ما كان فيه من ضعف، فكأنه كان يريد أن يظهر للناس أنه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يعبر الطريق. وكان دائم التطلع إلى فرصة تهيأ له ليثبت هذا الاعتقاد كلما كان معه شخص آخر. ولا حاجة إلى القول بأن عبور الطريق في أمن وسلام ليس من الأشياء التي يفخر بها الكثيرون من الناس أو ينافسون فيها غيرهم، أما من كان مثل هذا المريض فإن رغبته في الحركة والتباهي بالقدرة تقوى لديه وتثير إحساسه.

ولننتقل بعدئذ إلى حالة أخرى وهي حالة ولد كان يسير في الطريق المؤدي إلى الإجرام، فكان يسرق ويهرب من المدرسة حتى يئس أبواه من إصلاحه. وكانت ذكرياته القديمة تتلخص في أنه كان على الدوام يريد أن يتحرك وأن يسرع في حركته. وكان في الوقت الذي نتحدث عنه فيه يعمل مع أبيه وهو جالس في سكون طول النهار، ولذلك كان بعض العلاج الذي وصف له مستمداً من طبيعة مرضه، فقد أشير على أبويه أن يجعلاه بائعاً متجولاً، يطوف البلاد متجراً في بضاعة والده.

ومن أنواع الذكريات القديمة ذات المغزى أن يذكر الشخص موتاً حدث في عهد طفولته. ذلك أن الأطفال إذا رأوا شخصاً يموت ميتة سريعة مفاجئة، أحدث ذلك الموت في عقولهم أثراً قوياً جداً، وقد يصبح أولئك الأطفال في بعض الأحيان مكتئبين محزونين، وقد لا يصبحون كذلك ولكنهم يحصرون عنايتهم بعد ذلك في الموت، ويشغلون أنفسهم على الدوام بكفاح المرض والموت بصورة ما. وقد يشتغل كثيرون من هؤلاء الأطفال في حياتهم المستقبلية

بالطب ويصبحون أطباء أو صيادلة، وهو هدف في الناحية النافعة من الحياة، لأنهم بذلك لا يكافحون المرض في أنفسهم فحسب بل يعينون غيرهم من الناس على مكافحته. بيد أنه قد يحدث أحياناً أن يصير الطفل منهم شديد الأنانية، وقد سئل مرة طفل أثر فيه موت أخت له عما يريد أن يكون، وكان الجواب المنتظر منه أن يقول إنه يريد أن يكون طبيباً، لكنه لم يقل هذا بل أجاب «حافر قبور»، ولما سئل عن سبب اختياره هذا العمل أجاب «لأني أريد أن أكون الشخص الذي يدفن الناس لا الشخص الذي يدفنونه هم». وذلك الهدف يتجه نحو الناحية غير النافعة من الحياة لأن هذا الولد لم يكن يعنى إلا بنفسه.

ولننتقل الآن إلى بحث الذكريات القديمة لمن كانوا في طفولتهم مدللين منعمين. إن الذكريات القديمة لهذه الطائفة من الناس تدل على خصائصهم أوضح دلالة. وكثيراً ما يذكر الطفل من هذه الطائفة أمه، وقد يكون هذا أمراً طبيعياً، ولكن ذكرها مع ذلك يدل على أنه كان عليه أن يكافح ليحصل على مركز ممتاز في أسرته. وقد تبدو الذكريات القديمة في بعض الأحيان ضئيلة الشأن، ولكنك إذا خللتها خرجت منها بثمرة عظيمة الفائدة. فقد يقول لك إنسان مثلاً «لقد كنت جالساً في حجرتي، وكانت أمي واقفة إلى جوار الصوان» إن هذا القول يبدو تافهاً لا قيمة له، ولكن ذكر الأم في هذه الحال يدل على أنها كانت موضع اهتمام الطفل. وقد لا تذكر الأم صراحة في بعض الإجابات وتكون دراسة حالة هذا الشخص أكثر مما سبق تعقيداً، وواجبنا في هذه الحالة أن نحزر وجود الأم، فقد يقول لك الرجل الذي نتحدث عنه «أذكر أني قمت برحلة» فإذا سألته بعدئذ عمن كان معه تبينت أن أمه هي التي صحبته. وإذا قال لنا طفل من الأطفال «أذكر أني كنت في مكان ما في الريف في صيف إحدى السنين» جاز لنا أن نظن أن الأب كان يعمل في المدينة، وأن الأم كانت مع الطفل؛ ولذلك يحسن بنا في هذه الحالة أن نسأله «من كان معك؟» وبهذه الطريقة نستطيع أن نكشف عن نفوذ الأم الخفي.

وقد تدلنا دراسة هذه الذكريات على كفاح يقوم به الشخص ليمتاز عن غيره. وفي وسعنا أن نرى كيف يبدأ الطفل في أثناء نموه يقدر تدليل أمه له،

وذلك أمر هام يعيننا على فهم حال الطفل، لأن الصغار والكبار إذا حدثونا عن هذه الذكريات حق لنا أن نستدل من أقوالهم على أنهم يشعرون دائماً أنهم في خطر، وأن غيرهم سيفضَّل عنهم. ويزداد قلقهم شدة ووضوحاً حتى نستطيع أن ندرك أن عقولهم مركزة على هذه الفكرة ذاتها. وتلك حقيقة عظيمة الخطر لدلالتها على أن هؤلاء الناس سيصبحون شديدي الغيرة في مستقبل حياتهم. ونرى بعض الناس أحياناً يظهرون اهتماماً بشيء ما أكثر من اهتمامهم بغيره، فقد تقول لك طفلة مثلاً «لقد كان علي يوماً ما أن ألاحظ أختي الصغرى وأردت أن أدفع عنها كل أذى، فأجلستها على المنضدة ولكن الغطاء وقع فسقطت أختي الصغيرة». لقد كانت هذه الطفلة الكبيرة لا تتجاوز السنة الرابعة من عمرها، وتلك بطبيعة الحال سن مبكرة لا يسمح فيها لأخت أن تعنى بأخت لها أصغر منها. ومن السهل علينا أن ندرك عِظَم المأساة التي تشعر بها طفلة في سنها كانت تبذل كل ما في وسعها لمنع الأذى عن أختها الصغرى. وكبرت البنت الأولى وتزوجت برجل رحيم لا نخطئ إذا أسميناه زوجاً مطيعاً، ولكنها كانت على الدوام غيورة منقبة عن عيوبه، تخشى في كل وقت أن يفضل زوجها غيرها عنها، وليس يصعب علينا أن ندرك كيف ملّ الزوج عشرتها ووجه اهتمامه كله إلى أطفاله.

وقد تبدو حالة الذهب المكدود أكثر وضوحاً مما بدت في الأمثلة السابقة، فيذكر بعض الناس أنهم أرادوا بالفعل أن يؤذوا غيرهم من أفراد أسرهم، أو أن يقتلوهم أحياناً. وأولئك أشخاص يوجهون كل عنايتهم إلى شؤونهم الخاصة، فهم لا يحبون غيرهم من الناس ويشعرون نحوهم بشيء من المنافسة والعداوة؛ وإنك لتجد أصل هذا الشعور كامناً في المثال الأول لكل واحد من هؤلاء الناس.

تلك كلها أمثلة لصنف من الناس لا يستطيع الواحد منهم أن يتم شيئاً، لأنه يخشى أن يفضل عنه شخص آخر في صداقته أو زمالته، أو لأنه يرتاب في الناس ويظن أنهم يحاولون على الدوام أن يتفوقوا عليه. وليس في وسع هذا الشخص أن يكون بحق جزءاً من المجتمع، لأنه يخشى أن يسمو عليه غيره

ويَفْضُلَه، وهو في كل عمل يتولاه يكون مكدوداً متوتر الذهن، وأكثر ما تظهر هذه الحالة في أمر الحب والزواج.

وإذا لم يكن في وسعنا أن نشفي هؤلاء الناس من هذا المرض، فلا أقل من أن نعمل على تحسين حالهم باصطناع الكياسة في دراسة ذكرياتهم القديمة.

وسنختار لإيضاح طريقة علاجنا الغلام الذي ذكرناه في أحد الفصول السابقة، والذي ذهب يوماً إلى السوق مع أمه وأخيه الصغير، فلما بدأ المطر ينهمر حملته أمه بين ذراعيها، ولكنها حين رأت أخاه الأصغر وضعته على الأرض وحملت أخاه، ومن ثم شعر هذا الغلام أن أخاه مُفَضَّل عنه.

وإذا استطعنا أن نحصل على أمثال هذه الذكريات القديمة، كان في وسعنا كما قلنا من قبل أن نتنبأ بما سيحدث لهؤلاء المرضى في مستقبل حياتهم. على أننا يجب ألا ننسى أن الذكريات القديمة ليست عللاً، بل هي مجرد إشارات ورموز، هي علامات تشير إلى ما حدث في الماضي وإلى الطريق الذي سار فيه النمو، وتدل على الاتجاه نحو هدف معين أو على ما كان في الطريق من عقبات يجب التغلب عليها. وتظهر لنا كيف يصبح شخص من الأشخاص معنياً بناحية من نواحي الحياة أكثر من عنايته بغيرها، ونرى أن هذا الشخص قد يصيبه ما نستطيع أن نسميه شذوذاً في الناحية الجنسية مثلاً، أي أنه يعنى بشؤونها أكثر من عنايته بكل ما عداها من الشؤون. وليس لنا أن نعجب إذا سألنا شخصاً عن ذكرياته القديمة، فحدثنا عن بعض تجاربه في العلاقات الجنسية، وذلك لأن بعض الناس يعنون بهذه الشؤون عناية كبيرة في سن مبكرة جداً. وطبيعي أن يعنى الشخص العادي بالشؤون الجنسية، ولكن ثمة ضروباً مختلفة ودرجات متفاوتة من هذه العناية. وكثيراً ما نجد أن الشخص الذي يذكر لنا شيئاً عن ذكرياته الجنسية القديمة يتجه بعد ذلك في نموه نحو هذه الناحية، وتكون حياته المستقبلية غير منسجمة الأجزاء، لأن هذه الناحية من نواحيها تقدر فوق قيمتها الصحيحة. ومن الناس من يظن أن العلاقات الجنسية هي أساس كل شيء، ومنهم من يصر على أن المعدة هي أهم عضو في

جسم الإنسان؛ ومهما يكن من شيء، فإن الذكريات القديمة يكون لها ما يدل عليها في خصائص أولئك الأشخاص بعد أن يكبروا.

ولنذكر هنا حال شاب كانت مسألة دخوله مدرسة عليا مشكلة معقدة؛ فقد كان الولد يريد أن يكون دائم الحركة، ولا يمكن أن يستقر ويسكن ليستطيع أن يدرس؛ وكان دائم التفكير في غير درسه، كثير التردد على المقاهي وعلى بيوت أصدقائه في الأوقات التي كان عليه أن ينصرف فيها إلى الدرس والتحصيل. ولذلك كان من المهم أن يفحص عن ذكرياته القديمة، فلما سئل عنها قال «أذكر أني كنت نائماً في مهدي أنظر إلى الجدار فوقع نظري على ورق الحائط وما عليه من أزهار ونحوها». إن ذلك الشخص لم يُعَدَّ للتقدم للامتحانات بل أُعِدَّ للنوم في المهد، وليس في وسعه أن يحصر عقله في دروسه، لأنه دائم التفكير في أشياء أخرى ويريد أن يكون ذا بالين، وأن يسعى إلى أمرين في وقت واحد، وهو سعي عقيم لا يجدي نفعاً. وفي مقدورنا أن نعرف أن هذا الرجل كان طفلاً مدللاً لا يستطيع أن يعمل بمفرده أو يستقل بنفسه.

ولنبحث الآن في حال الطفل المكروه. إن هذا النوع من الأطفال نادر الوجود وحالته من الحالات الشاذة، لأن الطفل إن كان مكروهاً حقاً من بدء حياته لم يكن في استطاعته أن يعيش، بل لا بد أن يقضي نحبه، إذ المألوف أن يكون للطفل أبوان يعنيان به، وأن تكون له مربية تدلـله إلى حد ما وتجيب رغباته. أما الأطفال المكروهون حقاً فهم الأبناء غير الشرعيين والمجرمون وغير المرغوب فيهم، وكثيراً ما نرى هؤلاء الأطفال مكتئبين محزونين، وكثيراً ما نجد بين ذكرياتهم هذا الشعور بأنهم مكروهون. ومن أمثلة ذلك أن رجلاً قال مرة «أذكر أني صُفِعت، وأن أمي ظلت تؤنبني وتنتقدني حتى ركنت إلى الفرار»، وكاد هذا الولد يموت غرقاً في أثناء فراره من أمه.

وجاء هذا الرجل إلى عالِم نفساني يشكو إليه أنه لا يستطيع مبارحة منزله، وإنا لنعرف من ذكرياته القديمة أنه خرج من بيته يوماً وحاق به خطر شديد، وثبت ذلك في ذاكرته فكان دائماً يتوقع أن يصيبه مكروه إذا خرج من داره. وكان في مستهل حياته طفلاً نبيهاً، ولكنه كان يخشى على الدوام ألا يكون

الأول في الامتحان، ولذلك لازمه التردد فعاقه عن التقدم، ولما استطاع آخر الأمر أن يصل إلى الجامعة كان يخشى ألا يقدر على منافسة زملائه بالطريقة المرسومة. ولا حاجة إلى القول إن في وسعنا أن نُرجع كل ما أصابه إلى ذكريات الخطر القديمة.

وثمة حالة أخرى توضح هذا الأمر نفسه، وهي حالة طفل يتيم مات أبواه قبل أن يتجاوز السنة الأولى من عمره. وكان الطفل مصاباً بالكساح فوُضع في ملجأ، ولكنه لم يعنَ به العناية الواجبة، فلم يكن أحد يهتم بأمره، ولذلك وجد من الصعب عليه في حياته المستقبلية أن يتخذ له أصدقاء أو زملاء. فإذا نظرنا إلى ذكرياته القديمة تبين لنا أنه كان يشعر على الدوام بأن غيره مفضَّل عنه، وكان لهذا الشعور أثر قوي في نمائه، فكان يحس على الدوام أنه مكروه، وعاقه هذا الإحساس عن معالجة جميع المشاكل التي صادفته. وكان يحال بينه وبين شؤون الحياة ومشاكلها كشؤون الحب والزواج والصداقة والعمل، وهي الشؤون التي تتطلب منه الاتصال بزملائه، وذلك كله لشعوره بنقصه.

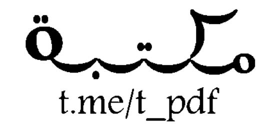
ومن الأمثلة الطريفة الأخرى حالة رجل متوسط العمر كان يشكو الأرق على الدوام، وكان هذا الرجل في السادسة والأربعين من عمره، وكان متزوجاً وله أبناء، وكان شديد الانتقاد لجميع الناس، يحاول على الدوام أن يستبد بغيره وخاصة بأفراد أسرته، وكانت أعماله هذه سبباً في تعاسة كل من يتصل به.

ولما سئل هذا الرجل عن ذكرياته القديمة قال إنه شبّ بين أبوين كثيري النزاع، لا ينفكان يتشاجران ويهدد كل منهما الآخر، فكان لذلك يخشاهما جميعاً؛ وكان يذهب إلى المدرسة وهو قذر غير معتنى به. وتغيبت معلمته عن المدرسة في يوم ما وجاءت معلمة أخرى لتقوم بعملها؛ وكانت هذه المعلمة الجديدة تعنى بعملها وتهتم بما قد تحصل عليه من نتائج في أثناء أدائه، لأنها كانت تعتقد أنه عمل صالح شريف. وتوقعت أن تؤدي عنايتها بهذا الولد المهمل إلى نتائج طيبة، وأخذت لذلك تشجعه، وكانت هذه أول مرة يلقى فيها مثل هذه المعاملة الحسنة. وبدأ من هذه الساعة يتقدم وتحسّن حاله، ولكنه كان

يبدو على الدوام كأن إنساناً يدفعه من خلفه، ولم يكن يعتقد بحق أن في مقدوره أن يرقى، فأخذ يكد طوال النهار ونصف الليل، حتى شبّ وقد تعوّد أن يخصص نصف الليل لعمله، أو يقضي الليل كله ساهراً يفكر فيما يجب عليه أن يعمله. ولذلك اعتاد أن يظن أن لا بد له أن يظل مستيقظاً طول الليل تقريباً، إذا أراد أن ينجز عملاً ويصل إلى هدف.

وبدت رغبته في التفوق، بعد مرحلة الدراسة، في موقفه من أسرته، وفي معاملته لغيره من الناس. وكانت أسرته أضعف منه فكان في وسعه أن يظهر فيها بمظهر المسيطر القاهر، وقاست زوجته وقاسى أطفاله الأمرين من هذا المسلك كما هو المنتظر.

وإذا شئنا أن نُجمِل أخلاق هذا الرجل قلنا إنه كان له هدف تفوق، إن هذا الهدف كان هدف شخص شديد الشعور بالنقص، وهذه حال نشاهدها كثيراً بين الأشخاص المكدودين المرهقين، وهي شاهد على ارتيابهم في نجاحهم. وهذا الارتياب نفسه تحجبه عقدة تفوق ليست في الحقيقة إلا تظاهراً بالتفوق؛ وتكفي دراسة الذكريات القديمة للكشف عن حال هؤلاء وإظهار أمرهم على حقيقته.



الفصل السادس

الاتجاهات العقلية[1] والحركات الجسمية

حاولنا في الفصل السابق شرح الطريقة التي يمكن بها استخدام الذكريات القديمة والخيالات في الكشف عن الأسلوب الخفي لحياة شخص ما. وغني عن البيان أن دراسة هذه الذكريات إن هي إلا وسيلة من طائفة جمة من الوسائل يمكن اصطناعها لدرس كل شخصية، وتقوم كلها على قاعدة استعمال الجزء المنفصل في تفسير الكل المتصل. ذلك أن في وسعنا أن نلاحظ حركات الشخص الجسمية واتجاهاته العقلية، إلى جانب ذكرياته القديمة. والحركات نفسها تعبر عنها اتجاهات الشخص العقلية أو قل إن الاتجاهات العقلية مطمورة فيها، كما أن هذه الاتجاهات تعبر هي أيضاً عن اتجاهه العام في الحياة، ذلك الاتجاه الذي يتكون منه ما نسميه «أسلوب الحياة».

ولنعرض الآن لحركات الجسم فنقول إننا نحكم على الشخص من طريقته في الوقوف والمشي والحركة والكلام وما إلى ذلك؛ على أننا لا ندرك في جميع الأحوال أننا نصدر على الشخص حكماً قائماً على أساس هذه الأشياء، إلا أننا نشعر على الدوام بالعطف عليه أو الكره له شعوراً أوجدته هذه المؤثرات بعينها.

ففي حالة الوقوف مثلاً ندرك فور الوقت هل هذا الطفل أو ذلك اليافع يقف منتصب القامة أو معوج الجسم أو مقوسه؟ لكن علينا بصفة خاصة أن

---

(1) Attitudes & Movements وقد نكتفي أحياناً في ترجمة Attitudes باتجاهات.

ندقق النظر في كل إسراف أو مبالغة في هذه الصفات؛ ذلك أن الشخص الذي يسرف في نصب قامته مثلاً يحملنا على الاعتقاد بأنه يصطنع قدراً كبيراً من القوة للظهور بهذا المظهر، ونستطيع إذاً أن نزعم أن هذا الشخص يشعر في قرارة نفسه أنه أقل عظمة مما يتظاهر به، ونستطيع أن نرى من هذه العلامة التافهة كيف يكشف هذا الشخص عما سميناه من قبل عقدة النقص. فهو يبغي أن يظهر أنه أكثر بسالة مما هو في الحقيقة، أي أنه يريد أن يظهر بالمظهر الذي كان يريده لنفسه من غير أن يكون مشدود القامة إلى هذا الحد.

وكثيراً ما نرى أشخاصاً آخرين يتخذون وضعاً مناقضاً لهذا، فيقف الواحد منهم وهو أبداً مقوس القامة مطأطئ الرأس، وهو وضع يفهم منه إلى حدٍّ ما أن صاحبه جبان القلب منخلع الفؤاد، ومع ذلك فإن قواعد هذا العلم، وهذا الفن الذي نحن بسبيله، ترغمنا على أن نصطنع الحذر في حكمنا، وأن نبحث عن شواهد أخرى فلا نقتصر على اعتبار واحد نبني عليه حكمنا. فكثيراً ما نشعر عند حكمنا على شيء ما أننا ما زلنا في حاجة إلى أدلة أخرى ندعم بها هذا الحكم، وإن كنا فيه على قيد شعرة أو أدنى من الصواب. فنسأل أنفسنا: هل نحن محقون في زعمنا أن كل شخص يطأطئ رأسه هو أبداً جبان، وماذا نتوقع من مثل هذا الشخص إذا أحاطت به ظروف صعبة شديدة؟

وإذا نحن عنينا بناحية أخرى من هذا المثل الذي سقناه رأينا أن مثل هذا الشخص يحاول على الدوام أن يعتمد على شيء ما، فيتكئ على المناضد والكراسي مثلاً، وسبب ذلك أنه يحب أن يعتمد على غيره لعدم إيمانه بقوته الشخصية، ويدل هذا على نفس الاتجاه الذي يدل عليه الشخص الذي يقف مقوس الظهر. فإذا شاهدنا هذين الضربين من الحركة ماثلين في شخص ما استطعنا أن نطمئن بعض الشيء إلى حكمنا عليه.

والأطفال الذين يريدون أن يعتمدوا على غيرهم على الدوام يختلفون في وقفتهم عن الأطفال الذين لا يعتمدون إلا على أنفسهم، بل إن في مقدورنا أن نقيس مقدار استقلال الطفل بنفسه بطريقة وقوفه وبكيفية اقترابه من غيره من الناس. ولا حاجة بنا إلى أن نشك في رأينا في مثل هذه الحالات لأن لدينا كثيراً

من الشواهد التي نستطيع بها أن نتثبت من أحكامنا، وإذا ما تثبتنا منها كان في وسعنا بعد هذا التثبت أن نعد العدة لعلاج الموقف وهدي الطفل إلى سواء السبيل.

ففي وسعنا مثلاً أن نجري بعض التجارب على ذلك الطفل الذي يريد أن يعينه غيره، فنطلب إلى أمه مثلاً أن تجلس على كرسي ثم ندخله الحجرة التي تجلس فيها فنراه يندفع صوبها مباشرة ليعتمد عليها أو على الكرسي الذي تجلس عليه، ولا ينظر قط إلى أحد ممن معها. وهذا دليل لا ينقض على ما توقعناه من قبل، وهو أن هذا الطفل يريد أن يعتمد على غيره.

ومن الطريف أيضاً أن نلاحظ أسلوب الطفل في الاقتراب من أمه، لأن ذلك الأسلوب يدل على درجة اهتمامه الاجتماعي ودرجة توافقه مع المجتمع، ويعبر عن مدى ثقة الطفل بالناس. وسنرى أن الشخص الذي يأبى الاقتراب من الناس وينأى بجانبه عنهم يكون أيضاً متحفظاً في غير ذلك من الأمور، فنجده مثلاً قليل الكلام كثير الصمت لدرجة غير مألوفة.

وفي وسعنا أن نرى أن هذه المسائل ليست إلا مظاهر لشيء واحد، لأن كل إنسان في الحقيقة وحدة لا تتجزأ، يتأثر بمشاكل الحياة على هذا الاعتبار نفسه. ولإيضاح ذلك نورد قصة سيدة ذهبت ليعالجها أحد الأطباء، وأن الطبيب يتوقع أن تعمد إلى كرسي قريب منه فتجلس عليه، إلا أنها لم تفعل وآثرت الجلوس على كرسي آخر بعيد عنه جداً، بعد أن أجالت في الحجرة نظرها، وهي حركة يستدل منها حتماً على أنها سيدة تأبى أن يكون لها اتصال بأكثر من شخص واحد، وقد قالت إنها متزوجة وهذا القول وحده يكفي لمعرفة قصتها. ففي وسعنا أن نستدل منه على أنها لا تريد أن تكون لها صلة بغير زوجها، وعلى أنها تريد أن تُدلَّل، وأنها من النساء اللاتي يردن أن يكون أزواجهن شديدي الحرص على إرضائهن، وأن يعودوا إلى منازلهم في الوقت المحدد تماماً، واللاتي إن تُركن وحدهن استولى عليهن القلق الشديد، وعلى أنها تأبى أن تبارح الدار منفردة وتنفر كل النفور من مقابلة الناس. وصفوة القول، أننا استطعنا بحركة واحدة من هذه السيدة، أن نحزر قصتها كاملة غير منقوصة، وإن يكن لدينا من الوسائل الأخرى ما نستطيع به أن نؤيد نظريتنا هذه.

فقد تقول لنا هذه السيدة مثلاً إنها فريسة لداء القلق، وليس في وسع أحد أن يدرك معنى هذا القول إلا إذا علم أن القلق يمكن أن يُتخَذ سلاحاً للسيطرة على شخص آخر، فإذا أصيب بهذا الداء طفل أو شخص تام النمو ففي وسعنا أن نظن أن ثمة شخصاً آخر يعتمد عليه صاحبنا هذا. وإليك مثلاً آخر: كان رجل وزوجته يجهران بأنهما من أنصار التفكير الحر، وهم قوم يعتقدون أن لكل إنسان أن يفعل بعد زواجه ما يشاء على شريطة أن يطلع زوجه على ما يقع له. وكان من جراء ذلك أن كان للرجل بعض حوادث غرامية أطلع زوجته عليها. ولاح أن الزوجة راضية كل الرضا عن مسلكه، ولكن هذا الرضا لم يدم طويلاً، فقد استولى عليها القلق حتى لم تعد ترضى بالخروج منفردة، وحتى كانت تصر على أن يصحبها زوجها في غُدُوها ورواحها على الدوام. وهكذا رأينا كيف انقلبت هذه النزعة الحرة إلى داء القلق والكراهية.

وكثيراً ما نرى أشخاصاً يقفون بجوار منزل ويتكئون على جداره، وذلك شاهد على أنهم لا يتمتعون بقسط وافر من الشجاعة ولا من الاعتماد على النفس. وهناك مثلاً يوضح لنا المثال الأول لهؤلاء الناس الهيّابين المترددين: كان طفل يتردد على المدرسة وهو في خجل ظاهر شديد. وهذا شاهد قوي على أنه يأبى أن تكون له صلة بأحد من زملائه التلاميذ، فلهذا لم يكن له صديق واحد منهم، وكان دائم التلهف على انقضاء ساعات اليوم المدرسي، وكان إلى ذلك بطيء الحركة للغاية، وكان إذا حل موعد الانصراف هبط الدرج وهو ملاصق للجدار، فإذا وصل إلى نهايته ولمح الباب اندفع إلى الطريق لا يلوي على شيء. ولم يكن في المدرسة من التلامذة المجيدين بل كان من أشدهم تقصيراً، ولم يكن يشعر بأي مرح ما دام بين جدرانها، بل كان جلّ همه أن يعود إلى أمه الأرملة الضعيفة التي كانت تدلـله أيما تدليل.

وأراد الطبيب أن يزيد علمه بهذا الطفل المريض فذهب إلى أمه ليتحدث إليها في شأنه وسألها «هل هو شديد الرغبة في الرقاد على فراشه؟» فأجابته بالإيجاب، فسألها «هل يصرخ ليلاً؟» فقالت «لا» فقال «وهل يبول على فراشه؟» فأجابت سلباً.

عندئذ ظن الطبيب أنه أخطأ الحجة أو أن الولد نفسه قد أخطأ، إلا أنه استنتج بعد ذلك أن الطفل ينام مع أمه في فراش واحد. فكيف وصل إلى النتيجة؟ إن الصراخ بالليل وسيلة لاسترعاء انتباه الأم، ولما كان الطفل ينام مع أمه فإن ذلك الصراخ لم يكن ضرورياً. والتبول في الفراش أيضاً وسيلة أخرى لاسترعاء انتباهها. ولقد كان استنتاج الطبيب صحيحاً، وكان الولد ينام مع أمه في فراش واحد. وبشيء من التأمل نرى أن كل هينة صغيرة يُعنى بها العالِم النفساني جزء لا يتجزأ من خطة للحياة متناسقة الأجزاء. فإذا ما استطعنا أن نرى هدف الشخص -والهدف في قصة هذا الطفل هو رغبته في أن يكون على الدوام مرتبطاً بأمه- كان في وسعنا أن نستنتج طائفة كبيرة جداً من الحقائق. فنستطيع مثلاً أن نحكم هل الطفل ضعيف العقل أو قويه؟ ذلك أن الطفل الضعيف العقل لا يستطيع بحال أن يضع خطة محكمة لحياته.

ولنعرض الآن للاتجاهات العقلية التي يتميز بها كل فرد. فمن الناس الشرس الشكس الذي ينازعك الإبرة، ومنهم المستهتر الساور الذي لا يحفل بشيء ولا يبالي ما صنع. ومع ذلك فإن من المستحيل أن تصادف شخصاً له هذه الصفة الأخيرة بحذافيرها، ذلك بأن التفريط المطلق ليس من شيمة البشر؛ فالإنسان السويّ لا يستطيع أن يفرط كل التفريط فيما يملك، وإذا بدا لنا ذلك منه فلنا أن نعد هذا دليلاً على كفاحه أكثر مما نعده دليلاً على تفريطه واستهتاره.

وثمة نمط من الأطفال تراهم كثيري الاستسلام. وهم عادة من الأطفال الذين يكونون على الدوام موضع عناية أسرتهم، والذين يعنى بهم فرد من أفرادها فيدفعهم إلى الأمام دفعاً، وينبههم حتى لا يستهدفوا لما لا يريدون هم أن يستهدفوا له. وعلى أفراد أسرتهم فوق ذلك أن يعولوهم، فهم كَلٌّ عليهم ما داموا على قيد الحياة. وهذا نفسه هو هدف تفوقهم - فهم يعبرون بهذه الطريقة عن رغبتهم في السيادة على غيرهم؛ وليس من شك في أن هدف التفوق هذا نتيجة لعقدة نقص فيهم كما مر بك. فلولا أن هؤلاء الأطفال في شك من قدرتهم لما سلكوا هذا الطريق المعبد للوصول إلى مبتغاهم.

ومن الأمثلة التي توضح هذه الصفة قصة شاب في السابعة عشرة من عمره كان أكبر أبناء أسرته سناً. وقد مر بك كيف أن الابن الأول في كل أسرة تصيبه عادة مأساة في حياته حين يولد له أخ ينازعه العرش الذي يتبوأه على أكباد أسرته. وهذا ما وقع لهذا الولد الذي نتحدث عنه، فقد كان يُرى دائماً مكتئباً ملولاً منصرفاً عن كل عمل، حتى لقد حاول الانتحار ذات يوم. ثم إنه قصد، بعد ذلك بقليل، إلى أحد الأطباء يستشيره، وكان مما قاله له إنه قبيل أن يحاول الانتحار رأى فيما يرى النائم أنه ضرب أباه بالرصاص فأرداه قتيلاً. وهكذا نرى كيف أن شخصاً دائم الاكتئاب والخمول والكسل كصاحبنا هذا يخفى في طيات عقله ما رأيت من حركة ذهنية ثائرة. ونرى أيضاً أن الأطفال الذين يتصفون في أيام دراستهم بالكسل والخمول، والمراهقين الذين تحسبهم لا يقدرون على عمل ما، قد يكونون قاب قوسين أو أدنى من الأخطار. وكثيراً ما يكون هذا الخمول الظاهر سطحياً فقط، ثم يحدث حادث ما فيحاول ذلك الشخص أن ينتحر أو يصاب بمرض نفساني أو تظهر عليه أعراض الجنون. وتحديد الاتجاه العقلي لمثل هؤلاء الأشخاص مهمة شاقة في بعض الأحيان.

والحياء في الطفل علامة تنذر بالخطر الشديد، ولذا كان من الضروري معالجته بما يكفي من العناية. والواجب إصلاح هذا الطفل الحيي وإلا أفسد عليه حياؤه معيشته من أولها إلى آخرها، وسبّب له من الصعاب ما لا يعد ولا يحصى. ذلك أن ثقافتنا قد نظمت أمورها بحيث أن الأشخاص الجريئين وحدهم هم الخليقون بالحصول على خير النتائج وعلى نعم الحياة. فالشجاع إذا أصابته هزيمة لم تبلغ منه ما تبلغه من الشخص الحيي الخجول، الذي لا يلبث أن يفر إلى الجانب غير النافع من الحياة حين تلوح له الأخطار من بعيد. إن أطفالاً هذا شأنهم لا بد مصابون فيما بعد بالأمراض النفسية أو بالجنون.

وإنك لترى هذا النمط من الخَلْق يسير وعليه سيماء الحقارة والذلة، وإذا اختلط أفراده بغيرهم من الناس أرتج عليهم فلا يتكلمون، أو ابتعدوا عن الناس واجتنبوهم كل الاجتناب. وهذه الخصائص التي أتينا على شرحها إنما هي اتجاهات حادثة ليست فطرية ولا وراثية، بل مجرد استجابات لموقف من

المواقف. فكل خاصة من خصائص شخص ما إن هي إلا استجابة أسلوب حياة هذا الشخص عندما تعرض له مسألة يدركها. ولا حاجة إلى القول بأنها ليست الاستجابة المنطقية التي ينتظرها الفيلسوف ولكنها الاستجابة التي أوحت بها إلى هذا الشخص تجارب طفولته وأخطاؤها.

ومن الميسور مشاهدة مفعول هذه الاتجاهات والطريقة التي تكونت بها في كل طفل أو في كل شخص شاذ أكثر من مشاهدتها في الشخص السوي الكامل النمو، ذلك أن المرحلة التي يتكون فيها المثال الأول للحياة أكثر وضوحاً وأسهل تحليلاً من المراحل التي تليها، بل إننا لا نخطئ إذا شبهنا عمل المثال الأول بالفاكهة الفجة التي تستطيع أن تمثل كل ما يصادفها من سماد، وماء، وغذاء، وهواء، فهي تمثل هذه الأشياء جميعاً في أثناء نموها. والفرق بين المثال الأول وأسلوب الحياة كالفرق بين الفاكهة الفجة والفاكهة الناضجة؛ فطور الفاكهة الفجة في حياة الإنسان أسهل لك أن تكشف عنه وتختبره، ولكن ما يكشف لك عنه هذا الاختبار يصدق تماماً على طور الفاكهة الناضجة من أطوار الحياة التي نحن بسبيل درسها.

وفي وسعنا أن نعرف مثلاً كيف أن طفلاً عُرِف بالجبن في مستهل حياته قد لازمه هذا الجبن في جميع مواقفه. فهناك فروق جمة لا حصر لها بين طفلين أحدهما جبان والآخر مناضل مكافح. فهذا الأخير يتحلى دائماً بقدر من الشجاعة التي هي نتيجة لازمة لما أسميناه الإدراك الفطري العام. على أننا قد نشاهد أحياناً طفلاً جباناً يريد أن يظهر بمظهر الأبطال في موقف من المواقف، ويحدث هذا كلما حاول عامداً أن يصل إلى المكان الأول في شأن من الشؤون. ولنضرب لهذا مثلاً يوضحه، وهو حال ولد لم يكن يعرف السباحة قط، ثم قصد ذات يوم إلى الاستحمام تلبية لنداء بعض رفاقه، وكان الماء غوراً فأشرف على الغرق. ليست هذه بطبيعة الحال شجاعة حقة وهي بلا شك في الناحية الخاسرة من الحياة. ذلك بأن الولد لم يفعل ما فعل إلا لأنه كان ينشد إعجاب زملائه، وقد تجاهل الخطر المحدق به وظن أن رفاقه لا بد منقذوه إذا ما جد الجد.

والشجاعة والجبن يتصلان من الوجهة النفسية اتصالاً وثيقاً بعقيدة القضاء والقدر. إن هذه العقيدة تؤثر في قدرتنا على العمل المثمر أيما تأثير، فمن الناس من يتملكهم الإحساس بالتفوق إلى حد يشعرون معه أنهم يستطيعون أن يعملوا كل شيء، وهم يعتقدون أنهم يعلمون كل شيء ولا يبغون أن يتعلموا شيئاً فوق علمهم هذا. وتلك آراء ليس منا من يجهل عواقبها، فالأطفال الذين يسلكون هذا المسلك في إبان دراستهم لا يحصلون إلا على درجات قليلة في امتحاناتهم. ومن الناس من يحاولون أبداً تجربة أشق الأعمال وأعظمها خطراً، ويشعرون أن ضرراً لا يمكن أن يحل بهم، وأن فشلاً لا يمكن أن يصيبهم، وأكبر الظن أن نتيجة هذا الاعتقاد تكون أيضاً وبالاً عليهم.

ونرى هذا الشعور بسيطرة الأقدار عند من شهدوا في حياتهم مكروهاً ثم نجوا منه، كمن شهدوا حادثاً خطراً لم يفقدوا فيه حياتهم فيظنون عندئذ أنهم مُدَّخرون في هذا العالم لأداء غرض أسمى. وقد حدث أن رجلاً كان يشعر بمثل هذا الشعور ولكنه ما لبث أن فقد شجاعته وأصبح حزيناً مهموماً على أثر استهدافه لتجربة قاسية، كانت نتيجتها عكس ما كان يتوقعه. ذلك أن ما كان يبعث في نفسه هذا الاعتقاد بعظم شأنه قد ذهب فانحطت نفسيته على الأثر.

ولما سئل هذا الرجل عن ذكرياته القديمة قص قصة لها مغزاها، فقال إنه كان عليه أن يذهب ذات ليلة إلى أحد مسارح فيينا، وكان عليه قبل ذلك أن ينتظر أمراً يهمه، فلما وصل بعدئذ إلى المسرح متأخراً وجد أن النار قد التهمته فأتت عليه ونجا هو من الهلاك. ومن السهل أن نتصور كيف أن شخصاً كصاحبنا هذا يشعر أنه مدخر لأمر آخر أجلّ شأناً وأعظم خطراً مما كان فيه. وقد سار كل شيء بعد ذلك وفق هواه حتى فشل في علاقاته مع زوجته فانهدّ ركنه وانحلّت قواه.

ومجال القول والكتابة في أثر الاعتقاد بالجبرية واسع لا حد له، وناهيك باعتقاد ما سرى في الأمم والمدنيات جميعاً كما سرى في نفوس الأفراد. إلا أن نطاق بحثنا المحدود يضطرنا إلى الاجتزاء بالإشارة إلى علاقته بكل من دوافع النشاط النفساني وأسلوب الحياة. فالإيمان بالجبرية الكاملة يكون في معظم الأحيان

فراراً مشبعاً بالجبن من وجه الكفاح في سبيل النشاط الضروري في الجانب النافع من الحياة، لهذا كان ذلك الاعتقاد من أكبر العوامل في خيبة بني الإنسان.

ومن الحالات العقلية الأساسية التي تؤثر في علاقتنا ببني جنسنا صفة الحسد، فهي من دلائل النقص في الإنسان. صحيح أن واحداً منا لا يخلو من قدر من هذه الخلة: إلا أنه لا يضيرنا في شيء أن يكون فينا هذا القدر الضئيل ما دامت هي صفة عامة في الناس كلهم، وإنما يضيرنا ألا توجهنا إلى العمل وإلى التقدم وإلى مواجهة المشاكل التي تعترض سبيلنا. فإن نحن سرنا على هذا النهج أصبح هذا القدر من الحسد لا ضرر منه، ولهذا يجب علينا أن نغضي عن هذا القدر اليسير الذي لا يخلو منه واحد منا.

أما الغيرة الجنسية فحالة عقلية أخرى أكثر صعوبة وأشد خطورة، ذلك أن من المستحيل تحويلها إلى صفة نافعة، وليس في مقدور الشخص الغيور أن يكون ذا نفع قط.

وعلينا أن نعرف، فوق ذلك، أن الغيرة بهذا المعنى نتيجة لشعور بالنقص بعيد الغور. ذلك أن أشد ما يخشاه الإنسان الغيور هو عدم قدرته على الاحتفاظ لنفسه بشريكه أو شريكته؛ وإذا أراد التأثير في شريكه في أي ناحية من النواحي، كشف من فوره عن ضعفه ونقصه بما يظهر من غيرته. وإذا نحن درسنا المثال الأول لمثل هذا الشخص ألفينا فيه جانباً من الإحساس بالنقص. والحق أننا كلما صادفنا شخصاً غيوراً كان من الخير أن نتقصى ماضيه لنعرف هل كان شخصاً قد تعرض من قبل لتجربة ففشل فيها فشلاً ذريعاً، وأصبح بعدئذ يخشى أن يلدغ من جحر الثعبان مرة أخرى؟

ولننتقل الآن من المسألة العامة المتصلة بصفتي الحسد والغيرة إلى الكلام على نوع خاص من أنواع الحسد، ذلك هو حسد المرأة للرجل على مركزه الاجتماعي الممتاز. فكثيراً ما نرى في النساء والبنات من تود لو أنها كانت ولداً، وهو اتجاه لا يصعب إدراكه؛ وذلك لأننا إذا نظرنا إلى الأشياء نظراً خالياً من الغرض وجدنا أن ثقافتنا قد هيأت للرجل مكاناً سامياً في كل شيء، جعله أبداً

موضع التقدير والتبجيل أكثر من المرأة، وهو عمل غير صائب ينبغي تقويمه. وترى البنت في كل يوم أن الذكور من بين أسرته أكثر منها راحة بما لا يقاس، وأنهم لا يفرض عليهم أن يعنوا مثلها بالتافه من الأمور، وأنهم أوسع منها حرية في كثير من الشؤون؛ فلا غرابة بعدئذ إذا أثارت هذه الحرية الممتازة خاطر الفتاة فجعلتها تكره الواجب الذي تضطلع به في هذا العالم، ولذلك تراها راغبة في أن تحاكي الرجل في الكثير مما يفعل، فتتشبه به في لباسه مثلاً، وكثيراً ما يؤيدها ذووها في ذلك لما يعلمون من أن لباس الذكر أكثر راحة للابسه، كما أنها تتشبه به في أمور أخرى أكثرها صائب ينبغي ألا تقام في سبيلها العراقيل من أجله. غير أن هناك، إلى جانب هذه الاتجاهات النافعة، اتجاهات أخرى غير نافعة، كأن ترغب فتاة أن تسمى باسم ولد لا باسم بنت، وأن تغضب غضباً شديداً إن لم تنادَ بذلك الاسم الذي اختارته، وهي حالة جد ضارة إذا هي أخفت في طياتها أمراً آخر ولم يك الأمر مجرد دعابة. فقد تكون نتيجتها نفورها في المستقبل من واجبها بوصفها فتاة، وإعراضها عن الزواج أو نفورها من اضطلاعها بواجبات المرأة إن هي تزوجت.

وينبغي ألا نقيم الدنيا ونقعدها إذا لبست المرأة ملابس قصيرة، فذلك خير لها، كما أنه أصلح لها أن تنشأ في كثير من الأحوال نشأة الرجل وأن يكون لها عمل تعمله، ولكن عليها بعد ذلك ألا تنفر من واجبها بوصفه امرأة، وألا تتصف بعيوب الرجال ونقائصهم.

وأول ما يظهر هذا الاتجاه الخطر في طور المراهقة، وهو الطور الذي يمكن أن يتسمم فيه المثال الأول، ففيه يصبح عقل الفتاة الذي لم يتم نموه شديد الغيرة من الامتيازات التي يتمتع بها الولد، وتظهر هذه الغيرة في محاكاتها له. وهذه عقدة من عقد التفوق، وهي إلى هذا هروب من التطور الصحيح.

وقد قلنا من قبل إن هذا قد يؤدي إلى كره شديد للحب والزواج. وليس معنى هذا أن مثل هذه الفتاة تصبح زاهدة في الزواج؛ ذلك أن ثقافتنا الحاضرة تعد عدم الزواج دليلاً على الهزيمة، ولذلك ترى كل فتاة حتى التي لا يهمها منهن أن تتزوج تتوق إلى الزواج فعلاً.

وعلى رجال الإصلاح الذين يعتقدون أن من الواجب تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس المساواة بين الجنسين ألا يشجعوا مثل هذا «الاحتجاج» من جانب المرأة على الحقوق التي يتمتع بها الرجل. فالمساواة بين الجنسين يجب أن توضع في الموضع الطبيعي للأشياء، أما هذا الاحتجاج السالف الذكر فهو ثورة عمياء على الحقائق، وهو لذلك ضرب من عقدة التفوق. والحق أن احتجاجاً كهذا جدير أن يخلق اضطراباً في كل الوظائف الجنسية وأن يؤثر فيها تأثيراً سيئاً، وقد تنشأ عنه أعراض خطرة إذا نحن تقصَّيناها رأينا أنها نشأت من أيام الطفولة.

وقد نرى عكس هذا وإن كان أقل منه حدوثاً، نرى أولاداً يريدون أن يتشبهوا بالبنات. والولد الذي يريد أن يحاكي البنت لا يتشبه بالفتاة العادية بل يتشبه بالفتاة الغزلة العروب فيستعمل المساحيق الملونة، ويتحلى بالأزاهير، ويحاول أن يسلك مسلك الفتاة المستهترة، وهو لون آخر من ألوان عقدة التفوق.

وإنا لنجد في كثير من الأحوال أن مثل هذا الولد قد نشأ في بيئة كان للمرأة فيها الشأن الأكبر، فشبّ على محاكاة خصائص أمه لا خصائص أبيه.

ومن أمثلة هذه النزعة أن فتى ذهب لاستشارة أحد الأطباء في بعض علل جنسية أصابته، فقال للطبيب إنه كان دائماً أبداً مع أمه لأن والده كان في البيت كمية مهملة تقريباً. وكانت أم هذا الولد قبل أن تتزوج بأبيه حائكة ثياب، وظلت تقوم ببعض هذا العمل بعد زواجها، وكان الطفل يلازمها فأصبح يعنى بما كانت تصنع، وأخذ يحيك الثياب للنساء ويرسم لأمه صور الملابس التي تحتاج إليها، إلى غير ذلك من الشؤون النسائية. وفي وسعنا أن نحكم على مبلغ اهتمام هذا الفتى بأمه إذا عرفنا أنه وهو في الرابعة من عمره كان يستطيع معرفة الوقت بالنظر إلى الساعة، وما ذلك إلا لأن أمه كانت تبرح الدار في الساعة الرابعة بعد ظهر كل يوم وتعود في الساعة الخامسة، فكان سروره بساعة أوبتها دافعاً له إلى النظر في الساعة ومعرفة الزمن الذي تبيّنه.

ولما ذهب بعد ذلك إلى المدرسة كان سلوكه سلوك البنت، فلم يشارك زملاءه في الرياضة أو الألعاب حتى أصبح هدفاً لسخريتهم، وكثيراً ما كانوا

يعتدون عليه فيقبلونه كدأبهم في مثل هذه الحالة. وفي ذات يوم كان عليهم أن يقوموا بتمثيل إحدى الروايات، فأسندوا إليه بطبيعة الحال دور البنت، فأجاده إجادة حملت الكثيرين من الناظرين على الاعتقاد بأنه بنت حقاً، بل إن واحداً من هؤلاء الناظرين أُغرِم به. وهكذا تبين الولد شيئاً فشيئاً أنه إن لم ينل تقدير الناس له من حيث هو رجل فهو خليق أن يناله بوصفه فتاة. ومن هذه المؤثرات جميعاً نشأت متاعبه الجنسية التي شكا أمرها إلى الطبيب.

الفصل السابع

الأحلام وتأويلها

يعد علم النفس الفردي كلًّا من الوعي واللاوعي وحدة لا تتجزأ، كما فصلنا ذلك في هذا الكتاب في مناسبات عدة. وقد فسرنا في الفصلين السابقين بعض أجزاء الوعي وهي الذكريات والاتجاهات العقلية، من حيث اتصالها بالفرد في مجموعه، وبهذه الطريقة نفسه سنفسر حياتنا اللاواعية أو الشبيهة بالواعية، ألا وهي حياتنا في الأحلام. ويبرر اتباعنا هذه الطريقة أن حياتنا في الحلم، كحياتنا في اليقظة، جزء من كل لا أكثر ولا أقل. وقد حاول غير واحد من أنصار المدارس الأخرى في علم النفس وضع آراء جديدة عن الأحلام، إلا أن فهمنا نحن لها قد تكوَّن بنفس الطريقة التي تكون بها فهمنا لكافة الأجزاء الأخرى التي تكشف عنها الأساليب والحركات الصادرة عن النفس.

والآن وقد رأينا كيف أمكن تحديد حياة اليقظة بواسطة هدف التفوق، فقد نستطيع أن نرى كيف يمكن تحديد الأحلام أيضاً بواسطة الهدف الفردي للتفوق. فالحلم دائماً جزء من أسلوب الحياة، وينطوي على المثال الأول منها على الدوام. والحق أنك لن تفهم حلماً من الأحلام فهماً صحيحاً إلا إذا أدركت كيف يرتبط المثال الأول بهذا الحلم، كما أنك إذا عرفت شخصاً معرفة صادقة كان في استطاعتك أن تحزر الطابع الذي تنطبع به أحلام هذا الشخص.

فكلنا يعلم أن الجبن صفة عامة في جميع أفراد الجنس البشري، ومن هذه الحقيقة العامة نستطيع أن نفترض أن عدداً كبيراً من الأحلام يكون أحلام

خوف أو خطر، أو قلق وحيرة. وكذلك إذا عرفنا أن هدف شخص ما هو الهرب من مشاكل الحياة مثلاً، استطعنا أن نحزر أنه كثيراً ما يحلم أنه قد سقط على الأرض، وكان هذا الحلم إنذار له معناه «إياك أن تتقدم - وإلا حلّت بك الهزيمة»، وإذن فهو يعبر عن نظره إلى المستقبل بهذه الطريقة، طريقة السقوط، ولذلك نرى الكثرة الغالبة من الرجال يحلمون هذا النوع من الأحلام وهو أحلام السقوط.

ونذكر هنا حالة خاصة هي حالة طالب مهمل في دروسه في اليوم السابق لامتحانه. إن في وسعنا أن نحزر ما يقع لهذا الشخص، فهو يظل طوال يومه مهموماً، غير قادر على استجماع فكره، وينتهي به الأمر إلى أن يقول لنفسه «إن الوقت جد قصير»، فكأنه يبغي أن يؤجل الامتحان إلى أجل، وإذن فهو يرى في الحلم أنه واقع، وفي حلمه هذا تعبير صريح عن أسلوب حياته. فهو لا بد له أن يرى هذا النوع من الأحلام ليبلغ به هدفه.

وإليك مثال طالب آخر ناجح في دراسته، شجاع غير هيّاب ولا مختال. إن في وسعنا أيضاً أن نحزر أحلام هذا الشخص. فهو يرى نفسه قبيل الامتحان كأنه يتسلق جبلاً شاقاً، فيُفتن بالمنظر الذي يشرف عليه من فوق قمة الجبل ثم يستيقظ. وأنت ترى في ذلك تعبيراً صادقاً عن حياته العادية، كما ترى كيف أن حلمه ينم عن هدفه الأخير في هذه الحياة.

وهنالك الشخص المحدود القدرة وهو الذي تقف همّته عند حد محدود لا تتعداه. ومثله يحلم بالحدود والموانع تعترض سبيله، وبأنه غير قادر على تخطيها والتغلب على الواقفين في سبيله من الناس. وكثيراً ما يرى في حلمه كأن شخصاً يتعقبه ويبغي اقتناصه.

وقبل أن ننتقل إلى لون آخر من ألوان الأحلام يجب أن نشير إلى حقيقة هامة وهي أنك لا ترى عالِماً نفسانياً يتولاه القنوط إذا قال له زيد من الناس «إني لا أستطيع أن أقصّ عليك أي حلم من أحلامي، لأن ذاكرتي لا تعيها، ولكني أستطيع أن أصطنع بعض الأحلام». إذا هو سمع ذلك فلن يقنط لأنه

يعلم أن خيال زيد هذا لا يستطيع أن يبتكر شيئاً خلاف ما يوحي به أسلوب حياته. ولذلك فإن أحلامه المصطنعة لا تقل شأناً عن أحلامه الحقيقية التي تعيها ذاكرته، وإن خياله وتصوره ليعبران أيضاً عن أسلوب حياته. وليست المخيلة في حاجة إلى أن ترسم صورة طبق الأصل من حركات الإنسان الحقيقية لتعبر بها تعبيراً صادقاً عن أسلوب حياته. ألسنا نشاهد مثلاً ذلك الرجل الذي يعيش في الخيالات أكثر مما يعيش في الحقيقة؟ فهو النمط الصادق للجبن البالغ نهاراً والشجاعة المفرطة في الأحلام. ولكنا لا بد واجدون فيه من المظاهر ما يدل على أنه لا يبغي أبداً إتمام عمله، وهذه المظاهر نفسها تكون واضحة كل الوضوح حتى في أحلامه الباسلة.

وغرض الأحلام على الدوام هو تمهيد الطريق لهدف التفوق - نعني هدف التفوق الخاص بهذا الفرد نفسه. ذلك أن الأعراض التي تشاهد على الشخص، وحركاته وأحلامه كلها لون من التدريب لمساعدته على الوصول إلى هذا الهدف المسيطر عليه، سواء كان هدفه أن يصبح موضع إعجاب الناس، أو أن يسيطر عليهم، أو يفر من وجوههم.

والحلم لا يُعبِّر عن الغرض الذي يرمي إليه تعبيراً منطقياً ولا صحيحاً، وهو إنما يقع لكي يخلق إحساساً أو حالة وجدانية لا تدوم أو انفعالاً، ومن المستحيل حل غوامضه. ولكنه من هذه الناحية لا يختلف عن حياة اليقظة وحركاتها إلا في الكم لا في الكيف. فقد شاهدنا أن إجابات النفس عن مسائل الحياة ذات صلة بأسلوب حياة الشخص نفسه، وليست جزءاً من نظام منطقي أعد لها من قبل، وإن كان غرضنا نحن أن نجعلها بالتدريج جزءاً منه، ليساعدنا ذلك على صلاتنا الاجتماعية. فإذا نحن صرفنا النظر عن الاعتقاد السابق فقد الحلم في الحال كل ما فيه من غموض، وأصبح لا يعدو أن يكون تعبيراً جديداً عما في حياة اليقظة من حقائق وانفعالات منسوبة بعضها إلى بعض، وممتزجة بعضها ببعض.

أما من الناحية التاريخية فقد كانت الأمم البدائية على الدوام ترى في الأحلام غموضاً ألجأها إلى أن تؤولها بأنها تنبؤات بالمستقبل، أي أنهم نظروا

إليه كأنها إخبار عن الحوادث المقبلة. وقد كانوا في ذلك في منتصف الطريق إلى الصواب. فالواقع أن الحلم هو البرزخ الذي يصل ما يواجه الحالم من مشكل بهدفه النهائي. وبهذا المعنى يصدق الحلم في كثير من الأحيان لأن الحالم في أثنائه يدرب في الواقع جانباً من نفسه، أي أنه يمهد السبيل لأن يُحقَّق حلمه ويَصْدُق.

وفي وسعنا أن نعبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى فنقول إن هذه الصلة نفسها يكشف عنها الحلم كما تكشف عنها حياة اليقظة. وفي وسع الشخص الفطن الصادق أن يعرف المستقبل سواء حلَّل حياته في حلمه أو في يقظته، وكل ما عليه هو أن يفحص عن أغراضه ويشخص حاله. فإذا حلم شخص مثلاً أن صديقاً له قد مات، ثم مات هذا الصديق فعلاً، فقد لا يزيد ذلك على ما كان يستطيع أن يتنبأ به الطبيب المعالج أو أحد أقاربه الأدنين. وكل ما فعله في هذه الحال هو أنه فكر في أثناء نومه بدلاً من أن يفكر في أثناء يقظته.

أما أن الحلم هو نبوءة بالمستقبل لأن بعضه يصدق، فذلك في الحقيقة حديث خرافة، يتمسك عادة بأهدابها كل شخص يؤمن بغيرها من الخرافات، ويدافع عنها كل من ينشد الشهرة بمحاولته إقناع الناس بأنه من المتنبئين.

ولكي نزيل من حول الأحلام خرافة التنبؤ والغموض الذي يحيط بها، يجب علينا بطبيعة الحال أن نفسر سبب عجز معظم الناس عن فهم معنى ما يرونه من الأحلام. إن سبب هذا العجز هو أنك لا تكاد تجد في الناس من يعرفون أنفسهم حتى في حياة اليقظة، وأنك لا تكاد تجد منهم من لديهم القدرة على التحليل النفسي التفكيري الذي يستطيعون به أن يعرفوا إلى أين يساقون. وتحليل الأحلام، كما رأيت، مسألة أشد تعقيداً وغموضاً من تحليل سلوكنا في اليقظة، فلا غرابة إذن أن يكون هذا التحليل فوق قدرة أكثر الناس، ولا غرابة كذلك إذا رأيتهم لجهلهم بما ينطوي عليه الحلم يهرعون إلى المشعوذين والأدعياء.

ومما يساعدنا على فهم منطق الأحلام أن لا نوازن هذا المنطق بحركات اليقظة في حياتنا المعتادة، بل نوازنه بذلك النمط من الظواهر الذي شرحناه في

الفصول السابقة، وقلنا إنه مظهر من مظاهر الذكاء الفردي الخاص. ويذكر القارئ كيف فصّلنا مواقف المجرمين من الحياة، ومواقف الأطفال المعضلين والمصابين بالأمراض النفسية، وبينا كيف يخلقون في أنفسهم شعوراً خاصاً أو مزاجاً أو حالة، سمِّها كيف شئت، للتوصل بها لإقناع أنفسهم بحقيقة من الحقائق. فالقاتل مثلاً يبرر عمله بقوله لنفسه «ليس لفلان هذا مكان في الحياة، وإذن فلا بد لي من قتله». فهو يؤكد في ذهنه أن الأرض لا تتسع للقتيل وبهذا يخلق في نفسه شعوراً خاصاً يهيئ به نفسه لجريمة القتل.

وقد يقول هذا الشخص لنفسه إن لدى فلان مثلاً سروالاً من أحسن السراويل وليس له هو مثله، ويبالغ في شأن هذه الواقعة حتى يشتد حسده لصاحب السروال، وحتى يصبح هدف تفوقه أن يحصل على سروال شبيه به. وقد يرى بعد ذلك في الحلم ما يخلق فيه تأثيراً خاصاً يؤدي به إلى تحقيق هذا الهدف في منامه. وتوضح الأحلام المشهورة هذا كل الوضوح، ومنها حلم يوسف الذي ورد ذكره في التوراة، والذي رأى أن كل ذويه يسجدون له، ونستطيع أن نرى الآن كيف أن هذا الحلم يتفق تماماً مع كثير من ألوان القصة بأسرها ومع نفي إخوته إياه.

وهنالك أيضاً الحلم الشهير الذي رآه شاعر اليونان سمنيدس Simondies[1] الذي طُلِب إليه أن يسافر إلى آسيا الصغرى ليلقي بعض المحاضرات، وكان دائم التردد وتأجيل يوم الرحيل على الرغم من علمه أن السفينة راسية في انتظاره في الميناء، وحاول أصدقاؤه إقناعه بالسفر على غير جدوى. ثم رأى بعد ذلك في الحلم كأن رجلاً من الأموات، كان قد عثر عليه من قبل في إحدى الغابات، قد ظهر له وخاطبه بقوله: «إن تقواك وما أسديته إليّ من خير أثناء وجودي بالغابة يحتمان عليّ أن أنصحك، فلا تذهب إلى آسيا

(1) أجد شاعرين يسميان بهذا الاسم من شعراء اليونان القديمة المجيدين. وُلد الأول في ساموس ثم انتقل منها إلى أمرجوس Amorgos وعلا نجمه بين شعراء عصره حوالي سنة 664 قبل الميلاد. والثاني وُلد في جزيرة كيوس Ceos سنة 556 قبل الميلاد واشتهر بالشعر الغنائي.

الصغرى». واستيقظ سمنيدس من نومه وهو يقول: «لن أذهب»، ولكنه كان قبل هذا الحلم غير راغب في السفر، وكان ما حدث بالفعل أنه قد أوجد في نفسه شعوراً مؤيِّداً لحكم أصدره هو من قبل، إن لم يكن قد فهم حلمه على حقيقته.

وفي وسع الإنسان إذا تدبر الأمر أن يرى في وضوح أن الحالم يخلق بحلمه وهماً لكي يخدع به نفسه، ويؤدي هذا الوهم إلى شعور مرغوب فيه. هذا الشعور هو كل ما نذكره أحياناً من الحلم.

وإذا نحن أجلنا الفكر في حلم سمنيدس تكشفت لنا نقطة أخرى جديرة بالاهتمام. ما هو الطريق الذي يجب أن نسلكه لتفسير الأحلام؟ إن علينا أن نذكر أولاً أن الحلم جزء من القوة المبتكرة في الإنسان. فسمنيدس عندما حلم استعمل خياله وبنى عليه سلسلة من الحوادث، قوامها قصة الرجل الميت. ولكن لماذا اختار هذا الحادث بالذات من بين حوادثه الكثيرة؟ أكبر الظن أن مسائل الموت كانت تشغل الحيز الأكبر من تفكيره، لأنه كان يفزع كلما فكر في ركوب البحر. فقد كان ركوبه في تلك الأيام خطراً جسيماً يتجنبه الناس ويخشون عاقبته. ولهذا كان دائم التردد كما شاهدنا، وهذا دليل على أنه لم يكن يخاف دوار البحر وكفى، ولكنه كان يخشى أيضاً غرق السفينة التي سوف تقلّه. وكانت نتيجة انهماكه في التفكير في الموت أن اختار في حلمه قصة ذلك الميت.

فإذا نحن نظرنا إلى أحلامنا هذه النظرة أصبح تأويلها أقل صعوبة وتعقيداً. ذلك أنه ينبغي لنا في هذه الحال أن نذكر أن اختيار الصور والذكريات والتخيلات علامة على الاتجاه الذي يتحرك فيه العقل، أو أن هذا الاختيار يدل على ميل الحالم الذي تستطيع أن تعرف منه الهدف الذي يريد أن يصل إليه.

ولتوضيح ذلك نورد هنا حلم رجل متزوج ولكنه غير موفق في حياته الزوجية. فقد كان له طفلان إلا أنه كان دائم الجزع عليهما لاعتقاده أن زوجته لم تكن تعنى بهما العناية الكافية لانصرافها بكليتها إلى شؤون أخرى. وكان لا ينفك ينتقد سلوكها نحو ولديه، ويحاول تقويم اعوجاجها. وقد رأى هذا

الوالد في حلمه ذات ليلة كأن له ثلاثة أولاد لا اثنين، وكأنه فقد الثالث ولم يعثر عليه، وكأنه أخذ يعنف زوجته على ما فرطت في العناية بهذا الولد.

ومن هذا المثل نستطيع أن نعرف ميله، لقد كان دائم التفكير في أن أحد ولديه سيضل يوماً ما، إلا أنه لم يكن من الشجاعة في حلمه بحيث يرى أن المفقود أحد الولدين، فاخترع وجود ولد ثالث ليفقده.

وهنا نستطيع أن نلاحظ مسألة أخرى هي أنه كان مشغوفاً بولديه، وأنه لم يكن يحب أن يفقد واحداً منهما، وأنه كان يشعر بأن زوجته مرهقة بالعناية بهما، وأنها سوف تكون أشد تعباً إذا كانوا ثلاثة، فلم يكن ثمة مفر من أن يستهدف الولد الثالث للموت. ومن هنا نستطيع أن نرى وجهاً آخر من أوجه هذا الحلم إذا نحن أوّلناه على أن الرجل كان يناجي نفسه بقوله «هل ينبغي أن يكون لي ولد ثالث أو لا ينبغي؟».

وكانت النتيجة الحقيقية لهذا الحلم أنه خلق في الرجل شعوراً ضد زوجته. فهو لم يفقد أحد طفليه في الواقع، لكنه استيقظ في الصباح وهو ينحى باللائمة عليها، ويشعر شعوراً عدائياً نحوها. ومن هنا نفهم كيف يستيقظ بعض الأشخاص صباحاً في كثير من الأحيان وهم يميلون إلى اللجاج والنقد، وذلك للإحساس الذي أوجده فيهم حلم الليلة السابقة، وهي حال أشبه ما تكون بحال المخمور، ولا تختلف عما نرى في المصاب بداء السوداء، حيث يُسمَّم الشخص مما يصطنع من أفكار الهزيمة والموت والخراب والخسران.

وفي وسعنا أيضاً أن نرى أن هذا الشخص قد اختار في الحلم ما من شأنه أن يجعله متفوقاً، وذلك بقوله لنفسه «إني أنا جد معني بالأولاد، وأما زوجتي فعلى العكس من ذلك، ولهذا فُقِد الولد». وهكذا ينحسر لنا اللثام في هذا الحلم عن ميل صاحبنا إلى السيطرة.

على أن تأويل الأحلام الحديث لم يُعرف إلا من خمسة وعشرين عاماً خلت، فقد كان فرويد يزعم أولاً أن الأحلام عبارة عن تحقيق صبياني للرغبة الجنسية، وهو زعم لا نستطيع أن نوافقه عليه، لأنه إذا كانت الأحلام تحقيقاً

لرغبة فإن كل شيء آخر يمكن التعبير عنه بأنه تحقيق لرغبة. ولما كانت كل فكرة لا بد أن تسلك هذا السلوك نفسه، فتنتقل من أغوار اللاوعي إلى الوعي، فإن فكرة تحقيق الرغبة الجنسية لا تفسِّر لنا شيئاً بعينه.

ثم زعم فرويد بعد ذلك أن الرغبة في الموت مما ينطوي عليه الحلم، ولكنه زعم مرفوض كذلك. فمنذا الذي يستطيع أن يقول إن الحلم الأخير الذي قصصناه عليك يصح تأويله على هذا الأساس؟ فهل يصح أن نقول إن الأب كان يبغي أن يفقد ابنه وأن يسطو الموت على هذا الابن؟

والواقع أنه لا توجد قاعدة خاصة تؤول بها الأحلام خلا المبادئ العامة التي أشرنا إليها في كلامنا على الوحدة الروحية للحياة، والطابع الوجداني الخاص لحياة الحلم. وهذا الطابع الوجداني مقترناً بالانخداع النفسي موضوع متشعب كثير الاختلاقات، يمكن أن يكون مصدره اشتغال البال بالتشبيهات والاستعارات.

ذلك بأن استعمال التشبيهات في الكلام يعد خير طريقة يخدع بها الإنسان نفسه وغيره. ونستطيع أن نقول في يقين إن الشخص الذي يلجأ إلى التشبيهات يشعر أنه لا يقدر على إقناعك بالاعتماد على الحقائق والمنطق دون غيرهما، بل يريد أن يؤثر فيك باستعماله تشبيهات متكلفة لا غناء فيها.

وحتى الشعراء يخدعوننا ولكنه خداع لطيف، نشعر معه بشيء من اللذة في استعاراتهم وتشبيهاتهم الشعرية. لكن علينا مع ذلك أن نوقن أن هذه الاستعارات والتشبيهات ما وُضِعت إلا لتُحدِث في نفوسنا أثراً يفوق أثر العبارات العادية المألوفة. فعندما يقول هوميروس مثلاً إن جيشاً يونانياً كان رجاله يصولون ويجولون كالأسود الضواري في ميدان القتال، فإن هذا التشبيه لا يخدعنا إذا فكرنا تفكيراً دقيقاً بعيدين عن كل مؤثر؛ ولكنه يسحرنا تواً إذا كان مزاجنا وقت قراءته شعرياً. فالشاعر يريدنا على أن نعتقد أن لديه قوة في الوصف عظيمة، وهو لا يستطيع أن يحملنا على هذا الاعتقاد إذا هو اقتصر على وصف الملابس التي كان يلبسها هؤلاء الرجال، والسلاح الذي كانوا يتقلدونه وما إلى ذلك.

ونرى هذه الحال نفسها في كل شخص يريد أن يشرح شيئاً ويجد في ذلك صعوبة ما، فهو عندما يشعر أنه غير قادر على إقناعك يلجأ إلى التشبيهات، وهي كما قلنا من قبل تخدعنا في أنفسنا، وهذا هو السبب في أنها تظهر في الأحلام في اختيار الصور والأشكال وما إليها، وهي طريقة فنية يخدع بها الإنسان نفسه.

ومن الغريب حقاً أن الحقيقة التي ألمعنا إليها، وهي أن للأحلام تأثيراً عاطفياً مخادعاً، ترشدنا إلى طريقة نستطيع أن نمنع بها وقوع الأحلام. فإذا استطاع شخص أن يفهم ما تراءى له في الحلم واستيقن أنه إنما كان يخادع نفسه، فإنه يكف عن الحلم في الحال. ذلك أنه لن يكون للحلم عنده بعد ذلك غرض أو معنى أو على الأقل إن هذا هو الذي يعرفه المؤلف عن نفسه، فقد كفّ عن الحلم لما عرف ما تعنيه الأحلام.

ونستطيع أن نقول بعد ذلك إنه لكي يكون لهذا اليقين أثره، يجب أن يبلغ حد التحول الانفعالي الكامل. وهذا ما حدث بعينه لمؤلف هذا الكتاب بسبب حلمه الأخير، فقد حدث هذا الحلم في وقت كانت الحرب فيه مندلعة الألسن وكان واجبه يقضي عليه أن يبذل أقصى جهده في منع شخص معين أن يرسل إلى مكان شديد الخطر في جبهة القتال. وتراءى له في حلمه كأنه قتل شخصاً، ولكنه لم يتبين من هو، فأخذ يجهد نفسه ويسألها مندهشاً من يكون هذا الشخص الذي قتله؟ وتفسير ذلك أنه قد تسمم بفكرة وجوب بذل أقصى الجهد لوضع الجندي في مكان آمن ينجو فيه من الموت. وكان القصد من التأثير الحلمي أن يؤدي إلى هذه الفكرة بعدها، ولكنه بعد أن أدرك حيلة الحلم، لم يعد يرى أحلاماً على الإطلاق، لأنه لم يعد في حاجة لأن يخدع نفسه بعمل شيء يستطيع المنطق السليم وحده أن يرشده إلى عمله، أو إلى الكف عن عمله.

وقد يكون فيما قلنا عن الأحلام ما يكفي للإجابة عن السؤال الذي يسأله الكثيرون وهو «لِمَ لا يحلم بعض الناس مطلقاً؟» والجواب أن هؤلاء أناس يأبون أن يخدعوا أنفسهم بأنفسهم، ويتقيدون بما يمليه المنطق، ويُعنون بمجابهة المشاكل. ومن كان هذا شأنهم فهم جديرون بأن ينسوا فور الوقت كل

حلم يحلمونَه، هذا إذا قُدِّر لهم أن يروا حلماً ما. فهم ينسون هذه الأحلام بسرعة يعتقدون معها أنهم لم يروا أحلاماً على الإطلاق.

وهذا يؤدي بنا إلى بحث النظرية القائلة بأننا نحلم دائماً ولكننا ننسى أغلب الأحلام، وهي نظرية إذا نحن سلّمنا بها كان علينا أن نفهم من قولهم إن هناك أشخاصاً لا يحلمون مطلقاً معنى غير الذي كنا نفهمه أولاً، إذ يصبح معنى هذا القول إنهم يحلمون ولكنهم ينسون أحلامهم في كل مرة. وتلك نظرية لا يقبلها المؤلف لأنه يعتقد أنه إذا كان من الناس من لا يحلمون مطلقاً فإن منهم من يحلمون ولكنهم ينسون ما رأوا في الحلم. وليس من السهل إثبات خطأ هذه النظرية وإن كان البرهان على صحتها ينبغي أن يلقي عبئه على كاهل القائلين بها.

ولِمَ تتكرر بعض الأحلام ذاتها المرة بعد المرة؟ تلك حقيقة جد غريبة لم يستطع أحد أن يفسرها تفسيراً مقطوعاً بصحته. على أن من المستطاع أن نجد أسلوب الحياة في هذه الأحلام المتكررة معبراً عنه تعبيراً واضحاً. فنحن نجد في هذا الحلم المتكرر دليلاً واضحاً لا شك فيه على مقر هدف التفوق للشخص الحالم.

أما الأحلام الطويلة المسهبة فيجب أن نعتقد أن الحالم بها لا يكون في حالة استعداد تام لها عندما تتراءى له. فقد كان في أثنائها يتطلع إلى البرزخ الذي ينتقل عليه من المشكلة التي أمامه إلى الهدف الذي يريد أن يبلغه. لهذا كانت أقصر الأحلام زمناً أسهلها فهماً، وقد يتكون الحلم من صورة واحدة أو من بضع كلمات، وفي ذلك دليل على أن الحالم ينشد أقرب الطرق لخديعة نفسه.

ونختم هذا الفصل بالكلام على النوم. يسأل كثيرون من الناس أنفسهم عن النوم أسئلة لا داعي لها، فهم يتصورون أن النوم عكس اليقظة، وأنه صنو الموت، وغير هذا وذاك من الآراء الخاطئة. والحقيقة أن النوم ليس عكس اليقظة وإنما هو مرتبة من مراتب اليقظة. ذلك أننا عند النوم لا ننقطع عن اليقظة بحال، بل نحن نفكر ونسمع؛ كما أننا في نومنا نعبر عن الميول التي نعبر

عنها في يقظتنا سواءً بسواء. ومن الشواهد على ذلك أن كثيراً من الأمهات اللواتي لا يوقظهن صخب الطريق وجلبته تنبههن في الحال أقل حركة يأتي بها أولادهن، وفي هذا دليل كافٍ على أن عناية هاتيك الأمهات مستيقظة حقاً، كما أن عدم تدحرجنا عن الفراش دليل آخر على أننا ندرك الحدود ونحن نيام.

ومن المحقق أن شخصية الإنسان يعبّر عنها في الليل والنهار على السواء، وهي حقيقة يمكن أن تفسر بها ظاهرة التنويم المغناطيسي. لقد صورت لنا الخرافات ظاهرة النوم المغناطيسي كأنها قوة سحرية مع أنها لا تعدو أن تكون لوناً من ألوان النوم لا أكثر ولا أقل، وهو نوم يريد فيه شخص ما أن يكون طوع أمر شخص آخر يعلم أنه يريد منه أن ينام. ومن أبسط الصور لهذا النوع نفسه ما تقوله الأم لابنها «كفى ونم» فيطيع الطفل وينام. وهذا هو الذي يحدث تماماً في النوم المغناطيسي إذ يطيع الشخص فيحدث النوم، وتكون سهولة النوم أو صعوبته متناسبة مع هذه الطاعة.

وعند النوم المغناطيسي تتاح لنا الفرصة لأن نجعل الشخص المنوَّم يتخيل صوراً وآراء وذكريات لم يكن ليتخيلها في اليقظة، لما يحول بينه وبين هذا التخيل في أثنائها من الموانع. والطاعة هي كل ما يلزم للحصول على هذه النتائج. وبهذه الطريقة نستطيع أن نحصل على بعض الحلول، أو قل بعض الذكريات القديمة، التي نسيها الشخص المنوَّم.

بيد أن استعمال النوم المغناطيسي علاجاً للأمراض لا يخلو من الخطر. والمؤلف لا يميل إلى التنويم المغناطيسي ولا يلجأ إليه إلا في حالة واحدة حين لا يؤمن المريض بغير هذه الوسيلة من وسائل العلاج. وذلك أن الشخص الذي ينوَّم يثأر لنفسه بعض الشيء، فهو يتغلب في البداية على صعابه ولكنه لا يغير في حقيقة الأمر أسلوب حياته. فالنوم المغناطيسي أشبه شيء بالمخدرات أو بالوسائط الآلية، وهو يترك طبيعة الشخص الحقيقية على حالها. والطريقة المثلى هي أن نبث في نفس المريض روح الشجاعة والثقة بالنفس، وأن نفهمه أخطاءه على خير وجه إذا أردنا إصلاح حاله حقاً. والتنويم المغناطيسي لا يفعل شيئاً من هذا، والواجب ألا يلجأ إليه إلا في الأحوال النادرة.

الفصل الثامن

الأطفال المعضلون وتربيتهم

كيف نربي أطفالنا؟ قد يكون هذا السؤال أهم ما يواجهنا من المسائل في حياتنا الاجتماعية الراهنة، وهو إلى ذلك من المسائل التي يساهم فيها علم النفس الفردي بنصيب كبير. فالتربية سواء أكانت بين جدران المنزل أم داخل غرف الدرس، إنما هي محاولة لإبراز شخصية الأفراد وتوجيهها الوجهة الصحيحة. وإذن فعلم النفس أساس لا بد منه لبناء فن التربية الصحيح، وقد يكون في وسعنا أن ننظر إلى التربية كلها على أنها فرع من ذلك الفن النفساني الواسع ألا وهو فن العيش.

ولنبدأ الآن بدرس بعض أوليات التربية فنقول إن أشمل المبادئ التي تقوم عليها وأوسعها هو اتفاقها مع الحياة المستقبلية التي سيضطر الأفراد أن يواجهوها فيما بعد، ومعنى هذا أنه يجب أن تكون متفقة مع المُثُل العليا للأمة التي تتكون من أولئك الأفراد. فإذا لم تكن هذه المُثُل العليا ماثلة أمامنا ونحن نربي أطفال الأمة، فأكبر الظن أن هؤلاء الأطفال سيلاقون الصعاب في حياتهم المستقبلية، ومن ثم يصبحون لبنات غير صالحة في بناء الجماعة التي يعيشون فيها.

نعم إن المُثُل العليا للأمة قد تتغير، وقد يكون هذا التغير فجائياً كما يُشاهَد عقب الثورات، وقد يكون تغيراً تدريجياً كما يقع في أدوار تطور الأمة، ولكن كل ما يتطلبه هذا من رجال التربية والتعليم أن يضعوا نصب أعينهم مثلاً أعلى واسعاً عاماً يجد له في كل آونة مكاناً يتبوأه، ومن شأنه أن يرشد الشخص إلى الطريقة التي يجعل بها نفسه ملائماً للظروف المتغيرة المختلفة.

ومنشأ الصلة بين دور التعليم والمُثُل الاجتماعية العليا هو بالطبع ارتباط هذه المُثُل بنظام الحكم في البلاد، ونفوذ الحكومة هو الذي يجعل نظام التعليم في بلد ما مرآة تنعكس عليها المُثُل العليا القومية. فالحكومة لا تصل يدها إلى الآباء أو إلى الأسر بسهولة ولكنها تشرف على المدارس وتسيِّرها في سبيل المصلحة العامة.

وقد كانت المدارس من الوجهة التاريخية تمثل في مختلف العصور مُثُلاً عليا مختلفة. فقد أنشئت في أوروبا في أول الأمر لتربية أبناء الأعيان، فكانت أرستقراطية في روحها، لا تفتح أبوابها إلا لأولاد الخاصة دون سواهم. ثم انتقلت بعد ذلك إلى أيدي رجال الكنيسة فبدا عليها الطابع الديني البحت، وكان معلموها هم القساوسة دون غيرهم. ثم أخذ الشعب يطلب لنفسه قسطاً أوفى من العلم، فازداد عدد المواد التي تُدرَّس فيها، وازدادت الحاجة إلى المعلمين زيادة كبيرة لم تستطع الكنيسة تلبيتها، ومن هنا انخرط في سلك المهنة قوم ليسوا من القساوسة.

وظلت مهنة التعليم إلى عهد قريب في أيدي أناس لم يكن التعليم عملهم الوحيد. فقد كانوا يمارسون حِرَفاً متباينة كالحذاءة والحياكة وغيرهما، ومن الجلي أن هؤلاء المعلمين كانوا من الجهل بأصول التعليم بحيث كان كل اعتمادهم على العصا وحدها. وبديهي أن المدارس التي كانت تضم هذا النوع من المعلمين لم تكن هي المدارس التي تحل فيها المشاكل المتعلقة بالطفل.

أما روح التربية الحديثة فقد بدأت في أوروبا في عهد بستالتزي فقد كان هو أول معلم أوجد أساليب للتعليم خلاف العصا والعقاب.

وتنحصر أهمية بستالتزي لنا، معشر النفسيين، في أنه أظهر ما للطرق التعليمية المنظمة من شأن عظيم في دور التعليم. فقد تبين لنا من أبحاثه أن في وسع كل طفل، إلا إذا كان ضعيف العقل، أن يتعلم القراءة والكتابة، والغناء والحساب. وليس معنى هذا أننا وصلنا إلى معرفة خير طرق التعليم أجمع، فهذه الطرق ما زالت في تطور مستمر، وما زلنا بحق دائبين على البحث عن وسائل جديدة أصلح من الأولى وأنفع، وهو واجب لا محيص عنه.

والآن فلنعد إلى تاريخ المدارس في أوروبا فنقول إلى الحاجة الملحّة إلى صنّاع يعرفون القراءة والكتابة واستخدام العُدَد، وليسوا في حاجة مستمرة إلى الإرشاد، قد ظهرت بعد أن تقدم فن التربية بعض الشيء. وفي ذلك العهد نفسه ظهر القول المأثور «مدرسة لكل طفل». واليوم أصبح كل طفل ملزماً أن يلتحق بالمدرسة. ويرجع الفضل في هذا التقدم إلى الأحوال الاقتصادية التي بلغناها وإلى المُثُل العليا التي نشأت عنها هذه الأحوال الاقتصادية.

ذلك أنه لم يكن لغير طائفة الأشراف في أوروبا فيما مضى نفوذ أو سلطان، وكانت حاجة البلاد إلى أبنائها تتمثل في طلب الموظفين والعُمّال دون سواهم، وكان الالتحاق بالمدارس العليا وقفاً على من يعدون أنفسهم لتولي أعمال الدولة الهامة، أما من عداهم فلم يكن لهم نصيب من الدراسة قط، فكانت سياسة التعليم في ذلك العهد مرآة تنعكس عليها هذه المُثُل العليا. أما اليوم فإن هذه السياسة تمثل طائفة أخرى من المُثُل تخالف تلك المُثُل السابقة. فلم يعد أثر لهذا النوع من المدارس التي كان يُفرض على الطفل فيها أن يجلس ساكتاً، مكتوف اليدين، لا يُسمَح له بأن يأتي بأي حركة؛ واستبدلت بها مدارس أخرى يرى التلميذ فيها نفسه صديقاً للمعلم، بمنجاة من أي سطوة أو تعسف؛ ولم يعد كل واجبه أن يطيع فحسب، بل أصبح يُسمَح له أن ينمو ويتقدم في استقلال كريم؛ وليس من شك في أن الولايات المتحدة الديمقراطية تنعم بمثل هذا النوع من المدارس لأن التعليم يتطور كما قلنا مع تطور المُثُل العليا للأمم، وهذه المُثُل نفسها تتمثل في نظم الحكم للبلاد.

وارتباط سياسة التعليم بالمُثُل العليا القومية والاجتماعية ارتباط أساسي سببه كما رأينا نشأة هذه المدارس ونظامها، وهذا الارتباط إذا نظرت إليه من وجهة علم النفس يجعل لهذه المدارس، بوصفها وسيلة من وسائل التربية، شأناً خطيراً. ذلك بأن الغرض الأساسي من التربية، كما ينظر إليه علم النفس، هو إيجاد التوافق بين الفرد والمجتمع، ومن السهل على المدرسة أن ترشد الطفل إلى هذا التوافق أكثر مما لو ترك لأيدي أسرته، لأن المدرسة أقرب من الأسرة إلى مطالب الأمة، كما أنها أبعد منها عن نقد الطفل، بُعدها عن تدليله وترفيهه.

فموقفها في الجملة أكثر انفصالاً عن الطفل من موقف الأسرة نفسها. يضاف إلى هذا أن الأسرة ليست على الدوام متشبعة بالمُثُل الاجتماعية العليا، فكثيراً ما نجد من الأسر ما هو رازح تحت تأثير بعض الآراء التقليدية القديمة. ولا أمل للرقي في مثل هذه الأسر إلا إذا كان الآباء أنفسهم متوافقين مع المجتمع ومدركين أن الغرض من التربية يجب أن يكون غرضاً اجتماعياً قبل كل شيء. فإذا أدرك الآباء هذا وفهموه حق الفهم رأينا الأطفال وقد حسُنت تربيتهم وعُدّوا خير إعداد للمدرسة، كما يُعَدّ الأطفال في المدرسة إعداداً حسناً ليتبوأوا مراكزهم الخاصة في الحياة. هذا وحده هو السبيل إلى التقدم المثالي للطفل في البيت وفي المدرسة على السواء، وفي هذه الحالة تكون المدرسة هي المرحلة الوسطى بين الأسرة والأمة.

لقد رأينا مما سبق أن أسلوب الحياة للطفل الذي يعيش بين أسرته يتحدد بعد سن الرابعة أو الخامسة وأنه بعد هذه السن لا يمكن تغييره تغييراً مباشراً، وتلك حقيقة ترشدنا إلى النهج القويم الذي ينبغي للمدرسة الحديثة أن تسلكه. فليس واجبها أن تنقد وتعاقب بل عليها أن تشكل الطفل وتربيه وتنمي ميوله الاجتماعية، وليس واجب المدرسة الحديثة أن تعتمد على مبدأ القمع والرقابة بل واجبها أن تعدل عن هذا وتحاول أن تفهم مشاكل الطفل الشخصية وتحلّها.

على أنه كثيراً ما يصعب على الآباء أن يربوا أبناءهم ليصلحوا للمجتمع وذلك لما بين الآباء والأبناء من ارتباط قوي في دائرة الأسرة. فالآباء يؤثرون أن يربوا أبناءهم على ما تهوى أنفسهم، فيخلقون فيهم ميلاً خاصاً لا يلتئم ومركز الطفل في حياته المقبلة. وأولئك الأطفال خليقون أن تصادفهم في مستقبل حياتهم أشق الصعاب، بل إنهم ليشعرون فعلاً بهذه الصعاب ساعة التحاقهم بالمدرسة، ثم تشتد وطأتها عليهم عقب استدبارهم المدرسة واستقبالهم الحياة العملية.

وليس من شك في أن هذه الحال لا تعالج إلا بتربية الآباء أنفسهم، وهي مهمة شاقة في أغلب الأحيان، لأن الهيمنة على الكبار ليست سهلة كالهيمنة على الصغار. وحتى إذا استطعنا التحكم في الآباء فأغلب الظن أننا لن نجد منهم

اهتماماً كافياً بالمُثُل العليا لأمتهم، بل نجد منهم استمساكاً بالتقاليد يصدهم عن الرغبة في الفهم.

ولما كنا عاجزين عن علاج هذه الحالة عن طريق الآباء، فلا مناص لنا من الاكتفاء بإيضاحها للناس في كل مكان. وخير ميدان يصلح لهذا الغرض هو المدرسة، وذلك لأسباب عدة منها أن المدرسة تضم عدداً كبيراً من الأطفال، ومنها أن الأخطاء في أسلوب الحياة تتجلى فيها أكثر مما تتجلى في الأسرة، وأن المعلم يفترض فيه أن يدرك مشاكل الطفولة أكثر مما يدركها سواه.

وما من شك في أن دراستنا لن تعرض للطفل السوي وليس لنا أن نمسه، هذا إن صحّ وجود أطفال من هذا القبيل. فإذا عثرنا على طفل كامل النمو مثلاً لا ينقصه شيء من التوافق مع المجتمع، فليس لنا أن نقمع ميوله ورغباته، بل علينا أن ندفعه وشأنه لأنه جدير أن يجد لنفسه هدفاً من الأهداف النافعة في الحياة، يصلح لأن يقوى فيه الشعور بالتفوق. وليس لنا أن نظن أن شعور التفوق هو بنفسه عقدة تفوق فيه، فالبون بينهما شاسع لأن أولهما في الجانب النافع من الحياة كما أشرنا من قبل.

لكن شعور التفوق وشعور النقص قد يكونان في الجانب الآخر غير النافع. وذلك في أحوال الأطفال المعضلين أو المصابين بالاضطرابات النفسية أو المجرمين وأمثالهم، فكل هؤلاء يعوضون عقدة النقص التي فيهم بعقدة التفوق. والشعور بالنقص صفة في الناس كلهم كما أسلفنا، ولكنه ينقلب حتماً إلى عقدة إذا ما بعث في الواحد منهم روح القنوط التي تبث فيه الالتجاء إلى الجانب غير النافع من الحياة.

وكل هذه المسائل المتصلة بالنقص والتفوق تنشأ في غضون حياة الطفل في الأسرة قبل أن يلحق بالمدرسة، وهذا هو الوقت الذي يكوِّن فيه الطفل أسلوب حياته الأول الذي سميناه بالمثال الأول تمييزاً له عن أسلوب حياته في الكبر، وإذا أصابه في سنّة المبكرة فساد ما استفحل أمره في الكبر، فهو أشبه ما يكون بالفاكهة الفجة إذا أصابتها حشرة نمت بنموها فأتلفتها وأتت عليها.

وتنشأ الصعوبات كما رأينا وتستفحل بسبب ما يوجد في الإنسان من أعضاء ضعيفة. وهذه المشاكل نفسها تكون عادة أصل الشعور بالنقص. وهنا ينبغي أن نذكر ثانيةً أن النقص العضوي ليس هو الذي يسبب المشكلة وإنما الذي يسببها هو ما يجره هذا النقص من عدم توافق الشخص المصاب به مع المجتمع الذي يعيش فيه. وهنا يجد المربون فرصتهم المواتية، فإذا ما علَّمت الشخص كيف يوفق بين نفسه وبين المجتمع رأيت النقائص العضوية وقد استحالت من قيود ثقيلة مرهقة إلى دوافع تزيده قوة على قوته. ذلك بأن النقص العضوي، كما رأينا، قد يكون منشأ عناية فائقة يقويها المران، وتسيطر على حياة الشخص بأكملها، فإن سارت في طريق نافع كانت جديرة بأن يفيد منها هذا الشخص فائدة عظمى.

والأمر كله موقوف على أثر هذه المشكلة العضوية في صلات الشخص بالمجتمع، فعلى المعلم أن يقوي في الطفل الذي لا يريد إلا أن يرى أو أن يسمع مثلاً الرغبة في استعمال حواسه جميعها، وإلا اتجه هذا الطفل اتجاهاً يقطع صلته بسائر التلاميذ.

وكلنا يعرف ما يصيب الطفل الأعسر من خرق وسماجة؛ وقد لا يتبين أحد هذه العلة في أول الأمر مع أنها في الواقع سبب سماجته وهي التي تجعله دائم النزاع مع أفراد أسرته؛ والأطفال العسر إما أن يصبحوا مشاكسين ميالين للاعتداء على غيرهم وهي ميزة لهم، وإما أن تراهم مكتئبين نكدين متبرمين بالحياة. فإذا التحق الواحد منهم بالمدرسة وتلك المشاكل معه رأيته إما دائم الشغب، أو كسير القلب منقبض الصدر، حاد الطبع، سريع التأثر، جباناً.

وثمة نوع آخر من الأطفال المعضلين غير ذوي الأعضاء العليلة، نجده بكثرة بين الأطفال المدللين الذين يلتحقون بالمدارس. ذلك أن المدارس لا تستطيع بنظامها الحاضر أن تجعل طفلاً واحداً من أطفالها موضع عنايتها والتفاتها على الدوام. صحيح أنه كثيراً ما يكون بين المعلمين والمعلمات من يحنو على بعض الأطفال ويرعاهم رعاية خاصة، ولكن الطفل لا يلبث أن يفقد هذا العطف وهذا الحنو الخاص إذا انتقل إلى المراحل التالية في التعليم، وتزداد هذه

سوءاً في أثناء الحياة لأن من المبادئ التي تواضعت عليها حضارتنا أنه لا يليق أن يكون شخص بعينه موضع الرعاية من الناس على الدوام، ما لم يكن قد أدى للناس ما يستحق من أجله هذه الرعاية.

ولهؤلاء الأطفال المعضلين جميعهم خصائص معينة، فهم كلهم لا يصلحون لمعالجة مشاكل الحياة علاجاً صحيحاً، وهم كثيرو المطامع يسعون إلى السيطرة بأنفسهم على غيرهم، واستخدام هذه السيطرة لصالحهم الخاص لا لصالح المجتمع، وهم فوق ذلك مشاغبون على الدوام، وفي عداء مستمر مع الناس، وتراهم لنقص اهتمامهم بمشاكل الحياة جبناء لأن طفولتهم المدللة لم تعدّهم لمجابهة هذه المشاكل.

ومن الخصائص التي نتبينها في مثل هؤلاء الأطفال حذرهم الشديد وترددهم الدائم في الصغيرة والكبيرة. فتراهم يرجئون حل ما يصادفهم من مشاكل الحياة. أو يقفون أمامها مكتوفي اليدين وينصرفون إلى شتى المسائل الأخرى ولا يتمون عملاً قط.

وتبدو هذه الخصائص جلية واضحة في زمن الدراسة أكثر مما تبدو بين جدران البيت، لأن المدرسة أشبه ما تكون بالمحك أو بالحمض الذي يكشف عن طبيعة الأشياء، فمنها نستطيع أن نعرف هل الطفل على اتفاق مع المجتمع مستعد لمشاكله، ومنها يظهر أسلوب الحياة الخاطئ، أما في البيت فقَلّ أن يُعرَف هذا الأسلوب.

ومن المشاهد أن كلا النوعين اللذين أشرنا إليهما من الأطفال، وهما الطفل المدلل والطفل المصاب بنقص في أعضائه يُؤثر دائماً أن «يتجنب» متاعب الحياة. ذلك لأن شعور كليهما القوي بالنقص يفقده الشجاعة التي يواجه بها هذه المتاعب. ومع ذلك فمن السهل أن نراقب هذه المشاكل بين جدران المدرسة ونهيئ أصحابها بالتدريج المواقف التي يستطيعون فيها أن يحلوا فيها مشاكلهم وبذلك تصبح المدرسة مكاناً لا تلقن النشء العلم فحسب، بل تربيهم أيضاً التربية الصحيحة.

بقي علينا أن نشير إلى طراز ثالث من الأطفال غير هذين الطرازين، وهو طراز الطفل المكروه. ومثل هذا الطفل تراه عادة ذميم الخلقة، كثير الأخطاء، قليل الحركة، لا يصلح للحياة الاجتماعية على الإطلاق، فهو أشد الطرز الثلاثة التي أشرنا إليها إشكالاً عندما يلتحق بالمدرسة.

ومما سبق نستطيع أن نرى أن الإحاطة بهذه المشاكل جميعها، وتخير الوسائل لعلاجها، أمران ينبغي أن تعنى بهم إدارة المدرسة، سواء أراد ذلك رجال التعليم والقائمون عليها أو لم يريدوه.

وإلى جانب الأطفال المعضلين الذين أشرنا إليهم، نجد الأطفال الأعاجيب الذين نظن فيهم النبوغ الخارق، ونأنس فيهم الذكاء الخاص. يُرى أولئك الأطفال المتفوقين في بعض المواد، فيظن المشرفون عليهم أنهم متفوقون أيضاً في المواد الأخرى؛ وتراهم فوق ذلك مرهفي الحس طموحين غير محبوبين حباً كافياً من زملائهم في الدرس. وذلك أن الأطفال يشعرون من فورهم -كما يلوح لنا- بمن هو متوافق منهم مع المجتمع ومن هو غير متوافق معهم، وفي الجملة إن الأطفال الأعاجيب يعجب بهم زملاؤهم ولكن لا يحبونهم.

ومن السهل أن ندرك كيف يجتاز الكثيرون من هؤلاء الأطفال مراحل التعليم في يسر كبير، ولكنهم إذا نزلوا إلى معترك الحياة الاجتماعية ألفيتهم غير مزودين بما يحتاجونه من خطة سديدة لمواجهة هذه الحياة. وتظهر هذه الصعاب أمامهم متى عرضت لهم مشكلة من مشاكل الحياة الثلاث وهي مشاكل الجماعة والمهنة والحب والزواج. عندئذ يتجلى كل ما وقع لهم في سنين تكون مثالهم الأول. وعندئذ نتبين نتائج عدم إعدادهم في أسرتهم للتوافق مع المجتمع، فقد كانوا يجدون أنفسهم على الدوام في مواقف سارة ملائمة لهم لم تكشف عن الأخطاء التي ينطوي عليها أسلوب حياتهم؛ فلما اعترضهم موقف جديد انكشفت هذه الأخطاء من فورها وبانت للعيان.

وقد يكون من الطريف أن نذكر أن الشعراء قد فطنوا للصلة بين هذه المسائل جميعاً، ولذلك ترى الكثيرين منهم ومن كُتّاب المسرحيات وقد وصفوا

التيارات المعقدة التي تشاهَد في مثل هؤلاء الأشخاص من أبطال رواياتهم وقصصهم، ومن أمثلة ذلك شخصية نورثمبرلاند Northumberland الذي وصفه شكسبير، وهو الضليع في علم النفس، بأنه لبث الخادم الأمين لمولاه الملك حتى ساعة الشدة، ثم انقلب عليه وخانه. ذلك أن شكسبير أدرك أن الشدائد هي التي تكشف عن أسلوب الحياة الحقيقي للشخص. وليس معنى هذا أن تلك الظروف هي التي تخلق أسلوب الحياة، لأن الأسلوب قد نما، وتكون من قبل كما سبق القول.

والعلاج الذي يصفه علم النفس الفردي لمشاكل الأعاجيب من الأطفال هو نفس العلاج الذي يصفه لغيرهم من الأطفال المعضلين، فهو يقول: «إن في استطاعة كل فرد إتمام كل شيء». وتلك حكمة ديمقراطية تقلل من شأن هؤلاء الأعاجيب الذين ينؤون بما ينتظره الناس منهم، والذين يدفعهم الناس دائماً إلى الأمام حتى يصبحوا أكثر اهتماماً بأنفسهم مما يجب. وقد يكون للذين يعملون بهذه الحكمة أبناء نبهاء، ولكن هؤلاء الأبناء لا يصابون بداء الغرور أو الطموح المفرط لأنهم يدركون أن ما وصلوا إليه من كمال هو نتيجة التمرين والحظ، وهم جديرين، إذا استمر تدريبهم الحسن أن يعملوا ما عمله غيرهم. لكن الأطفال الذين لم يُتح لهم ما أتيح لهؤلاء من ظروف ملائمة، ولم يُعلِّموا أو يُدرَّبوا كما عُلِّم هؤلاء ودُرِّبوا، يستطيعون أيضاً أن يقوموا بأحسن الأعمال إذا أرشدهم معلموهم إلى الطريق المستقيم.

فإذا كان هؤلاء الأطفال قد فقدوا شجاعتهم وجب تحصينهم ضد شعورهم الظاهر بالنقص، ذلك الشعور الذي لا يستطيع واحد منا أن يحتمله وقتاً طويلاً ويرجع سبب مشاكل هؤلاء الأطفال إلى أنهم لم يصادفوا في أول أمرهم صعاباً كثيرة كالتي اعترضتهم في مدارسهم، ومن ثم نستطيع أن نعرف لِمَ ينوؤون بهذه الصعاب، ولِمَ يميلون إلى التخلف عن الدرس في كثير من الأحيان، أو إلى الانقطاع عنه إطلاقاً. وهم في كلتا الحالتين يعتقدون أن لا أمل لهم في النجاح في الدراسة، ولو كان هذا الاعتقاد صحيحاً لكان من واجبنا أن نسلم معهم بأنهم في تخلفهم أو انقطاعهم عن الدرس يعملون بما يمليه العقل

وما يلتئم مع حالهم كلها، ولكن علم النفس الفردي لا يستطيع أن يتوهم أن حالتهم في المدرسة ميؤوس منها قطعاً، بل يرى أن في استطاعة كل شخص أن يعمل العمل النافع. نعم إن الأخطاء لا بد منها، إلا أنه من المسلَّم به أن تصحيحها ميسور وأن في وسع الطفل بعد ذلك أن يسير إلى الأمام.

لكن هذه الأخطاء في العادة لا تعالج العلاج الناجح، فما إن تلاحظ الأم أن ابنها يرزح تحت عبء المتاعب التي يصادفها في المدرسة حتى تقف منه موقف الرقيب العتيد القلق. فالتقارير المدرسية، والانتقاد والزجر اللذان يلقاهما ابنها في المدرسة، يبالغ في شأنها بما يتردد من أصدائها في البيت. وفي أغلب الأحيان نرى الطفل الذي كان في المنزل طفلاً طيباً لأنه نشأ فيه مدللاً، ينقلب في المدرسة شريراً، لأن عقدة النقص الكامنة فيه تبدأ في الظهور بمجرد انفصاله عن أسرته. وعندئذ يكره هذا الطفل أمه التي دللته، لشعوره بأنها كانت تخدعه، ولا تبدو في عينه كما كانت تبدو من قبل، وينسى مسلكها معه وتدليلها إياه بسبب ما يلقاه من المتاعب في ظروفه الجديدة.

وكثيراً ما نرى الطفل الذي كان كثير الشغب والعراك في المنزل هادئاً وادعاً بل مقموعاً في المدرسة. وقد تذهب أمه إلى المدرسة وتقول «إن ابني هذا يشغل وقتي بسبب عراكه» فيعارضها المعلم بقوله: «بل إنه على النقيض مما تقولين هادئ طول اليوم لا يتحرك من مكانه إلا بقدر». وقد يحدث عكس هذا فتقصد الأم إلى المدرسة وتقول «إن ولدي في المنزل هادئ وديع لا يحور ولا يحول» فيجيبها المعلم «إنه على العكس مما تقولين، فهو يفسد عليَّ جميع تلاميذي». وفي وسعنا أن نفهم هذا الموقف الأخير إذا تذكرنا أن هذا التلميذ موضع عناية أسرته كلها، ولهذا تراه في البيت هادئاً وادعاً لا صلف فيه، أما في المدرسة فليس هو موضع العناية، ولهذا تراه دائم الشغب، وقد يكون الأمر في البيت وفي المدرسة على عكس هذا.

ولنضرب لذلك مثلاً قصة طفلة كان لها من العمر ثمان سنوات، وكانت محبوبة جداً من زميلاتها في الدراسة متفوقة عليهن جميعاً. ففي ذات يوم جاء

أبوها إلى طبيب المدرسة وقال له إن طفلتي هذه على جانب كبير من السادية[1]، وهي طاغية حقاً حتى لم يعد في وسعنا احتمالها بحال. فماذا كان سبب ذلك؟ السبب أنها كانت أول طفلة وُلدت لأسرة ضعيفة، ولا يمكن أن تعذب طفلة أسرتها إلا إذا كانت هذه الأسرة ضعيفة حقاً. فلما رُزِق أبواها ولداً ثانياً استشعرت بالخطر يحيق بها، وكانت تحرص على أن تظل موضع الرعاية من أبويها، كما كانت من قبل، فأخذت تذود عن مركزها بما كانت تُحدِثه من خصام وعراك. أما في المدرسة فكانت موضع تقدير معلميها ولذلك لم تجد سبباً للنضال فسارت في دراستها على خير حال.

ومن الأطفال من تعترضه الصعاب في المنزل وفي المدرسة على السواء، فتشكو منه مدرسته وأسرته؛ والنتيجة التي لا مفر منها في مثل هذه الحالة هي ازدياد أخطاء الطفل على مر الأيام. ومنهم أيضاً من تراه مشوشاً غير مرتب في المنزل وفي المدرسة. فإذا كان سلوك الطفل واحداً في مدرسته وفي بيته كان علينا أن نفتقد السبب في طيات ماضيه. ومهما تكن حالة الطفل، فإننا إذا شئنا أن نحكم على معضلاته حكماً صائباً وجب علينا أن ندرس ما يأتيه من أفعال بين ذويه وفي المدرسة. ومما لا ريب فيه أن كل ما يتبين لنا من أحوال الطفل يفيدنا أكبر فائدة في تفهّم أسلوب حياته والاتجاه الذي يسلكه فيها.

ومن الأطفال من يكون على جانب لا بأس به من التوافق الاجتماعي، ولكنه عندما يوضع في وضعه الجديد يبدو بعيداً عن هذا التوافق. ويحدث هذا عادة إذا نظر التلاميذ والمعلمون إلى الطفل الجديد بعين البغض لسبب من الأسباب. ولنضرب ذلك مثلاً نأخذه من الحياة الأوروبية. إذا جاء طفل من غير طبقة الأشراف ولكنه من أبوين موسرين تملكهما الغرور، والتحق بمدرسة كل تلاميذها من أولاد الأسر الشريفة، وجد كل زملائه يقفون منه موقف العداء لاختلافه عنهم في المنزلة الاجتماعية. تلك حال طفل كان مدللاً أو على أقل تقدير متفقاً مع المجتمع الذي كان فيه، ولكنه وجد نفسه فجأة في وسط

(1) Sadism السادية الرغبة الجنونية في القسوة.

معادٍ له. وقد تصل قسوة هؤلاء الأطفال عليه إلى حد لا ندري كيف يستطيع هذا الطفل أن يحتملها. ويحدث في أغلب الأحوال ألا يذكر الطفل لشدة خجله شيئاً عن هذا العداء لوالديه، ويفضل أن يصبر على محنته في صمت عميق.

وأمثال هذا الطفل إذا بلغوا السادسة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرهم، أي إذا بلغوا السن التي يفرض عليهم فيها أن يواجهوا مشاكل الحياة وأن يسلكوا في المجتمع سلوك الرجال، وقفوا أمامها مكتوفي اليدين بعد أن فقدوا شجاعتهم وآمالهم. فيكون ذلك من العقبات التي تعترضهم في حياتهم الاجتماعية، وتفسد عليهم أمور الحب والزواج لعجزهم عن المضي في أمر من الأمور.

فما علاج هذه الحالات وأمثالها؟ وماذا يعمل أمثال هذا الطفل الذين لا يجدون منفذاً لنشاطهم لأنهم يرون أنفسهم في معزل عن العالم بأسره، أو لأنهم على الأقل يشعرون بذلك؟ فإذا كان من بين هؤلاء ذلك النوع من الأشخاص الذين يؤثرون أن يؤذوا أنفسهم ليؤذوا بذلك غيرهم، عمدوا إلى الانتحار؛ أما إذا كانوا من أولئك الذين يريدون أن يعتزلوا العالم فإنهم يختفون عن أعين الناس ويتوارون في الملاجئ، ويفقدون ما كان لهم من كفايات اجتماعية قليلة؛ وإذا تكلم الواحد منهم ففي أسلوب غير مألوف؛ وتراه لا يقترب من الناس، ويقف من العالم كله موقف عداء صريح. وهذه هي الحالة التي نسميها بِالعَتَه المبكر أو الجنون. فإذا أردنا مساعدة نوع من هذه الأنواع على الشفاء، وجب علينا أولاً أن نجد الوسيلة التي بها نعيد إليهم شجاعتهم. ولسنا ننكر أن تلك الحالات صعبة للغاية ولكنها مع ذلك ليست مستحيلة الشفاء.

أما وقد تبين لنا أن علاج معضلات الأطفال المتصلة بتربيتهم موقوفة أول كل شيء على الكشف عن أسلوب حياتهم، فإن من الخير أن نستعرض هنا الطرق التي وصفها علم النفس الفردي لهذا الكشف. صحيح أن معرفة أسلوب الحياة نافع في أمور أخرى كثيرة خلاف مسائل التربية، إلا أنه في هذه المسألة الأخيرة بالذات لا غناء عنه بحال.

ويستخدم علم النفس الفردي، إلى جانب الدراسة المباشرة للطفل في سني تكوينه، طريقة السؤال عن الذكريات القديمة وعما يتصوره الطفل لنفسه

من عمل في المستقبل؛ وهو يدعو أيضاً إلى ملاحظة حال الطفل الجسمية وحركاته ومظاهر أخرى خاصة بتربيته بين أفراد أسرته؛ وقد بحثنا هذه المسائل جميعاً فيما تقدم من صحف هذا الكتاب، لكنه قد يكون من الضروري أن نؤكد مرة ثانية ضرورة معرفة مركز الطفل في الأسرة لاتصال ذلك بتربيته أكثر من اتصاله بغيرها من شؤون حياته.

وترجع أهمية ترتيب الطفل في الأسرة إلى أن الطفل الأول كما رأينا يكون إلى حين في مركز الولد الوحيد، ثم يُحرَم فيما بعد هذا المركز الرفيع؛ فهو إذن يتمتع أول الأمر بسلطان قوي يضطر إلى فقده بعد قليل. أما الأولاد الآخرون فقد حُدِّد لهم حالتهم النفسية أنهم ليسوا أول من وُلد للأسرة.

وكثيراً ما نشاهد روح المحافظة سائداً بين أكبر أبناء الأسرة، فهم يشعرون أن كل من يملك القوة يجب أن يحتفظ بها دائماً أبداً، وأنهم لم يفقدوا سلطتهم إلا بطريق المصادفة المحضة، وهم شديدو الإعجاب بالقوة.

أما مركز الطفل الثاني فمختلف عن ذاك المركز كل الاختلاف. فهو يتقدم في السن ولا يجد نفسه موضع الرعاية من الأسرة، ولكنه يقتفي أثر أخيه الأكبر ويحرص على أن يكون مثله في كل شيء، وهو لا يعترف بالقوة ولكنه يريدها أن تنتقل من يد إلى أخرى؛ وكأنه هو وأخاه فرسا رهان، تدفعه رغبة ملحة إلى أن يسبقه، وتنم حركاته كلها على أنه يتطلع إلى هدف ما يبغي الوصول إليه، وهو يبغي دائماً أن يغير قوانين العلم والطبيعة، وهو ثوري حقيقة، لا في الناحية السياسية بل في الناحية الاجتماعية وفي موقفه من أنداده. وخير شاهد نسوقه على ذلك هو قصة يعقوب وأخيه عيسو الواردة في التوراة[1].

أما إذا كان في الأسرة عدد من الأبناء قد كبروا كلهم قبل أن يولد طفل آخر فإن الطفل الأصغر سناً يلفي نفسه في مركز شبيه بمركز الولد البكر.

---

(1) انظر قصة يعقوب وعيسو مع أبيهما إسحاق في الإصحاح السابع والعشرين من التوراة.

ومركز هذا الطفل الأصغر غاية في الأهمية من الوجهة النفسية. ونقصد بأصغر الأطفال سناً آخرهم مولداً، أي الذي لم يولد له أخ بعده. وبديهي أن هذا الطفل يتمتع بمركز ممتاز لا يمكن زحزحته عنه. ذلك أن الطفل الثاني الذي يولد للأسرة معرض لأن يفقد مركزه فيها لأنه قد يستهدف لما استهدف له أخوه البكر من مأساة عندما يولد له أخ أصغر منه، أما أصغر الأبناء فهو بمنجاة من هذه المأساة طول حياته. وإذن فهو خير الأولاد مركزاً، كما أنه جدير إذا تساوت الظروف بأن يحصل على خير وسائل التقدم. وهو يشبه الولد الثاني من حيث النشاط والرغبة في التفوق على سواه، والسبق في كل خطوة يخطوها، إلا أنه يميل بوجه عام إلى سلوك طريق مخالف لما سلكه غيره من أفراد أسرته. فإذا كانت الأسرةُ أسرةَ علماء فأكبر الظن أن أصغر أبنائها يكون موسيقياً أو تاجراً، وإذا كانت أسرة تجار فالغالب أن يكون هذا الولد شاعراً. وجملة القول أنه لا بد أن يخالف سائر أفراد الأسرة، لأنه أسهل له أن ينزل منفرداً إلى ميدان آخر من ميادين الحياة عن أن ينافس سائر إخوته في ميدانهم. وهذا هو السبب في أنه يؤثر مخالفته لغيره. ولا يخفى أن حالة كهذه تنم عن حاجته إلى الشجاعة، وإلا لما أحجم عن منافسة سائر أفراد الأسرة في ميدانهم.

وجدير بنا أن نشير إلى أننا نعبر عن تنبؤاتنا المبنية على مركز الطفل من الأسرة بأنها ميول وليست أشياء محتومة. فإذا اتفق وكان الولد البكر ذكياً فقد لا يتفوق عليه أخوه الولد الثاني فيتفادى بذلك استهدافه لأية مأساة، ويكون مثل هذا الطفل متوافقاً مع مجتمعه، وفي وسع والدته أن تحمله على أن يبسط عنايته على غيره من أبناء الأسرة، ومنهم آخر من ولد لها منهم؛ أما إذا كان الطفل الأول ممن لا يستطاع السيطرة عليهم فإن صعوبة كبيرة تنشأ أمام الطفل الثاني، وقد يصبح هذا الطفل الثاني من الأطفال المعضلين، ويكون أسوأ طراز من الأطفال، لأن أمثاله كثيراً ما يفقدون شجاعتهم وآمالهم. والطفولة حلبة سباق إن فقد الطفل فيها أمله في الفوز فقل عليه السلام.

وإذا كان الطفل وحيد أبويه كان مركزه هذا منشأ مأساة له، لأنه كان موضع الرعاية طوال أيام طفولته، وبذلك يكون هدفه في الحياة أن يظل أبداً في

هذا الوضع، فهو لا يستعمل المنطق في تفكيره ولكنه يفكر حسب أسلوب حياته الخاص.

ومن المعضلات أيضاً وجود ولد واحد في أسرة سائر أفرادها من البنات؛ ويظن الناس عادة أن مثل هذا الطفل يسلك في هذه الحال سلوك أخواته الفتيات، ولكن هذا الظن مبالغ فيه بعض الشيء، لأننا مهما تكن حالة أسرنا نربى على أيدي النساء. على أن هنالك صعوبة من غير شك لأن الأسرة كلها في هذه الحالة تزكون قائمة لمصلحة الإناث. وفي وسع الإنسان إذا دخل بيتاً أن يدرك من فوره هل أكثر أولاد الأسرة من الذكور أو الإناث. ذلك لأن لكلتا الحالتين أثراً خاصاً في أثاث البيت، وفي كثرة الضوضاء أو قلّتها، وفي نظامه بوجه عام. وحسبنا أن نذكر أنه إذا كانت الأغلبية للصبيان كثرت الأشياء المكسورة في البيت وإن كانت للبنات كانت الدار أكثر نظافة وترتيباً.

وتلك البيئة إما أن تدفع الطفل إلى اصطناع الرجولة والإسراف فيها، وإما أن تنشئه كما تنشأ البنات اللاتي تَضُمهن الدار. فترى الطفل إما ليناً مائعاً أو وحشياً لا تلين له قناة، وفي هذه الحالة الأخيرة يظهر الطفل وكأنه يحاول دائماً أن يثبت للناس أنه رجل بحق.

وإذا وجدت بنت واحدة وسط أطفال كلهم ذكور كان مركزها صعباً أيضاً، فهي إما أن تكون هادئة كل الهدوء تظهر فيها أخلاق الأنوثة واضحة، وإما أن ترغب في أن تأتي ما يأتيه الأولاد، وتنشأ كما ينشأون. وفي هذه الحال يبدو الشعور بالنقص واضحاً وضوحاً لا يحتمل الشك، وذلك لأنها البنت الوحيدة في بيئة يتفوق فيها الصبيان. ومنشأ عقدة النقص في هذه الحال هو شعورها بأنها ليست إلا فتاة. فعقدة النقص كلها كامنة في هذا الحصر، وتبدو عقدة التفوق التي تستعيض بها هذه الفتاة عن نقصها عندما تحاول أن تلبس كما يلبس الصبيان، وأن تتمتع بما تفهم أن الرجال متمتعون به من علاقات جنسية.

وقد يكون من الخير أن نختتم بحثنا في مركز الطفل من أسرته بحالة أخرى خاصة هي الحالة التي يكون فيها الولد الأول ذكراً والثاني أنثى. ففي

هذه الحالة تشتد المنافسة دائماً. فالبنت يدفعها إلى الأمام عاملان أولهما أنها الطفل الثاني وثانيهما أنها فتاة، فهي تكثر من تدريب نفسها وتصبح لهذا السبب نموذجاً واضحاً لما يكون عليه الطفل الثاني، فتكون نشيطة للغاية متمتعة بالكثير من الاستقلال، ويدرك الولد كيف تدنو منه شيئاً فشيئاً في حلبة السباق. ومن الحقائق المعروفة أن البنت تنمو في جسمها وعقلها أسرع مما ينمو الولد، فهي في الثانية عشرة من عمرها مثلاً أكبر جسماً وأنضج عقلاً من الصبي في نفس السن. ويرى الولد هذه الحقيقة ولكنه لا يستطيع أن يفسرها، فيحس بقصوره ويتوق إلى النكوص على عقبيه فلا يتقدم مطلقاً، ويأخذ بدل هذا في تلمس طرق الفرار. ويحدث أحياناً أن يرى طريق الفرار في الاتجاه نحو الفنون الجميلة. وأحياناً أخرى تصيبه الأمراض النفسية أو يصبح مجرماً أو مجنوناً. وفي الجملة يشعر الولد أنه أضعف من أن يستمر في تحمل عبء هذا السباق.

وتلك مشكلة من المشاكل العويصة حتى ولو أخذنا بالقول المأثور «في وسع كل إنسان أن يفعل كل شيء». وخير ما نصنع في هذه الحالة أن نعلِّم الولد أن الفتاة إذا كانت متفوقة عليه فما ذلك إلا لأنها تكثر من المران، وأنها بهذا المران تجد وسائل للتقدم خيراً من التي يجدها هو. وفي وسعنا أيضاً أن نوجه كلًّا من البنت والولد إلى ميدان غير ميدان التنافس على قدر المستطاع، فنقلل بذلك ما في نفسيهما من روح المنافسة والتسابق.

الفصل التاسع

المشاكل الاجتماعية والتوافق الاجتماعي[1]

إن الذي يرمي إليه علم النفس الفردي هو التوافق الاجتماعي، وهو قول قد يبدو مناقضاً بعضه لبعض، ولكنه إذا كان كذلك فإن تناقضه لا يعدو أن يكون تناقضاً في اللفظ لا غير. والحقيقة أننا لا نستطيع أن ندرك ما للعامل الاجتماعي من شأن عظيم في الحياة إلا إذا أنعمنا النظر في حياة الفرد النفسانية الواقعية. فالفرد لا يكون فرداً بالمعنى الصحيح إلا بالقرينة الاجتماعية. نعم إن من الطرائق الأخرى لعلم النفس ما يفرق بين ما يسمى علم النفس الفردي وعلم النفس الاجتماعي، أما نحن فلا نقر هذه التفرقة بحال. ولقد حاولنا فيما تقدم من الأبحاث أن نحلل أسلوب حياة الفرد، غير أن هذا التحليل كان يتجه على الدوام إلى الناحية الاجتماعية، ويقصد به أن يطبق تطبيقاً اجتماعياً.

ونحن الآن مواصلون هذا التحليل على أن يكون أهم ما نعنى به فيه مشاكل التوافق الاجتماعي. وسيرى القارئ أن الحقائق التي نعرض لها هي نفس الحقائق التي ذكرناها من قبل، ولكننا بدلاً من تركيز انتباهنا على تشخيص أساليب الحياة المختلفة سنناقش هذه الأساليب وهي تعمل عملها، ونناقش الوسائل المؤدية إلى العمل الصحيح.



(1) Social Adjustment

وتحليل المشاكل الاجتماعية ينصب مباشرة على مشاكل التربية التي كانت موضوع بحثنا في الفصل السابق من هذا الكتاب. فما المدارس ودور الحضانة إلا معاهد اجتماعية مصغرة نستطيع أن ندرس فيها مشاكل عدم التوافق الاجتماعي في صورة مبسطة.

خذ مثلاً المشاكل التي يثيرها سلوك طفل في الخامسة جاءت أمه إلى الطبيب تشكو له أن ابنها هذا لا يعرف للراحة طعماً، وأنه دائم الحركة إلى حد الجنون، وأنه يضايقها كثيراً، وأنه الشغل الشاغل لها على الدوام، وأنها كانت في آخر اليوم تجد نفسها منهوكة القوى، وأنها لا تطيق ابنها بعدئذ ولا تتردد في أن تخرجه من المنزل إذا أشار عليها الطبيب بذلك.

وفي وسعنا بعد سماع هذا الوصف المفصل لسلوكه أن نضع أنفسنا في مكان هذا الطفل فإذا سمعنا أن طفلاً في الخامسة من عمره لا يكف عن الحركة فمن السهل أن نتصور نوع سلوكه في المستقبل. فماذا يعمل شخص في هذه السن إذا كان دائم الحركة والنشاط؟ إنه يعلو المائدة بحذائيه الثقيلين، ويحب أن يُرى أبداً قذراً، وإذا حاولت أمه أن تقرأ عمد إلى مفاتيح الإضاءة يفتحها ويقفلها، وإذا أراد أبواه أن يعزفا على البيانو أو أن يغنيا معاً أخذ يصرخ أو يضع إصبعيه في أذنيه، ويصر على أنه لا يحب أن يسمع هذه الضوضاء، وإن هو لم يُجَب إلى رغبة من رغباته التي لا تنقطع غضب وعمد إلى الصخب والضجيج.

فإذا لاحظنا على أحد أطفال المدرسة سلوكاً كهذا أيقنا أنه ممن يؤثرون العراك على السكينة، وأن كل ما يهمه أن يصل إلى هذه الغاية، فهو لا يقر له قرار لا ليلاً ولا نهاراً، ولا يهمه أن تكون أمه وأن يكون أبوه قد تملكهما الإعياء والكلال. أما هو فإن التعب لا يعرف إلى نفسه سبيلاً، لأنه لا يُلزَم بأن يعمل ما لا تهواه نفسه، وكل ما يريده هو أن يكون دائم الحركة وأن يشغل غيره بأمره.

وإن حادثاً كالذي نسوقه ليدلنا على أن هذا الطفل يعمل جاهداً ليكون موضع العناية. ومن أمثلة هذا أن طفلاً من هذا النوع أُخِذ يوماً إلى حفلة غنائية كان أبوه وأمه فيها يغنيان ويعزفان، وفي خلال الغناء والعزف قاطع الطفل أباه

بصوت مرتفع قائلاً «هاه يا أبتاه!» وأخذ يمشي في القاعة جيئةً وذهاباً، وهو عمل كان من السهل التنبؤ به قبل وقوعه، إلا أن أبويه لم يستطيعا إدراك أسباب هذا السلوك لأنهما كانا يظنان أن ابنهما طفل سوي، على الرغم من أن سلوكه لم يكن سلوك هذا النوع من الأطفال.

لقد كان هذا الطفل سوياً إلى حد محدود، وهو أنه كانت له خطة واضحة للحياة، وكان ما أتاه في وسط الحجرة متفقاً مع هذه الخطة كل الاتفاق. وقد كان من الممكن أن نتنبأ بهذه النتيجة لو أننا عرفنا هذه الخطة من قبل. وفي وسعنا أن نستنتج أنه لم يكن طفلاً ضعيف العقل، لأن الطفل الضعيف العقل لا تكون له خطة واضحة في الحياة.

وكان إذا زار أمه زائرون وأرادت الجلوس معهم دفع الزائرين عن المقاعد لأنه كان يرغب على الدوام أن يجلس على المقعد الذي يريد هذا الزائر أو ذاك أن يجلس عليه، وهو عمل لا يصعب علينا أن نرى كيف يتفق مع هدفه ومثاله الأول. ذلك أن هدفه هو أن تكون له الأولية، وأن تكون له السيطرة على غيره، وأن يكون دائماً موضع انتباه أمه وأبيه.

وفي وسعنا أن نحكم أنه كان طفلاً مدللاً، وأنه إذا دلِّل من جديد كفّ عن العراك، أي أنه من الأطفال الذين فقدوا مركزهم الممتاز.

فكيف فَقَدَ الطفل هذا المركز الممتاز؟ الجواب أنه لا بد أن يكون قد وُلد له أخ أو أخت أصغر منه فوُضع في مركزه الجديد وهو في الخامسة من عمره، وأخذ يشعر أنه أُنزِل عن عرشه، وأن عليه أن يكافح لكي يحتفظ بمركزه الهام الذي يعتقد أنه قد أضاعه. لهذا تراه حريصاً جد الحرص على أن يكون أبواه مشغولين به على الدوام. وثمة سبب آخر هو أنه لم يهيَّأ للمركز الجديد، وأنه وهو طفل مدلل لم يحصل على الشعور الجماعي الواجب، أي أنه لم يوفق بين نفسه وبين المجتمع، فهو لا يهتم إلا بنفسه ولا تشغله إلا مصلحته الخاصة.

وسئلت أمه عن سلوكه إزاء أخيه الصغير فأصرت على القول إنه يحبه، ولكنه لا ينفك يسقطه على الأرض كلما لعب معه. وإذن فلنا العذر كل العذر إذا نحن ظننا أن عملاً كهذا لا يدل على حب بيِّن.

وإذا أردنا أن ندرك معنى هذا السلوك على حقيقته وجب أن نوازن بينه وبين ما يعرض لنا كل يوم من حالات الأطفال المحبين للعراك ولكنهم لا يتقاتلون على الدوام. لقد أوتي الأطفال من الذكاء ما يمنعهم من العراك باستمرار، لأنهم يعلمون أن والديهم لا بد واضعون حداً لعراكهم. ومن أجل ذلك تراهم يكفون من وقت لآخر عن ذلك العراك ويسلكون سلوكاً حسناً، إلا أن نزعتهم القديمة تعود إلى الظهور كما تعود في حال الولد حين يُسقط أخاه الأصغر على الأرض في أثناء لعبه معه. ولم يكن هدفه الذي يرمي إليه من اللعب مع هذا الأخ الأصغر إلا أن يسقطه على الأرض. وماذا كان سلوك هذا الولد مع أمه؟ إن في وسعنا أن نجمله فيما يلي: إذا هي حاولت أن تضربه فإما أن يضحك ويصر على أن ضربها إياه لم يؤثر فيه البتة، وإما أن يخلد مؤقتاً إلى السكون إن هي قست عليه بعض الشيء في ضربه ثم يعود إلى القتال بعد برهة. وإذن فسلوك هذا الطفل من أوله إلى آخره يحدده هدفه في الحياة، فكل ما يأتيه من الأعمال موجه مباشرة نحو هذا الهدف إلى درجة نستطيع معها أن نتكهن بأعماله. ولكننا إذا لم ننظر إلى مثاله الأول على أنه وحدة كاملة، وإذا نحن لم نعرف الهدف المقصود من حركات مثاله الأول، فإننا لا نستطيع أن نتنبأ بهذه الأعمال.

ثم تصور هذا الطفل في مستهل حياته العملية وقد ذهب إلى روضة الأطفال مثلاً. إن في وسعنا أن نتكهن بما سيكون عليه، كما أن في وسعنا أن نتكهن بما يفعله إذا ذهب إلى حفلة غناء كالحفلة التي ذكرنا من قبل أنه ذهب إليها بالفعل، فنقول بالإجمال إنه سيحاول دائماً أن يتحكم في البيئة الضعيفة، وإذا وجد في بيئة قوية اتخذ العراك سبيلاً إلى هذا التحكم. وقياساً على ذلك نقول إن بقاءه في الروضة لن يطول إذا كانت المعلمة حازمة شديدة، ففي هذه الحالة يحاول الطفل دائماً أن يجد لنفسه مهرباً، ويجد نفسه في توتر عصبي مستمر قد ينشأ عنه الصداع والقلق وغيرهما من المتاعب، وهي أعراض قد تدل على بداية إصابته بالأمراض النفسية.

أما إذا كانت البيئة التي انتقل إليها الطفل سهلة مرضية، فقد يشعر فيها بأنه مطمح الأنظار، وقد يؤدي به ذلك إلى أن يصبح زعيم المدرسة أو بطلها.

والروضة كما رأينا عبارة عن منشأة اجتماعية لها مشاكلها الاجتماعية الخاصة، ولا بد من إعداد الطفل لهذه المشاكل، لأن عليه فيها أن يخضع لقوانين الجماعة، وأن يعد نفسه لأن يكون نافعاً لهذه الجماعة الصغيرة، وهو لن يكون كذلك إلا إذا كان اهتمامه بغيره أكثر من اهتمامه بنفسه.

ولا يختلف الموقف في المدارس العامة عن هذا الموقف السابق بحال، وفي وسعنا أن نتصور ما يصيب أي طفل من هذا النوع إذا التحق بواحدة منها. قد تكون الأمور أكثر سهولة في المدارس الخاصة بسبب قلة عدد التلاميذ الذين يتعلمون بها وسهولة العناية بهم تبعاً لذلك، ومن المحتمل ألا يستطيع أحد في هذه البيئة أن يلاحظ أنه طفل مُعْضِل، بل ومن المحتمل أن يقولوا عنه «إنه أنبغ الأولاد وإنه هو خيرهم طراً»، وإذا أصبح هذا الولد أول فرقته، فلربما يتغير سلوكه في البيت بسبب اقتناعه بأنه متفوق في ناحية من النواحي.

ونستطيع، إذا لاحظنا تحسيناً في سلوك طفل بعد التحاقه بالمدرسة، أن تجزم بأن الطفل قد وجد فصله موضعاً ملائماً له، وأنه يحس أنه متفوق فيه؛ ولكن الذي يحدث عادة هو عكس هذا، فالطفل الكثير الطاعة والمدلل في بيته كثيراً ما يفسد أطفال الفصل الذي يلحق به في المدرسة.

لقد قلنا في الفصل السابق إن مركز المدرسة وسط بين البيت والحياة في المجتمع. فإذا طبقنا هذه القاعدة استطعنا أن ندرك ما يصيب طفلاً من هذا الطراز السابق عندما ينخرط في سلك الحياة العامة. إنه لن يحصل في الحياة على المركز الملائم له الذي كان يجده في المدرسة أحياناً، وكثيراً ما تستولي الدهشة على الناس ويعجزون عن إدراك السبب في أن الأطفال الذين عرفوا بالنبوغ في البيت وفي المدرسة يصبحون عديمي القيمة إذا ما انخرطوا في سلك الحياة الاجتماعية. أولئك أقوام معضلون مصابون بأمراض نفسية قد تنقلب في آخر الأمر إلى جنون، ولكن أحداً لا يدرك حقيقة هذه الحالات لأن المثال الأول للواحد من هؤلاء الأطفال قد غطت عليه المواقف الملائمة حتى كمل نموه.

لهذا السبب كان لزاماً علينا أن نعرف كيف نتعرف المثال الأول الفاسد في المواقف الملائمة نفسها، أو أن نعرف على الأقل أن هناك مثالاً أول فاسداً،

إن كان من الصعب أن نتبينه فعلاً في هذه المواقف. وهناك بعض الدلائل التي قد تؤخذ كآيات لا تقبل الشك على وجود مثال أول فاسد. من ذلك أن الطفل الذي يبغي أن يلفت النظر إليه، وهو في الوقت نفسه لا يعنى العناية الكافية بالمجتمع، يُرى في الغالب غير مهندم، لأنه بحالته هذه يشغل وقت الآخرين؛ وهو إلى ذلك لا يحب أن ينام، كما لا ينفك يعول ليلاً أو يبول في فراشه. وهو يبدو كالمهموم القَلِق، لأنه لاحظ أن الهم والقلق سلاح قد يستطيع به أن يُرغِم غيره على طاعته. كل هذه أدلة تبدو في المواقف الملائمة، فإذا فحصنا عنها فقد يكون في وسعنا أن نصل إلى حكم صحيح على صاحبها.

ولننظر إلى مِثْل هذا الطفل ذي المثال الأول الفاسد وقد تقدمت به السن حتى بلغ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، أي أصبح على أبواب النضوج. إن خلفه فترة كبيرة من الحياة ليس من اليسير تقدير قيمتها بسبب عدم وضوحها وضوحاً كافياً، فليس من السهل أن نعرف هدفه أو أسلوبه في الحياة، إلا أنه وقد استعد لمواجهة الحياة مضطر لمقابلة ما أسميناه من قبل المسائل الثلاث الكبرى، وهي المسألة الاجتماعية ومسألة العمل، ومسألة الحب والزواج، وكلها مسائل تنشأ من علاقاتنا التي يتطلبها صميم وجودنا. فالمسألة الاجتماعية تنطوي على سلوكنا نحو الناس وعلى موقفنا من الجنس البشري ومستقبله، كما تنطوي أيضاً على حفظ الإنسان ونجاته من المهالك. ذلك لأن الحياة الإنسانية ضيقة المجال ثقيلة العبء لا يمكن النهوض بها إلا إذا تعاونا جميعاً على ذلك النهوض.

أما العمل فمن السهل التنبؤ بما سيصادفه فيه بالنظر إلى نوع سلوكه في المدرسة. فإذا كان همه في البحث عن عملٍ ما هو التفوق، فمن المؤكد أنه سيجد صعوبة في الحصول على هذا العمل. ذلك أن من العسير أن يجد الإنسان عملاً دون أن يكون فيه مرؤوساً لآخر أو عاملاً مع آخرين مثله. وبما أن صاحبنا لا يهتم إلا بمصلحته الشخصية فإنه لن يفلح في أي عمل يكون فيه مرؤوساً. وفضلاً عن ذلك فإن شخصاً هذه صفاته لن يكون ممن يعتمد عليهم في الأعمال التجارية والصناعية لأنه لا يستطيع أن يُخْضِع مصالحه الخاصة لمصالح البيت التجاري الذي يعمل فيه.

وفي الجملة لنا أن نقرر أن نجاح أي شخص في عمله موقوف على درجة توافقه الاجتماعي. ومن المزايا التي لا يستهان بها في الأعمال التجارية أن تستطيع إدراك حاجة جيرانك وعملائك، وأن تنظر بعيونهم، وأن تسمع بآذانهم، وأن تحس بما يحسون به. فإن كنت من هذا الطراز فأنت خليق بالنجاح المتصل، أما صاحبنا الطالب الذي أشرنا إليه فلن يستطيع إلى ذلك سبيلاً، لأنه معني بمصالحه دون سواها. فهو لا يستطيع أن يحرز من الوسائل اللازمة للنجاح إلا بعضها، ولذلك فإنه في الغالب سوف يفشل في عمله.

ونجد في أغلب الأحوال أن كل من على شاكلة هذا الشاب يقصرون في اتخاذ العدة للانخراط في أي عمل، أو هم على الأقل يتأخر بهم الزمن في الحصول على عمل لهم. وقد يبلغ الواحد منهم الثلاثين من العمر وهو لا يعرف مع ذلك ما يعتزم انتهاجه في حياته المقبلة. وكثيراً ما يغير الواحد منهم اتجاهه في سلك التعليم إلى اتجاه آخر، أو ينتقل في الحياة العملية من عمل إلى عمل، وهي آية على أن الواحد منهم لا يصلح لشيء البتة.

وقد ترى شاباً في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره دائم النشاط والكفاح ولكنه لا يدري ما يفعل. ومن أهم الأشياء أن نَفْهم مثل هذا الشخص ونرشده إلى اختيار العمل اللائق به، فمثله جدير بأن يجد من أول الأمر ما يهتم به، وأن يتمرن عليه بعد ذلك مراناً موفقاً.

لكن من المزعج حقاً أن نجد شاباً في مثل هذه السن يجهل ما يريد أن يعمل في حياته المقبلة. هذا الشاب نموذج صادق للشخص الذي لا ينتج إلا قليلاً. ولعلاج هذه الحالة ينبغي أن تبذل الجهود -سواء في المدرسة أو في المنزل- للفت أذهان التلاميذ وتشويقهم إلى أعمالهم المقبلة قبل أن يصلوا إلى هذه السن. ويمكن الوصول إلى ذلك الغرض في المدرسة بأن يطلب إلى التلاميذ الكتابة في مثل موضوع «ما أريد أن أكون في المستقبل»، وإذا طُلِب إليهم ذلك وجدوا أمامهم هذه المشكلة التي تتطلب الحل؛ أما إذا لم توضع أمامهم على نحو ما فسيظلون بعيدين عن مواجهتها إلى أن تفلت الفرصة من أيديهم.

بعد ذلك يعرض الشاب لآخر مسألة: مسألة الحب والزواج، وهي مسألة جد خطيرة ما دام في الناس ذكور وإناث، ولو كان الناس كلهم ذكوراً أو كانوا كلهم إناثاً لكان الأمر على خلاف ذلك تماماً. أما والحال كما هي فعلينا أن ندرب أنفسنا على السلوك القويم نحو الجنس الآخر. أما موضوع الحب والزواج نفسه فسنعرض له تفصيلاً في فصل مقبل، وسنقصر بحثنا الآن على علاقة الموضوع بمسائل التوافق الاجتماعي. إن فقدان الميل الاجتماعي الذي ينشأ عنه عدم التوافق، سواء في المجتمع أو في العمل، هو أيضاً منشأ العجز المنتشر بيننا في معاملة الجنس الآخر المعاملة الواجبة. فالمرء الذي لا يعنى إلا بنفسه محروم أبداً من الاستعداد اللازم لأن يكون ثاني اثنين يضمهما منزل واحد. صحيح أن أحد الأغراض الهامة للغريزة الجنسية هو إخراج الفرد من حيز قيوده الضيقة وإعداده للحياة الاجتماعية، إلا أنه يجب من الوجهة النفسية مقابلة الغريزة الجنسية في منتصف الطريق، ذلك لأنها لا تستطيع أن تقوم بوظيفتها كما ينبغي إلا إذا كنا من قبل على استعداد لأن ننسى ذاتنا، وأن ندمجها في حياة أخرى مشتركة أوسع من حياتنا الفردية نفسها.

وفي وسعنا الآن أن نستخلص بعض النتائج المتعلقة بذلك التلميذ الذي كنا بصدد درس شخصيته. لقد رأيناه يقف أمام مسائل الحياة الثلاث بائساً يخشى الهزيمة. رأيناه وقد فصله هدف التفوق الشخصي عن مسائل الحياة كلها، فما الذي بقي له بعد ذلك؟ إنه لن يغشى المجتمعات، وتراه في خصومة دائمة مع كل الناس، سيئ الظن بهم إلى حد بعيد، وتراه في علة عن العالم، وهو إلى ذلك لا يأبه بالحالة التي يظهر بها أمام الناس ما دام لا يعنيه أمرهم. وتراه في أغلب الأحوال قذراً في أسمال بالية تبدو عليه مظاهر الجنون كلها. وحتى اللغة، وهي كما نعلم ضرورة اجتماعية، يأبى صاحبنا أن يستعملها. فهو لا يتكلم أبداً، وتلك حالة تشاهَد في المصابين بِالعَتَه المبكر.

وهو بسبب الحصار الذي فرضه على نفسه، والذي نأى به عن مسائل الحياة جميعاً، إنما يمهد الطريق المباشر للانخراط ضمن نزلاء مستشفى الأمراض العقلية. فهدفه في التفوق يجعله بمعزل تام عن الناس، ويحول فيه

ميوله الجنسية فلا يعود بعدها شخصاً سوياً. فقد تراه يحاول أن يطير إلى السماء أحياناً، أو يظن في نفسه أنه اليسوع عيسى أو إمبراطور الصين، وهو في هذه الأحوال جميعاً إنما يعبر عن هدف التفوق الكامن فيه.

إن مسائل الحياة جميعها، كما قلنا غير مرة، مسائل اجتماعية في حقيقة أمرها؛ وهي بهذا الوصف تبدو في رياض الأطفال، وفي المدارس العامة، وفي صحبة الإخوان، وفي السياسة، وفي الحياة الاقتصادية وما إلى ذلك. ومن الجلي أن قوانا ومواهبنا إنما وجدت لتُركَّز في النواحي الاجتماعية وتُوجَّه لخير بني الإنسان.

ونحن نعلم أن افتقار شخص ما إلى التوافق الاجتماعي يبدأ في المثال الأول لهذا الشخص. والمسألة الآن كيف نقوِّم هذا النقص قبل فوات الوقت؟ فإذا استطعنا أن نهيب بالآباء ألا يقتصروا في تقويم أبنائهم على منع وقوع الأخطاء الكبرى، وأن يشخصوا الداء الجاثم في التعبيرات الصغيرة عن أخطاء المثال الأول، وأن يقوِّموها بعد أن يتبيَّنوها، كان ذلك خيراً كبيراً لأبنائهم. ولكن الحقيقة أن عملاً كهذا ليس من السهل أداؤه. ذلك لأننا قلّ أن نجد من الآباء من يميلون إلى كشف الأخطاء وتجنب الوقوع فيها، لأنهم لا يهتمون بمسائل علم النفس والتعليم؛ فهم إما مدلِّل لابنه معادٍ لكل من لا ينظر إلى ذلك الابن كما ينظر إلى الجوهرة النفيسة، وإما غير مهتم به تارك حبله على غاربه؛ وهؤلاء الآباء لا يرجى صلاح أبنائهم على أيديهم. يضاف إلى هذا أن من المستحيل تفهيم الآباء هذه المسائل في وقت قصير، فأنت تحتاج إلى وقت طويل جداً إذا شئت أن ترشد الآباء إلى ما ينبغي لهم معرفته، ومن ثم كان من الخير الاسترشاد بخبرة طبيب أو عالِمٍ نفساني.

وفي وسعنا أن نحصل على خير النتائج، بعد عمل الطبيب والعالِمِ النفساني، بالالتجاء إلى المدرسة والتعليم دون غيرهما، ذلك لأن أخطاء المثال الأول لا تظهر غالباً إلا عند التحاق الطفل بالمدرسة. فهناك تستطيع المعلمة الحاذقة في مسائل علم النفس الفردي أن تتبين المثال الأول الخاطئ في زمن قصير. فهي تستطيع أن ترى هل يتصل الطفل بأقرانه، أو أنه باندفاعه في مقدمتهم يبغي أن

يكون في موضع الانتباه من غيره. وتستطيع أيضاً أن تعرف أي الأطفال يتحلى بالشجاعة وأيهم محروم منها. وهكذا يستطيع المعلم المدرب -أو المعلمة المدربة- أن يدرك في أول أسبوع من أسابيع الدراسة أخطاء المثال الأول.

وليس من شك في أن المعلمين بطبيعة وظيفتهم الاجتماعية مزودون خير تزويد بالوسائل التي تمكنهم من أن يقوِّموا اعوجاج الأطفال. فما أنشئت المدارس أول ما أُنشئت إلا لأن البشرية قد أدركت أن الأسرة عاجزة عن تربية النشء التربية الصحيحة التي تتسق والمطالب الاجتماعية للحياة. فالمدرسة في حقيقة الأمر أطول من الأسرة باعاً، وبين جدرانها يتكون الجزء الأكبر من خلق الطفل، وفيها يتعلم كيف يواجه مشاكل الحياة.

وكل ما يتطلبه هذا هو أن يكون المعلمون في المدارس ذوي خبرة بعلم النفس، وهذه الخبرة هي التي تعينهم على أداء واجبهم على الوجه الأكمل. ومن المحقق أن مدارس المستقبل ستنشأ على أساس علم النفس الفردي، لأن الغرض الحقيقي من وجود المدرسة هو تكوين الأخلاق.

الفصل العاشر

الوعي الاجتماعي
والإدراك الفطري العام وعقدة النقص

رأينا أن عدم التوافق الاجتماعي على اختلاف أنواعه إنما ينشأ من العواقب الاجتماعية التي يؤدي إليها الإحساس بالنقص والعمل للتفوق، وتستخدم عبارتا عقدة النقص وعقدة التفوق للتعبير عن النتيجة التي وجدت بعد أن حدث عدم التوافق هذا. وليست هاتان العقدتان من أصل الطبيعة البشرية، وهما لا تجريان في دم الإنسان، ولكنهما تتكونان في خلال التفاعل الذي يحدث بين الفرد وبيئته الاجتماعية. ولكن ما السبب في أنهما لا تصيبان كل إنسان، ونحن نعلم أن كل إنسان يحس بالنقص ويسعى للنجاح والتفوق، وأن هذا هو الذي تتكون منه حياته الروحية؟ أما السبب في أن هاتين العقدتين لا توجدان في كل إنسان فهو أن الإحساس بالنقص وبالتفوق تسيطر عليه قوى نفسية توجهه وجهة صالحة نافعة من الناحية الاجتماعية. وتبعث هذه القوى في الفرد الاهتمام الاجتماعي والشجاعة العقلية الاجتماعية أو منطق الإدراك الفطري العام.

ولندرس الآن كيف تعمل هذه القوى وكيف تقف عن العمل. فما دام الشعور بالنقص محصوراً في حدود ضيقة معقولة فإن الطفل يحاول على الدوام أن يكون ذا شأن، وأن يكون عمله في الناحية النافعة من الحياة. فترى هذا الطفل يهتم بغيره من الأطفال ليصل بهذا الاهتمام إلى ما يسعى له من

الأغراض. والنتيجة الصحيحة المألوفة لهذا الاهتمام هي وجود الوعي الاجتماعي والتوافق الاجتماعي اللذان يبعثهما هذا الاهتمام في نفس هذا الطفل. ويكاد يكون من المستحيل أن نجد كائناً من كان، طفلاً أو يافعاً، لا يؤدي سعيه للتفوق إلى وجود هذه النتيجة فيه. فمن المستحيل مثلاً أن نجد شخصاً يستطيع أن يقول بحق «أنا لا يهمني أحد». صحيح أنه قد يسلك هذا المسلك، أي أن سلوكه قد يكون سلوك من لا يهمهم شيء في هذه الدنيا، ولكنه لا يستطيع بحال أن يباهي بهذا السلوك. بل إنك لتراه يدعي أنه يهتم بغيره ليخفي بهذا الادعاء ما يعوزه من التوافق الاجتماعي، وتلك شهادة صامتة على أن الوعي الاجتماعي عام موجود في الناس أجمعين.

على أن هذا كله لا يمنع وجود عدم التوافق الاجتماعي. وفي استطاعتنا أن ندرس نشأته بدراسة بعض الأمثلة التي لا يظهر فيها ظهوراً واضحاً، وهي التي تنطوي فعلاً على عقدة النقص وإن لم تكن واضحة كل الوضوح لوجود صاحبها في بيئة ملائمة له. وفي هذه الحالة تكون العقدة مستترة، أو يكون هناك على الأقل ميل ظاهر لإخفائها. وترى الشخص راضياً بحاله كل الرضا ما دامت الصعاب لا تعترضه، ولكن لو أننا دققنا النظر لرأينا كيف يعبر فعلاً عن شعوره بالنقص إن لم يكن في أقواله أو آرائه ففي اتجاهاته العقلية. هذه هي عقدة النقص وهي نتيجة شعور بالنقص مستفيض، وترى الذين يصابون بهذه العقدة ينشدون راحتهم من الأعباء التي فرضوها على أنفسهم فرضاً بسبب تركيز أفكارهم على أنفسهم.

ومن الممتع حقاً أن نلاحظ أن من هؤلاء المصابين من يخفي عقدة نقصه، وأن منهم من يعترف بها ويجهر بقوله: «إني مصاب بعقدة النقص». والذين يعترفون بعقدة نقصهم يتيهون عجباً باعترافهم، ويشعرون بأنهم أعظم من غيرهم لأنهم يجهرون بما لا يجهر غيرهم به. ونرى الواحد منهم يحدِّث نفسه قائلاً «إني رجل صريح لا أعمد إلى الكذب في الإعراب عن سبب آلامي»، ولكنه في الوقت الذي يعترف فيه بعقدة نقصه يشير من طرف خفي إلى بعض الصعاب التي اعترضته في حياته، أو إلى بعض الظروف الأخرى التي

ترجع إليها حاله هذه. فقد يحدثك عن أبويه أو أقاربه أو أسرته، فيقول إنهم لم ينالوا قسطاً كبيراً من التعليم، وقد يشير إلى حادث من الحوادث أو عائق أو قمع أو ما أشبه ذلك من الأعذار.

وكثيراً ما تكون عقدة النقص مختفية وراء عقدة التفوق فتُعوَّض هذه بتلك. وفي هذه الحالة يكون صاحبهما متكبراً، وقحاً، مغروراً، متعالياً، يهتم بالمظاهر أكثر من اهتمامه بالأعمال. وقد ترى في المحاولات الأولى التي يبذلها رجل من هذا الطراز أن نوعاً من الفزع الوهمي قد أصابه فاتخذه ذريعة لفشله، فهو يقول «لا أدري ماذا كنت أعجز عن عمله لو لم أصب بالفزع الوهمي؟» وهذه العبارات التي تبدأ بلفظ «لولا» تنطوي في الحقيقة على عقدة نقص.

وقد يدل على هذه العقدة ما يتصف به الشخص من مكر وحذر وحذلقة، وتجنب مسائل الحياة الكبرى، والبحث عن مجال ضيق من العمل تحدده مبادئ وقواعد متعددة. ومن الأدلة على وجود عقدة النقص أيضاً أن يتوكأ الشخص دائماً على عصا، وهذا التوكؤ دليل على أن هذا الشخص لا يثق بنفسه، وسنجده بعدئذ ينمي لنفسه هوايات غريبة، فيوجه اهتمامه إلى المسائل التافهة كجمع الصحف والإعلانات، وبهذه الوسيلة يضيع هو وأمثاله أوقاتهم، وينتحلون دائماً الأعذار التي تبرر سلوكهم، فهم متدربون على العمل في الناحية غير النافعة من الحياة. وإذا طال بهم الزمن في متابعة هذا التدريب أصابتهم الأمراض النفسية.

وعقدة النقص توجد عادة كامنة في الأطفال المعضلين مهما يكن لون المعضلة التي تبدو عليهم في ظاهر الأمر. فالكسل هو في الحقيقة استبعاد لمسائل الحياة، وهو دليل على وجود عقدة نقص في الشخص الكسول. والسرقة انتهاز فرصة انعدام الحراسة أو غياب شخص وهي بهذا المعنى أيضاً عقدة نقص. والكذب فقدان الشجاعة الدافعة إلى قول الحقيقة. وتلك كلها مظاهر لعقدة النقص.

والأمراض النفسية لون متقدم من ألوان عقدة النقص، وأي شيء يعجز عن أدائه شخص مصاب بالقلق الناشئ من المرض النفسي؟ ربما رأيت هذا

الشخص يسعى دائماً للحصول على شخص يرافقه، فإذا كان هذا شأنه فإنه ينال غرضه إذ يحصل على معاونة غيره له وحمله على الاشتغال بما هو مشغول به. وهنا نرى كيف يكون الانتقال من عقدة النقص إلى عقدة التفوق. فهو يعتقد أن غيره من الناس يجب أن يخدموه، فإذا تحققت له هذه الرغبة أصبح متفوقاً، وذلك تطور كثيراً ما يشاهد في حالات الجنون. فالمجانين بعد أن صادفتهم الصعاب بسبب سياسة العزلة التي ولدتها فيهم عقدة النقص، ينالون النجاح بطريقة خيالية، وذلك بأن يعدوا أنفسهم كأنهم من عظماء الرجال.

ففي كل هذه الحالات التي تتكون فيها عقدتا النقص والتفوق يكون فشل الشخص في توجيه قواه وجهات اجتماعية صالحة ناشئاً من افتقاره إلى الشجاعة. وافتقاره هذا هو الذي يصده عن اتباع الطريق الاجتماعي. ويقترن بنقص الشجاعة عجز الفرد من الناحية العقلية عن إدراك ضرورة اتباع المنهج الاجتماعي والفائدة التي تعود من اتباع هذا المنهج.

ويتضح هذا كل الوضوح في سلوك المجرمين، وهم في الحقيقة حالات من المصابين بعقدة النقص في أشد صورها. فالمجرمون جبناء أغبياء، وهذا الجبن وهذا الغباء الاجتماعي يسيران جنباً إلى جنب ويفصحان معاً عن اتجاه واحد.

وإدمان المسكرات يمكن أيضاً تحليله بنفس الطريقة. فالسكير ينشد الراحة من مشاكله، وهو من الجبن بحيث يقنع بهذه الراحة التي تأتيه من جانب الحياة غير النافع.

ويختلف تفكير هؤلاء الناس، كما تختلف نظرتهم العقلية إلى الأشياء، اختلافاً كلياً عن الإدراك الفطري الاجتماعي الذي يصاحب مواقف الأشخاص السويين حيث تظهر الشجاعة واضحة. فالمجرمون مثلاً ينتحلون المعاذير لأنفسهم أو يتهمون غيرهم على الدوام. وهم لا يفتأون يذكرون الأحوال التي تجعل العمل عقيماً غير مثمر، وهم يحدثونك عن قسوة المجتمع الذي لم يمد إليهم يد المعونة، أو يبررون سلوكهم بقولهم: «إن المعدة تأمر ولا تأتمر». فإذا

حكم على الواحد منهم وجد دائماً عذراً كعذر السفاح هكمان Hickman قاتل الأطفال، وهو الذي قال: «إني فعلت ذلك تنفيذاً لأمر سماوي»، أو كعذر القاتل الآخر الذي قال: «وما الفائدة التي تعود من حياة غلام كالذي قتلته؟ ألا يوجد ألف ألف طفل غيره؟»، أو الفيلسوف الذي يدعي أنه ليس من الخطأ في شيء قتل امرأة عجوز تملك مالاً وفيراً مع وجود الكثيرين الذين يتضورون جوعاً.

ذلك منطق ظاهر الضعف وهو في الواقع جد ضعيف، لأن نظرة أصحابه كلها إلى الحياة قد حددها هدفهم غير النافع من الوجهة الاجتماعية، كما أن اختيارهم هذا الهدف قد حدده نقص شجاعتهم. وهم في حاجة دائمة إلى تبرير أعمالهم، في حين أن هدفاً في الجانب النافع من الحياة لا يحتاج إلى تزكية أو انتحال المعاذير.

والآن نعرض لطائفة من الحالات المَرَضية الواقعية نتبين منها كيف تتحول الاتجاهات والأهداف الاجتماعية إلى أخرى معادية للمجتمع. فأولى هذه الحالات قصة فتاة في نحو الرابعة عشرة من عمرها ومن أسرة طيبة. وكان أبوها مجدّاً في عمله، ظل يكدح ليعول أسرته حتى أقعده المرض عن الكسب. وكانت أمها أيضاً طيبة مشغوفة بأولادها الستة، وكان أكبرهم سناً فتاة ذكية توفيت في الثانية عشرة من عمرها، وكانت تليها في العمر فتاة أخرى عليلة، فلما عوفيت التحقت بعمل استطاعت به أن تعين أسرتها على العيش، ثم تلا هذه الفتاة فتاة أخرى هي موضوع قصتنا. كانت فتاتنا هذه موفورة الصحة على الدوام، وكانت أمها توجه معظم عنايتها إلى الفتاتين المريضتين وإلى شؤون زوجها، فلم تجد متسعاً من الوقت للعناية بها؛ وسنطلق على هذه الفتاة الأخيرة اسم آن Anne. وكان لها أخ أصغر منها سناً وكان لا يقل عنها تفوقاً إلا أنه كان مريضاً كذلك، وكانت النتيجة أن وجدت آن نفسها بين طفلين محبوبين أشد حب. وكانت فتاة طيبة، إلا أنها كانت تحس بأنها غير محبوبة كأختها وأخيها، فكانت تشكو من الاستهتار بشأنها ومن شعورها بالقمع.

أما في المدرسة فكانت آن، على الرغم من ذلك، متفوقة بارزة، فكانت خير أطفال فرقتها، ولذلك أوصت معلمتها بوجوب إتمامها مراحل التعليم، فأُدخِلت الفتاة بناءً على هذه التوصية إحدى المدارس العليا ولما تتجاوز الثالثة عشرة والنصف من عمرها. وهنا ألفت معلمة أخرى لم ترتح لها ارتياح معلمتها السابقة. ولربما كانت هذه الفتاة في أول عهدها بهذه المدرسة تلميذة غير مجدّة، إلا أن عدم تقديرها قد زاد حالتها سوءاً، فهي لم تكن تلميذة معضلة طالما كانت معلمتها الأولى تقدِّر جهودها حق قدرها. وكانت التقارير التي تُرسَل إلى أبويها تثني عليها، وكانت محبوبة من كافة أقرانها. ولو أن أحد رجال علم النفس الفردي أتيح له أن يبحث علاقته بصديقاتها لتبين له أن ثمة خطأ في هذه العلاقة، فقد كانت تنتقدهن على الدوام وكانت تبغي السيطرة عليهن، وكانت تحاول أن تكون موضع نظرهن جميعاً، وأن يتملقنها جميعاً، ولا تنتقدها واحدة منهن.

لقد كان هدف آن أن تُقدَّر دائماً، وأن تكون محبوبة دائماً، وأن تكون موضع حديث الناس دائماً. وقد استطاعت أن تصل إلى كل ذلك في المدرسة لا في المنزل، فلما ذهبت إلى المدرسة الجديدة رأت أنها قد حُرِمت هذا التقدير. فقد كانت المعلمة تؤنبها، وتصر على أنها لم تكن مستعدة لتلقي علوم المدرسة العليا، وأرسلت عنها سيئ التقارير، فأخذت في آخر الأمر تنقطع عن الدرس أياماً عدة. فلما عادت إلى المدرسة ألفت الأمور أسوأ حالاً مما كانت، واضطرت المعلمة في آخر الأمر أن تطلب إخراجها من المدرسة.

لكن الطرد من المدرسة لا يفيد شيئاً، بل هو اعتراف من المدرسة والمعلمة بعجزهما عن حل المشكلة، وكان أحرى بهما إذا كانتا قد عجزتا عن حلها أن تستعينا بمن قد يستطيع أن يعمل شيئاً في هذه السبيل. فقد كان من المستطاع مثلاً، وبعد الاتفاق مع والديها، نقلها إلى مدرسة أخرى قد يكون فيها معلم آخر أو معلمة أخرى يستطيعان أن يفهما آن فهماً صحيحاً. إلا أن ذلك لم يحصل، وقد جرى تفكير المعلمة غير هذا المجرى، فقالت في نفسها «إن الطفلة التي تهرب من المدرسة وتكون في مؤخرة الفصل جديرة بالطرد»؛ وهو تفكير

يدل على عقلية فردية خاصة بعيدة عن الإدراك الفطري العام الذي يجب أن يتصف به كل معلم ومعلمة.

ونستطيع أن نحزر ما حصل بعد ذلك، فقد أسقط في يد الفتاة وشعرت أن آخر فرصة لها في الحياة قد أفلتت من يدها، وأن كل أمل لها قد ضاع، وفقدت بسبب طردها من المدرسة ما كانت تلقاه في المنزل من تقدير قليل. وهكذا هربت من المدرسة والمنزل على السواء، واختفت عنهما بضعة أيام وبضع ليالٍ، تبين بعدها أنها أحبت أحد الجنود.

ومن السهل أن ندرك سبب سلوكها هذا. لقد كان هدفها أن تُقدَّر، وكانت إلى ما قبل عملها الأخير قد دُرِّبت تدريباً يوجهها نحو الجانب النافع من الحياة، أما بعده فقد بدأ تدريبها يتجه إلى الجانب غير النافع منها. وقد أظهر ذلك الجندي في أول الأمر تقديراً لها وشغفاً بها. وبعد قليل أرسلت إلى أهلها تنبئهم أنها حامل وأنها ستعمد إلى السم فتقتل به نفسها.

وكان التجاؤها إلى الكتابة لذويها يتفق تماماً وأخلاقها. فقد كانت دائمة التلفت صوب الناحية التي تتوقع أن تجد فيها تقديراً ما، وكان لا بد أن تظل على هذه الحالة إلى أن تعود إلى منزل ذويها. فهي تعلم أن أمها في حالة يأس شديد وأنها لن تزجرها، وتشعر أن أسرتها ستطير فرحاً حين تراها ثانيةً بين ظهرانيهم.

وأهم ما يجب عمله لمعالجة أمثال هذه الحالة هو أن يضع المعالج نفسه في مكان المريض. فها هو ذا شخص يبغي أن يكون موضع التقدير، وهو مندفع كل الاندفاع نحو هذا الهدف؛ فإذا وضع الواحد منا نفسه مكان ذلك الشخص فهو لا بد سائل نفسه ما يلي: «ماذا ينبغي أن أصنع؟». إن مسألتي الجنس والسن يجب أن لا نغفلهما، فمثل هذه الفتاة ينبغي أن تشجَّع وأن تشجع صوب الناحية النافعة، ويجب أن نجتهد في توصيلها إلى النقطة التي يجب عندها أن تقول لنفسها «لعل من الواجب عليَّ أن أترك هذه المدرسة، ولكني لست من التلميذات الكسالى، ولعلي لم أنل القسط الكافي من التدريب، أو لعلي أخطأت

في ملاحظاتي، أو لعلي أظهرت كثيراً من الذكاء الخاص في المدرسة دون أن أفهم المعلم». فإن كان في الاستطاعة بث الشجاعة في مثل هذه الفتاة فإنها ستوجه في الناحية النافعة. ذلك أن الافتقار إلى الشجاعة مقروناً بعقدة النقص كفيلان بهدم أي إنسان. والآن فلنضع شخصاً آخر محل الفتاة آن. إذا كان هذا الشخص غلاماً في مثل سِنِّها فقد يصبح هذا الشخص مجرماً، وتلك حالة تشاهد أمثالها بكثرة. فالغلام إذا فقد في المدرسة شجاعته قد يجرفه التيار فيتردى في زمرة الأشرار. وليس من الصعوبة في شيء فهم هذا السلوك، فإن فقد الأمل والشجاعة يحول الغلام إلى شخص كسول يزيف توقيع ولي أمره على رسائل اعتذاره، ويحجم عن أداء واجبه المنزلي، ويبحث عن الأماكن التي يقضي فيه الأوقات التي يهرب فيها من المدرسة. وفي هذه الأمكنة يجد له رفاقاً ممن سلكوا نفس السبيل من قبل، وهكذا يصبح عضواً في هذه الزمرة الفاسدة فيفقد كل اهتمام بالمدرسة، وينمو فيه على مر الأيام فهم للأشياء خاص به.

وكثيراً ما يصحب عقدة النقص اعتقاد صاحبها أن ليست له موهبة خاصة، فهو يظن أن الناس منهم الموهوب ومنهم المحروم، وهو اعتقاد يعبر في ذاته عن وجود عقدة النقص. ذلك أن من الأصول المقررة في علم النفس الفردي «أن في استطاعة أي إنسان أن يعمل أي عمل»، فإذا يئس أي فتى أو يئست أي فتاة من العمل بهذه الحكمة، وشعر الفتى أو الفتاة بالعجز عن تحقيق هدفهما في الناحية النافعة من الحياة، كان ذلك دليلاً على وجود عقد النقص بالفعل.

والاعتقاد في الخصائص الموروثة جزء من عقدة النقص. ولو كان هذا الاعتقاد صحيحاً، وكان النجاح في الحياة وقفاً على القدرة الموروثة دون سواها، لما كان في وسع رجل علم النفس أن يصنع شيئاً البتة. أما الحقيقة فهي أن النجاح رهن بالشجاعة، وواجب عالِم النفس أن يحول الشعور باليأس إلى شعور بالأمل يبعث في النفس القدرة على أداء العمل النافع.

وقد تشاهد أحياناً شاباً في السادسة عشرة من عمره وقد طرد من المدرسة فأقدم ليأسه على الانتحار. والانتحار في ذاته لون من ألوان الثأر، وهو اتهام موجَّه إلى المجتمع، وهو الطريق الذي يسلكه الشاب لإثبات وجوه، لا

عن طريق الإدراك الفطري العام، بل عن طريق الفهم الخاص. وكل ما يتطلبه إصلاح هذه الحال هو رد الفتى إلى الصواب وتشجيعه على أن يسلك الطريق النافع.

إن في استطاعتنا أن نضرب أمثلة كثيرة غير هذا المثل، ولكننا نكتفي بمثل آخر هو حالة بنت في الحادية عشرة من عمرها لم تظفر بحب أهلها. وكان كل إخوتها، على العكس من ذلك، مفضلين عنها، فشعرت أنها بين أسرتها من سقط المتاع. فأصارتها هذه الحال فتاة ضجوراً، مشاكسة عاصية، وهي حالة يمكن تحليلها بسهولة. لقد شعرت الفتاة أنها لم تكن مقدَّرة، وقد حاولت في أول الأمر أن تناضل ولكنها فقدت الأمل. وفي ذات يوم ابتدأت تسرق، والسرقة في نظر علم النفس الفردي حركة يقصد بها الطفل الإثراء أكثر منها جريمة، ومن المستحيل أن يفكر إنسان في الثراء إلا إذا شعر بالحرمان. وإذن فقد كان التجاء الفتاة إلى السرقة نتيجة حرمانها عطف ذويها وشعورها بفقدان الأمل. وإنا لنلاحظ على الدوام أن الطفل لا يشرع في السرقة إلا عندما يشعر بالحرمان، وهو شعور قد لا يكون صواباً إلا أنه على كل حال السبب النفساني لهذا السلوك.

وهناك حالة فتى غير شرعي في الثامنة عشرة من العمر، ذميم الخلقة، يعيش بين أبوين لا يعنيان العناية الكافية به، ولا يقوِّمانه إذا أخطأ. وكانت الأم في بعض الأحيان تعطيه بعض الحلوى فكان ذلك نعمة من النعم في حياة الفتى. وكان إذا عزت الحلوى عليه شعر بضيق واضطراب بالغين. وكانت للأم طفلة وحيدة وُلدت لها من زوج شيخ تزوجت به بعد زوجها الأول، وكانت مصدر سرور والدها وبهجته، فكان لا يفتأ يدللها ويرفهها إلى أبعد حد. أما الصبي فكان السبب الوحيد في استبقائه في المنزل هو تفادي الإنفاق عليه في خارجه. وكان الشيخ كلما عاد إلى داره أحضر بعض الحلوى لابنته وخصّها بها دون الصبي. وكانت النتيجة أن أخذ الصبي يسرق الحلوى، أخذ يسرق لأنه شعر بأنه محروم، ولأنه يبغي أن يعوض هذا الحرمان. وكان الشيخ يضربه عقاباً له على السرقة ولكنه لم يقلع عنها. ويجب ألا يعد إصرار الصبي

على السرقة، على الرغم من الأذى والضرب، شجاعة منه، فقد كان الصبي جباناً لأنه كان يؤمل دائماً ألا تراه العيون.

تلك حال طفل بغيض لم يعرف في حياته كيف يكون مواطناً صالحاً، وخير ما نصنع في هذه الحالة هو أن نريح الطفل بأن نتيح له الفرصة لأن يكون هذا المواطن الصالح. وهو إذا تعلم كيف يوحِّد نفسه مع غيره، ويحل نفسه مكان غيره، فإنه لا شك مدرك شعور الشيخ عندما يراه يسرق، وشعور الفتاة عندما تفتقد حلواها فلا تجدها. وهنا نرى مرة ثانية كيف أن الافتقار إلى الوعي الاجتماعي والافتقار إلى الفهم الصحيح، والافتقار إلى الشجاعة، تعمل مجتمعة على إيجاد عقدة النقص، وعقدة النقص في هذه الحالة الأخيرة هي عقدة النقص التي تصيب الطفل البغيض.

الفصل الحادي عشر

الحب والزواج

إن الإعداد الصحيح للحب والزواج هو أن يكون الإنسان أولاً وقبل كل شيء مواطناً صحيحاً، وأن يكون متصفاً بصفة التوافق الاجتماعي. وينبغي أن يضاف إلى هذا الإعداد العام تدريب الغريزة الجنسية بعض التدريب من أيام الطفولة حتى زمن البلوغ والنضوج. وينبغي أن يكون الغرض من هذا التدريب إشباع هذه الغريزة في المستقبل إشباعاً سوياً بالزواج وتكوين الأسرة. هذا ويمكن تبين القدرة على الحب والزواج أو العجز عنهما، وكذلك الميول الخاصة بهما، في المثال الأول الذي ينشأ في سني الحياة الأولى. فإذا نحن لاحظنا خصائص المثال الأول استطعنا أن نتبين الصعاب التي ستعترض الشخص في مستقبل أيامه.

ولا تختلف المشاكل التي تصادفنا في الحب الزواج عن المشاكل الاجتماعية العامة. فالمهام الملقاة على الإنسان والصعاب التي يواجهها في الحالتين واحدة، ومن الخطأ أن ينظر إلى الحب والزواج كأنهما جنة الخلد التي تجري فيها الأمور كلها وفق ما تشتهي الأنفس. ففي الحب والزواج على الدوام واجبات علينا أن نؤديها ونحن ناظرون في أدائها إلى مصالح شريكنا الثاني.

وليس من شك في أن الحب والزواج يحتاجان فضلاً عن المسائل التوافق الاجتماعي العادي إلى تعاطف فوق المعتاد أي إلى مقدرة غير عادية على أن يوحِّد الإنسان نفسه مع الطرف الثاني. وإذا نحن رأينا في عصرنا هذا أن الذين أعدوا أنفسهم إعداداً صالحاً للحياة العائلية قليلون جداً، فذلك لأنهم لم يتعلموا أن يروا بعيني الطرف الآخر، وأن يسمعوا بأذنيه، وأن يشعروا بقلبه.

لقد كان أكثر بحثنا في الفصول السابقة يدور حول طراز الطفل الذي يشب وديدنه شخصه لا يهتم بغير نفسه. وذلك طراز من الناس لا يمكن أن ينتظر منه أن يغير من أخلاقه بين يوم وليلة بمجرد نضوج الحاسة الجنسية الجسمية فيه. هذا شخص غير مستعد للزواج كما هو غير مستعد للحياة الاجتماعية.

إن الاهتمام الاجتماعي بطيء النمو، ولا يوجد الوعي الاجتماعي إلا في الأشخاص الذين دربوا منذ طفولتهم تدريباً حقيقياً على أن يهتموا بالأمور الاجتماعية، والذين يعملون على الدوام في الناحية النافعة من الحياة، ولهذا يصعب علينا أن نعرف هل هذا الشخص أو ذاك ميسر حقيقة للحياة الزوجية أو غير ميسر لها؟

وجدير بنا أن نذكر هنا ما ذكرناه من قبل خاصّاً بالجانب النافع من الحياة. إنك لترى الشخص الذي يعمل في هذا الجانب شجاعاً واثقاً بنفسه، يواجه مشاكل الحياة ويبذل جهده في حلها، له رفاق وأصدقاء، حسن الصلة بجيرانه. وكل شخص حرم هذه الخلال خليق ألا يوثق به، وجدير بأن يكون غير أهل للحب الزواج. أما إذا رأينا شخصاً يضطلع بعمل من الأعمال ويكون ناجحاً فيه، فإن في مقدورنا أن نحكم بأنه صالح للزواج في أغلب الأحيان. نعم إننا نبني هذا الحكم على أدلة صغيرة إلا أنها أدلة لها معناها، لأنها تبين هل لهذا الشخص اهتمام بالمجتمع أو ليس له اهتمام به؟

وإذا فهمنا الاهتمام بالمجتمع على حقيقته دلّنا هذا الفهم على أن مشاكل الحب والزواج لا يمكن حلّها حلاً صحيحاً إلا على أساس المساواة المطلقة. وهذا المبدأ الأساسي، مبدأ خذ وأعطِ، من الأهمية بمكان، أما أن يحترم أحد الشريكين شريكه الثاني أو لا يحترمه فليس أمراً ذا بال. والحب وحده لا يحل المشكلات لأن الحب متعدد الألوان، وهو لا يتجه الوجهة الصحيحة ويجعل الزواج موفقاً سعيداً إلا إذا قام على أساس ثابت من المساواة.

أما إذا أراد أحد الزوجين أن تكون له الغلبة بعد الزواج فأغلب الظن أن عاقبة هذا الزواج تكون وبالاً عليهما معاً، وليس التطلع إلى زواج من هذا النوع بالعدة الصالحة للحياة الزوجية، وخليق بالحوادث التي تليه أن تؤيد هذا

الرأي. فليس من المعقول أن يكون الإنسان بطلاً مغواراً في موطن ليس فيه مجال للبطولة، وإنما يحتاج الزواج إلى اهتمام الشخص بشريكه الآخر وإلى القدرة على أن يضع كل من الزوجين نفسه مكان الآخر.

ولننتقل الآن إلى الاستعداد الخاص الذي لا بد منه للزواج. فنقول إن ذلك الاستعداد ينطوي كما رأينا على تقوية الوعي الاجتماعي من حيث صلته بالجاذبية الجنسية. فمن الحقائق المعروفة أن كل إنسان يصور في ذهنه منذ الطفولة مثلاً أعلى لشخص من الجنس الآخر. فإذا كان ولداً فأغلب الظن أن الأم تكون هي هذا المثل الأعلى، فيأخذ الولد على الدوام في البحث عن فتاة من طراز أمه للزواج بها. وقد يحدث أحياناً نوع من التوتر المشؤوم بين الولد وأمه، وأكبر الظن أن الولد في هذه الحالة يبحث عن طراز للفتاة مناقض لطراز هذه الأم. فالصلة وثيقة إلى أبعد حد بين علاقة الولد بأمه من جهة وبين نوع المرأة التي يتزوجها فيما بعد من جهة أخرى. وفي وسعنا أن نتبين هذه الصلة حتى في الأمور الصغيرة كالعيون ولوجه ولون الشعر وما إلى ذلك.

ونعرف أيضاً أنه إذا كانت الأم قاسية على ابنها عاملة على قمع عواطفه فإن الابن لا يرغب في التقدم بشجاعة إذا حان وقت الحب والزواج. ذلك لأن مثله الجنسي الأعلى في هذه الحالة يغلب أن يكون بنتاً ضعيفة طيِّعة. فإذا كان الولد من الصنف المشاكس رأيته بعد الزواج في عراك مستمر مع زوجته راغباً في السيطرة عليها.

وهكذا نرى أن المظاهر التي تبدو في أيام الطفولة تزداد كلها وتشتد عندما يواجه المرء مشكلة الحب. ونستطيع أن نتصور كيف يسلك الشخص في المسائل الجنسية سلوك شخص مصاب بعقدة النقص، ولربما رأيت هذا الشخص يشعر على الدوام بضعفه ونقصه، ويعبر عن هذا الشعور برغبته في أن يساعده غيره. وكثيراً ما نرى لهذا النمط من الناس مثلاً أعلى للزوجة تتمثل فيها صفات الأمومة، أو تراه يعوض نقصه بأن يسلك في مسائل الحب الطريق المضاد، فيصبح مشاكساً ومعتدياً؛ وتراه أيضاً إذا لم يكن متحلياً بقسط كافٍ من الشجاعة يشعر بأنه ليس مطلق الحرية في الاختيار. وعندئذ قد يقع اختياره على فتاة مشاكسة معتقداً أنه خير له وأشرف أن يكون الفائز في معركة حامية

الوطيس؛ وذلك طريق لا يؤدي إلى النجاح إذا سلكه أحد الجنسين. ويلوح أن من الحمق والسخف أن تستغل العلاقة الجنسية في إشباع عقدة النقص أو عقدة التفوق، وإن كان هذا هو الذي يقع في كثير من الأحيان. ونحن إذا دققنا النظر رأينا أن أكثر الناس لا يسعون للحصول على زوج بقدر ما يسعون للحصول على شخص يكون ضحية لهم. وهؤلاء لا يعرفون أن العلاقة الجنسية لا يصح أن تُستخدَم لمثل هذا الغرض. ذلك أنه إذا أراد أحد الشريكين أن تكون له الغلبة فإن الشريك الآخر يسلك نفس السبيل، وعندئذ تصبح الحياة المشتركة مستحيلة من كل الوجوه.

وإن تفكير الإنسان في إشباع عقده النفسية ليلقي ضوءاً على بعض مظاهر الشذوذ التي لا يستطاع فهمها بغير نظر إلى هذا التفكير، فهو يدلنا مثلاً لماذا يختار بعض الناس شركاءهم من بين الضعفاء أو المرضى أو المتقدمين في السن. أما سبب هذا الاختيار فهو اعتقادهم أنه يسهل لهم الحياة. وقد يقع اختيار الواحد منهم أحياناً على شخص متزوج، وذلك دليل على عدم رغبته في حل المشاكل. ومن الناس من يقع في حب رجلين أو امرأتين في وقت واحد، ذلك لأن «فتاتين أقل من فتاة واحدة»[1] كما سبق القول.

وقد رأينا أن الشخص المصاب بعقدة النقص يغير من عمله، ويأبى أن يواجه المشاكل، ولا يتم شيئاً البتة. فإذا واجه مشكلة الحب سار فيها هذا السير نفسه، وما حب شخص متزوج أو حب شخصين في وقت واحد إلا وسيلة يستعين بها على إشباع ميله المعتاد. ومن هذا القبيل أيضاً إطالة أمد الخطوبة، أو المغازلة التي لا ينقطع مداها، وهما اللتان لا تنتهيان أبداً بالزواج.

ويظل الأطفال الفاسدون بعد زواجهم مثلاً صادقاً لنمطهم. فهم يبغون من الطرف الآخر أن يدللهم، وهي حالة قد لا تنطوي على شيء من الخطورة في الأيام الأولى من الخطوبة أو في السنين الأولى من سني الزواج. أما فيما بعد فهي خليقة بأن تُحدِث مشاكل معقدة مستعصية. ونستطيع أن نتصور ما يحدث إذا تم زواج بين شخصين مدللين من هذا النوع، فكلاهما يبغي أن

(1) لعله يقصد أن حب فتاتين لا يتطلب من العناء بما يتطلبه حب فتاة واحدة.

يُدلَّل، كما أن كلاهما لا يريد أن يقوم بدور المُدَلِّل. فهما أشبه ما يكونان بشخصين واقفين وجهاً لوجه، وكلاهما ينتظر من الآخر شيئاً يأبى أن يقدمه له، ويحس كلاهما أن صاحبه لا يفهمه.

وفي وسعنا أن نعرف ما يحصل عندما يحس شخص أنه غير مفهوم، وأن نشاطه محدود، فهو يشعر بالنقص ويود لو هرب من الموقف. وذلك شعور أشد ما يكون ضرراً في الزواج وبخاصة إذا تملك الشخص شعور بالقنوط الشديد، وفي هذه الحالة يدب بينهما حب الانتقام، فيبغي كل منهما أن يفسد حياة الآخر؛ وأكثر ما يكون ذلك بأن يخون شريكه، والخيانة دائماً أبداً لون من ألوان الانتقام. صحيح أن الخائنين من هذا النوع يبررون عملهم على الدوام بالتحدث عن الحب والعواطف، ولكننا نعرف قيمة الشعور والعواطف. فهي تتفق دائماً وهدف التفوق، وليس من الصواب أن ننظر إليها على أنها هي العلل الأساسية.

ولنضرب لذلك مثلاً حالة سيدة مدلَّلة تزوجت من رجل كان يشعر دائماً أن أخاه كان السبب في مضايقته، فكان من الطبيعي إزاء ما اتصفت به هذه الفتاة وحيدة أبويها من هدوء وظرف أن يفتتن بها، وكانت هي نفسها تنتظر منه على الدوام أن يقدِّرها ويؤثرها على غيرها. وظل زواجهما سعيداً إلى أن رُزِقا غلاماً. وهنا نستطيع أن نتنبأ بما قد حصل، فالزوجة كانت تبغي أن تكون دائماً موضع العناية، ولكنها خشيت أن يحل الطفل مكانها، ولهذا لم تكن سعيدة جداً بولدها. أما الزوج فكان يبغي أيضاً أن يكون المفضل على سواه، ولهذا كان يخشى أن يسلبه ابنه هذا المركز. وكانت النتيجة أن أضحى الزوج والزوجة يرتاب كلاهما في الآخر. وأكبر الظن أن الوالدين لم يهملا ولدهما، بل كانا أبوين بارين، ولكن كلاهما كان يتوقع على الدوام أن يفتر حب الآخر له. وهذا الارتياب في حد ذاته شديد الخطورة. فإذا شرع أحدهما يزن كل كلمة تصدر من الثاني أو كل فعل يفعله، وكل حركة من حركاته وإشارة من إشاراته، فلن يصعب عليه أن يلحظ، أو أن يظن أنه يلحظ شيئاً من الفتور في حبه له. ولقد وقع الطرفان في ذلك فعلاً فلحظ كل منهما فتوراً من الجانب الآخر. وسافر الزوج في رحلة إلى باريس حيث أصبح حراً طليقاً، وبقيت الزوجة مكبة على العناية بولدها عقب إبلالها من متاعب الوضع. وأخذ الزوج يرسل إليها من

باريس رسائل تفيض سروراً ومرحاً، ويشرح لها كيف يقضي أوقاتاً سارة للغاية مع من يقابلهم من كل الطبقات، ونحو ذلك من العبارات، حتى شعرت الزوجة في آخر الأمر أن زوجها قد أهمل أمرها. وهكذا زالت عنها سعادتها السابقة وأصبحت تتقاسمها الهموم وأصيبت بداء الخوف من المجتمعات فلم تعد تستطيع الخروج منفردة. ولما عاد زوجها ألفى نفسه على الدوام مضطراً إلى ملازمتها. وقد يبدو من هذا أن الزوجة حصل على هدفها بأن أصبحت موضع عناية زوجها، ولكن هذا لم يكن فيه إشباع صحيح لرغبتها لأنها كانت تحس أنها إن فارقها مرضها فارقها الزوج أيضاً، ولهذا ظلت تعاني آلام المرض. وعثرت أثناء مرضها على طبيب عنى بأمرها كثيراً، وشعرت في أثناء عنايته بها أنها أحسن حالاً، ومن ثم اتجه إليه كل ما كان في نفسها من شعور بالصداقة. ولكن الطبيب انقطع عن زيارتها عندما رأى أنها تحسنت فعلاً، فكتبت إليه كتاباً رقيقاً تشكر له فيه ما بذل لها من عناية، فلما لم تتلقَّ منه رداً عاودها المرض وساءت حالها عن ذي قبل.

وفي أثناء ذلك بدأت تنتابها أفكار وخيالات تتعلق بإنشاء صلات ودية ببعض الرجال انتقاماً لنفسها من زوجها. لكن داءها كان واقياً لها من التردي في هذه الهاوية، وذلك لعجزها عن الخروج منفردة واضطرارها إلى أن يرافقها زوجها، ولهذا لم تنجح في سلوك سبيل الخيانة.

وفي الزواج أخطاء كثيرة، وهذه الأخطاء تبلغ من الكثرة درجة تتيح لنا أن نسأل أنفسنا «هل لا بد من وقوعها؟». نحن نعلم أن هذه الأخطاء كلها تبدأ في سن الطفولة، ونعلم أيضاً أن من المستطاع تغيير أساليب الحياة الخاطئة بالتعرف على صفات المثال الأول وتبينها. ومن هنا يحق لنا أن نتساءل: أليس من المستطاع إنشاء مجالس استشارية تستخدم علم النفس الفردي في كشف أغلاط الزواج؟ إذا أنشئت هذه المجالس وجب أن تؤلَّف من أشخاص مدربين يستطيعون أن يدركوا أن كافة الحوادث التي تقع للفرد في حياته تكون حلقات من سلسلة يتصل بعضها ببعض. وفي وسعهم أن يعطفوا على الشخص الذي يستعين بنصحهم، ويحلوا أنفسهم محله؛ فلا يقولون له: «إن الاتفاق بينك وبين زوجك مستحيل وأنتما في عراك مستمر، ولا حل لمشكلتكما

إلا بالطلاق»، إذ ما الفائدة من الطلاق؟ وما الذي يحصل بعد وقوعه؟ إن الذي يحدث عادة أن يسعى للزواج مرة أخرى كل مطلق ومطلقة، وكلاهما يتبع بعد زواجه نفس الأسلوب الذي كان يتبعه من قبل. وفي الناس من طلق غير مرة ولكنه عاد بعد ذلك إلى الزواج من جديد، ومعنى ذلك بكل بساطة أنه يكرر أخطاءه السابقة. وفي وسع هذا الشخص أن يسأل المجلس المقترح هل يقدّر النجاح أو الفشل لعلاقته الزوجية الجديدة؟ كما أن في وسعه أن يستشير المجلس أيضاً قبل أن يقدم على الطلاق.

وثمة أخطاء أخرى صغيرة تبدأ في أيام الطفولة ولا تبدو أهميتها إلا عند الزواج. فثمة أشخاص يظنون على الدوام أنهم سيفشلون في الحياة الزوجية، وثمة أطفال لا ترى على وجوههم أثراً للسعادة وهم في وجل مستمر من إخفاقهم، ومثل هؤلاء الأطفال إما أنهم يشعرون بأنهم قد أزيحوا عن مكانتهم في قلوب ذويهم وأن غيرهم قد حلّ محلهم فيها، وإما أن كارثة أصابتهم فيما مضى فاستولى عليهم خوف لا أساس له من أن تتكرر هذه الكارثة. ومن السهل أن ندرك أن مثل هذا الخوف ينجم عنه ألوان مختلفة من الغيرة والريبة في أثناء الحياة الزوجية.

وتواجه النساء صعوبة خاصة بهن، وهي شعورهن بأنهن مجرد دمى يلعب بها الرجال، وأن الرجال لا يوثَق بهم أبداً، وهي فكرة من شأنها أن تجعل الزواج غير سعيد. فالسعادة مستحيلة قطعاً إذا اعتقد أحد الطرفين أن الطرف الآخر قد يكون غير أمين في علاقته به.

وفي وسعنا أن نقول إن الناس بوجه عام يعدون الحب والزواج أهم مسائل الحياة، وحكمنا يستند إلى الطريقة التي يطلبون بها النصيحة في هذه المسألة. أما علم النفس الفردي فلا يعدهما كذلك وإن تكن أهميتهما مما لا يمكن الحط من شأنها. ذلك أن هذا العلم يعد مسائل الحياة جميعها في درجة واحدة من الأهمية، ولا يرى من بينها واحدة أهمها جميعها. فإذا ما أفرط الناس في الاهتمام بمسائل الحب والزواج، وجعلوا لهما من الأهمية فوق ما ينبغي، فقدوا انسجام حياتهم بعملهم هذا.

وقد يكون السبب في إسراف الناس في الاهتمام بهذا الموضوع أنه من الموضوعات التي لا يتعلمونها تعليماً منظماً كما يتعلمون غيرها من الموضوعات المماثلة لها. عد بذاكرتك قليلاً إلى ما قلناه عن المسائل الثلاث الكبرى للحياة، ترَ أننا في المسألة الأولى وهي المسألة الاجتماعية التي تتضمن سلوكنا مع غيرنا تُلقَّن من أول يوم في الحياة كيف يكون سلوكنا مع الناس، فنتعلم تلك الأشياء منذ نعومة أظفارنا، كما أننا نتلقى دروساً منظمة في دقائق مهنتنا؛ فالمدرسون يعلموننا هذه الفنون، والكتب ترشدنا إلى ما يجب علينا أن نعمله. أما الحب والزواج فأين الكتب التي تعدّنا لهما؟ صحيح أن هنالك طائفة كبيرة من الكتب تتحدث عن هاتين المسألتين، فكل كتب الأدب تقص قصص الحب والغرام، ولكن ما أقل الكتب التي تبحث في السعادة الزوجية. وأكثر ما تهتم به كتب الأدب في ثقافتنا الحاضرة الشديدة الصلة بالأدب هو وصف الرجال والنساء الذين لا تفارقهم الصعاب في حبهم، فهل غريب بعد هذا أن يكون الناس شديدي الحذر في أمور الزواج؟

كذلك كان شأن الإنسان من بدء الخليقة. انظر إلى التوراة تجد فيها أن المرأة هي أصل كل البلاء. وإن الرجل والمرأة ليعانيان من جراء ذلك أكبر الأخطار في حياة حبهما. وما من شك في أن تربيتنا بالحالة التي هي عليها الآن تُضيِّق علينا كثيراً، فهي تعد الولد والفتاة من هذا الناحية كأنما تُعِدُّهما لارتكاب الخطايا، والأجدر أن تُعَدّ الفتاة للقيام بدور الأنثى في الزواج ويعد الولد للقيام بدور الرجل، وأن يُعَد الفتى والفتاة لدورهما هذا بحيث يشعر كلاهما بأنه مساوٍ للآخر كل المساواة.

وليس أدل على أن ثقافتنا قد فشلت في هذه الناحية من شعور النساء بأنهن أقل شأناً من الرجال. وما على القارئ الذي لا يقنعه ما نقول إلا أن يذكر النواحي التي تبذل فيها النساء أكثر جهودهن. فأكثر هذه الجهود منصرف في العادة للتغلب على غيرهن، وهن يتدربن على ذلك أكثر مما ينبغي؛ والنساء فوق ذلك يحصرن اهتمامهن بأنفسهن أكثر من الرجال؛ والواجب في المستقبل أن يعلمن كيف يوجهن اهتمامهن لشؤون المجتمع أكثر مما يوجهنها إليها الآن، وألا ينشدن الفائدة لأنفسهن على الدوام بصرف النظر عما يصيب سواهن.

وللوصول إلى هذه الأغراض يجب أولاً القضاء على الخرافة القائلة بأن للرجال حقوقاً يمتزن بها على النساء.

ولنضرب مثلاً يطلعك على ضآلة استعداد بعض الناس للزواج. كان شاب في أحد المراقص يراقص فتاة جميلة جذابة كانت مرتبطة معه برباط الخطوبة. وقد حدث أن سقط منظاره عن عينيه، ولشد ما كانت دهشة الحاضرين عندما شاهدوه يأتي بحركة عنيفة ليستعيد بها منظاره، كادت الفتاة تسقط من جرائها على الأرض. ولما سأله أحد الأصدقاء عما كان يفعل أجابه قائلاً: «هل كان في وسعي أن أتركها تحطم منظاري؟»، وفي ذلك دليل على أن هذا الشاب لم يكن معدّاً للزواج، وقد حدث بالفعل أن الفتاة لم تتزوجه.

وجاء هذا الشاب فيما بعد إلى طبيب وقال له إنه مصاب بداء السوداء، وهو داء كثيراً ما يصيب الأشخاص شديدي الاهتمام بأنفسهم.

وهناك ألف دليل ودليل نعرف منها الشخص الصالح للزواج وغير الصالح له. فإذا تأخر محب عن موعد لغير سبب معقول وجب ألا يوثق بحبه؛ ذلك أن تأخره دليل على التردد وعلى قلة استعداده لمشاكل الحياة.

ومن الأدلة على عدم الاستعداد للزواج أن نرى أحد الشخصين اللذين يريدان الزواج يحاول دائماً أن يقف من الثاني موقف المعلم، يلقي عليه الدروس ويتناوله بالنقد. وشدة الحساسية أيضاً علامة سيئة لأنها دليل على وجود عقدة نقص. والشخص الذي لا صديق له الراغب عن الاختلاط بالجماعة غير صالح للحياة الزوجية كذلك. ومن العلامات السيئة أيضاً أن يتباطأ الإنسان في اختيار مهنته. وليس من ريب في أن الشخص المتشائم لا يصلح للزواج لأن هذا التشاؤم دليل قاطع على أن المتصف به تعوزه الشجاعة التي يستطيع بها أن يواجه مواقف الحياة.

وعلى الرغم من هذا العدد الجم من الصفات غير المحمودة فإنه ليس من الصعوبة في شيء أن يعرف الشخص الصالح للحياة الزوجية، أو بعبارة أدق أن يعرف الشخص الذي يرجى أن يصلح لها. نعم إننا لا نستطيع أن نجد الشخص الذي يعد مثلاً أعلى لهذه الحياة، وفي الحق أننا إذا رأينا شخصاً يبحث عن زوج

له يكون مثلاً أعلى للزواج ثم لا يجده قط وجب ألا نتردد في الحكم بأن هذا الشخص مصاب بداء التردد. ولنا أن نقول إنه شخص لا يريد أن ينجح في الحياة.

وثمة طريقة ألمانية قديمة يُعرَف بها هل الزوجان صالحان للزواج أو غير صالحين له. فقد جرت العادة في ريف تلك البلاد أن يعطى الزوجان منشاراً ذا مقبضين، وأن يمسك كلاهما بأحد المقبضين، ثم يطلب إليهما أن ينشرا جذع شجرة، ويقف قاربهما من حولهما يشاهدون ما يفعلان. ومن المعلوم أن نشر الشجر عملية من العمليات التي يقوم بها اثنان بشرط أن يعنى كل منهما بما يفعل الآخر، بحيث تكون كل حركة من حركاته متفقة مع حركة زميله؛ وتعد هذه الطريقة في نظرهم اختباراً صحيحاً لصلاحية الشخصين للزواج.

ونختم هذا الفصل بأن نعيد هنا ما قلناه من قبل، وهو أن مسائل الحب والزواج من المسائل التي لا تحل إلا على أيدي الأشخاص المتصفين بخلة التوافق الاجتماعي، وأن أغلب الأخطاء التي تقع في هذه المسائل إنما ترجع إلى نقص الاهتمام بأمور المجتمع، وأن الطريقة المثلى الوحيدة لاتقاء هذه الأخطاء هي أن يغير الإنسان من سلوكه. والزواج عملية تتطلب من شخصين أن يقوم كل منهما بواجبه نحو الآخر، ولكن أحداً لا ينكر أننا لا نُعَد إلا للواجبات التي يؤديها شخص بمفرده أو التي يؤديها عشرون شخصاً مجتمعين. أما الواجبات التي تتطلب شخصين فلا نُعَد لها مطلقاً. وعلى الرغم من هذا النقص المشاهَد في هذه الناحية من نواحي التربية، فإن مسائل الزواج يمكن معالجتها علاجاً ناجحاً موفقاً إذا عرف كل من الزوجين الأخطاء الخلقية التي فيه، وعالج المسائل بروح المساواة.

ويكاد يكون من نافلة القول أن نضيف إلى ما تقدم أن خير أنواع الزواج هو الزواج بواحدة؛ وثمة كثيرون يدعون أن تعدد الزوجات أقرب إلى الطبيعة البشرية، ويبنون ذلك على أسس شبه علمية. وذلك قول لا يقبله العقل، لأن الزواج والحب في ثقافتنا الحاضرة مهمتان اجتماعيتان، فنحن لا نتزوج لمصلحتنا الشخصية، بل نتزوج ليستفيد بزواجنا المجتمع من طريق غير مباشر. والزواج يُقصَد به آخر الأمر صالح النوع الإنساني بوجه عام.

الفصل الثاني عشر

المسائل الجنسية
وما ينشأ عنها من مشاكل

لقد تكلمنا في الفصل السابق على مسائل الحب والزواج العادية، وننتقل الآن إلى حالة خاصة من حالات هذه المسألة العامة، وهي المشاكل الجنسية وأثر هذه المشاكل فيما يعترض سبيلنا من شذوذ مختلف الأنواع حقيقياً كان ذلك الشذوذ أو موهوماً. ولقد رأينا في الفصول السابقة من هذا الكتاب أن معظم الناس أقل استعداداً لمواجهة مسائل الحب منهم لمواجهة المسائل الأخرى وأنهم أقل مراناً عليها، وهذا الحكم يصدق على المسائل الجنسية أكثر مما يصدق على مسائل الحب بوجه عام. وإن الإنسان ليعجب من كثرة ما يوجد في أذهان الناس من الخرافات المتصلة بهذه المسألة، والتي يجب أن تمحى منها محواً تاماً.

وأكثر هذه الخرافات انتشاراً خرافة توارث الخصائص الجنسية، أي الاعتقاد بأن ثمة درجات من الصفة الجنسية يتوارثها الأبناء عن الآباء ولا يستطاع تغييرها بحال. وليس أسهل من أن تتخذ مسائل الوراثة حججاً يُحتال بها على الهروب من المشاكل، وأن تقف هذه الحجج الباطلة في سبيل حلها، وإصلاح الخطأ المتصل بها. ولهذا كان من الواجب علينا أن نبحث بعض الآراء التي يعرضها أصحابها على أنها من الحقائق العلمية لنعرف غثها من ثمينها. وذلك لأن الرجل العادي الذي لم يضرب في العلم بسهم يأخذ هذه الآراء على

أنها حقائق لا تقبل الشك، ولا يعرف أن أصحابها إنما يذكرون النتائج وحدها ولا يبحثون في مقدار ما يستطيعه الإنسان من الامتناع عن ممارسة العلاقة الجنسية، ولا في المنبهات الاصطناعية للغريزة الجنسية، وهي التي تؤدي إلى هذه النتائج.

وتوجد الظاهرة الجنسية في وقت مبكر جداً في الحياة، وفي وسع كل مربية أو والدة تعنى بملاحظة أطفالها أن تشاهد في الأيام الأولى بعد مولد الطفل بعض حركات وتهيجات جنسية. على أن ظهور هذه المظاهر الجنسية موقوف على البيئة المحيطة بالطفل أكثر مما قد يظنه الإنسان، فإذا ما بدأ الطفل يعبر عن هذه الغريزة، وجب على أبويه أن يبحثا عن الوسائل التي يحولان بها انتباهه إلى غير هذه الناحية؛ وكثيراً ما يستخدمون لذلك وسائل لا تنتج النوع الصحيح من التحويل، كما أنهم قد لا يكون في وسعهم أحياناً أن يجدوا الوسائل الصالحة.

وإذا لم يوجَّه الطفل في مراحل نموه المبكرة نحو واجباته الصحيحة فقد تنمو فيه بطبيعة الحال رغبة شديدة في الحركات الجنسية، وقد رأينا أن هذا نفسه يحدث لأعضاء الجسم الأخرى، وليست أعضاء التناسل بمستثناة من هذه القاعدة. ولكن الإنسان يستطيع أن يسوس الطفل سياسة صحيحة في هذه الناحية إذا ما بدأ هذه السياسة في عهد مبكر.

ويمكن القول بوجه عام إن المظاهر الجنسية في الطفل من المظاهر المألوفة العادية، ولذلك لا يحق لنا أن يزعجنا ما نشاهده من حركات الطفل الجنسية. ذلك أن الهدف الذي يرمي إليه كل من الذكر والأنثى هو أن يجتمع كلاهما في نهاية الأمر بالآخر، ومن أجل ذلك ينحصر واجبنا في هذه الأحوال في الانتظار اليقظ والتأكد من أن التعبير عن الرغبة الجنسية لا يسير في الطريق الخاطئ.

ويميل الناس إلى أن يعزوا للضعف الوراثي ما هو في الحقيقة نتيجة عادة درّب الشخص عليها نفسه في أثناء طفولته. ومن الناس من يرى أن هذه العادة التي درب الشخص نفسه عليها صفة موروثة، فإذا اتفق أن كان شخص

يعنى من الناحية الجنسية بجنسه هو أكثر مما يعنى بالجنس الثاني عدَّ هذا نقصاً موروثاً، ولكن الذي نعرفه نحن أن هذا النقص ينمو مع الشخص يوماً بعد يوم. ونرى في بعض الأحيان طفلاً أو يافعاً تظهر عليه علامات الشذوذ الجنسي، وفي هذه الحالة أيضاً يعتقد كثيرون أن هذا الشذوذ موروث، ولكنه إذا كان موروثاً فلماذا يدرب الشخص نفسه عليه؟ ولماذا يحلم به ويكرر العمل نفسه في حلمه؟

ويمتنع بعض الأشخاص عن ممارسة هذا العمل في وقت معين، وفي وسعنا أن نفسر هذا بالاستعانة بعلم النفس الفردي. فمن الناس مثلاً من يخشون العجز في العلاقة الجنسية، وهؤلاء مصابون بعقدة نقص، وقد يندفعون في هذا العمل الجنسي إلى حد يوجد فيهم عقدة تفوق. وفي وسعنا أن نلاحظ في الحالات التي من هذا النوع حركة مبالغاً فيها تظهر بمظهر الإمعان في الأعمال الجنسية، وقد يكون لهؤلاء قدرة جنسية أكثر مما لغيرهم.

وقد تزيد البيئة هذا النوع الخاص من العمل الجنسي. فالصور والكتب والخيالة والصلات الاجتماعية تقوي هذا الدافع الجنسي إلى حد كبير، وفي وسع الإنسان أن يقول إن من شأن كل شيء في هذه الأيام أن ينمي في الشخص اهتماماً مفرطاً بالأمور الجنسية. وليس بنا من حاجة إلى الحط من شأن هذه الدوافع العضوية وما لها من أثر هام في الحب والزواج وبقاء النوع البشري، لنتخذ ذلك حجة نثبت بها أن الناس في هذه الأيام يبالغون في أهمية الأمور الجنسية.

وأكثر ما يجب أن يحتاط له الآباء الذين يراقبون أبناءهم هو المبالغة من جانب هؤلاء الأبناء في الميول الجنسية، فكثيراً ما تبالغ الأم في الاهتمام بأول الحركات الجنسية في سن الطفولة، فتغري بذلك الطفل نفسه على المبالغة في أهميتها. ولربما أزعجتها هذه الحركات وجعلتها تشغل كل وقتها بهذا الطفل، فلا تنفك تحدثه عن هذه الأمور وتعاقبه عليها. ونحن نعرف كثيرين من الأطفال يحبون أن يكونوا موضع اهتمام غيرهم، ولهذا يحدث كثيراً أن يداوم الطفل على عاداته لا لشيء إلا لأنه يؤنب عليها؛ ومن ثم كان من الخير ألا يبالغ الآباء في قيمة هذا الأمر أمام الأبناء، بل عليهم أن يعالجوه على أنه من الصعاب

العادية؛ فإذا لم يُظهِر الإنسان للأطفال أنه شديد الاهتمام بهذه المسائل أراح نفسه من هذه الناحية.

وقد تكون هناك وراء الطفل تقاليد تميل به في اتجاه معين. فقد لا تكون الأم قوية العاطفة فحسب، بل قد تكون أيضاً ممن يظهرن عاطفتهن بالتقبيل والعناق ونحوهما، ومن الواجب ألا تسرف الأمهات في هذه الأشياء وإن كان كثيرات منهن يؤكدن أنهن لا يستطعن الامتناع عنها. وجدير بأولئك الأمهات أن يعلمن أن هذه الأعمال ليست دليلاً على الحب الأموي، وخير ما توصف به أن الأم في هذه الحال تعامل الطفل معاملة الأعداء لا معاملة الأبناء، ذلك أن الطفل المدلل لا ينمو نمواً حسناً من الناحية الجنسية.

وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن كثيرين من الأطباء وعلماء النفس يعتقدون أن نمو الغريزة الجنسية أساس نمو العقل والنفس وجميع الحركات الجسمية على اختلاف أنواعها. وفي رأيي أن هذا يخالف الحقيقة، لأن الشكل الذي تتخذه الغريزة الجنسية كلها ونموها موقوفان على شخصية المرء أي على أسلوب حياته ومثاله الأول.

فإذا عرفنا مثلاً أن طفلاً يعبر عن الغريزة الجنسية بطريقة ما وأن طفلاً آخر يقمعها جاز لنا أن نحزر ما سوف يحدث لكليهما متى كبر وكمل نموه. وإذا عرفنا أن طفلاً يريد على الدوام أن يكون موضع العناية وأن يسيطر على غيره عرفها أنه سينمي الغريزة الجنسية فيه بحيث تمكنه أيضاً من السيطرة ومن أن يكون موضع الاهتمام.

ويعتقد الكثيرون من الناس أنهم متفوقون مسيطرون حين يظهرون غريزتهم الجنسية بطرق تعدد الأزواج. ولهذا تراهم يتصلون اتصالاً جنسياً بأشخاص كثيرين. ومن اليسير علينا أن ندرك أن هؤلاء يبالغون في رغباتهم واتجاهاتهم الجنسية عن قصد وتعمد لأغراض نفسانية؛ فهم يظنون أنهم يصبحون بتلك الطريقة فائزين قاهرين لغيرهم. وذلك وهم باطل بطبيعة الحال، ولكنه وهم يعوضهم عما يحسون به من عقدة نقص فيهم.

وعقدة النقص هي أصل الشذوذ الجنسي بكافة أنواعه، وذلك لأن الشخص المصاب بعقدة النقص يبحث على الدوام عن خير الطرق للهروب منها؛ وقد يجد في بعض الأحيان أن أسهل الطرق هو أن يحجز نفسه عن معظم نواحي الحياة، وأن يبالغ في الحياة الجنسية.

وما أكثر ما نجد هذا الميل في الأطفال! نجده عادة بين الأطفال الذين يريدون أن يشغلوا غيرهم، فهم يشغلون آباءهم وأمهاتهم ومدرسيهم بما يخلقون لهم من الصعاب، وبذلك يصرفون جهودهم في النواحي غير النافعة من الحياة. وتراهم بعد ذلك في حياتهم يشغلون غيرهم بميولهم ويريدون أن يتفوقوا في تلك الناحية، ويشب هؤلاء الأطفال وهم يخلون بين ميلهم الجنسي وميلهم إلى القهر والتفوق. وربما رأيتهم في بعض الأحيان في أثناء حجزهم أنفسهم عن بعض ممكنات الحياة ومشاكلها، يحجزونها أيضاً عن جميع الجنس الآخر، ويمارسون عادة الاتصال الجنسي بشخص من جنسهم. ومن المشاهدات ذات الدلالة أن المبالغة في الصلات الجنسية كثيراً ما تشاهد بين الأشخاص الذين توجد فيهم الغريزة الملتوية، وهم في الواقع يسرفون في ميلهم إلى هذا الالتواء ليضمنوا بهذا الإسراف عدم اضطرارهم إلى مواجهة مشكلة الحياة الجنسية العادية التي يرغبون في تجنبها.

وليس في مقدورنا أن نفهم هذا كله إلا إذا فهمنا أسلوب حياتهم. أولئك أشخاص يريدون أن يوجه إليهم كثير من الالتفات، ولكنهم مع ذلك يعتقدون أنهم غير قادرين على أن يوجهوا إلى أنفسهم اهتمام الجنس الثاني بدرجة كافية. فهم مصابون بعقدة نقص في علاقتهم بالجنس الثاني يمكن تتبع آثارها إلى سن الطفولة، وقد يكون من أسبابها مثلاً أنهم وجدوا أخلاق بنات الأسرة أو أخلاق الأم أكثر جاذبية من أخلاقهم هم، فبعث ذلك في نفوسهم الشعور بأنهم لن يكون في مقدورهم في يوم من الأيام أن يثيروا عاطفة النساء نحوهم. وقد يعجبون بأخلاق الجنس الثاني إعجاباً يبلغ من شدته أن يأخذوا في تقليد أفراده، ولهذا السبب نرى رجالاً في مظهر النساء ونساء في مظهر الرجال.

ولدينا من الشواهد التي توضح تكوين هذه الميول السالفة الذكر حالة رجل اتهم بالسادية وبتعذيب الأطفال. ولما بحثت حالة هذا الرجل تبين أنه كانت له أم ذات قوة وسلطان، لم تكن تنقطع عن توجيه النقد إليه؛ وكان رغم هذا في المدرسة تلميذاً طيباً ذكياً، ولكن أمه لم تقنع بما أصاب فيها من نجاح، ولذلك كان شديد الرغبة في أن يُخرِج أمه من نطاق عواطفه العائلية، فلم يكن يميل إليها، وأخذ يشغل نفسه بوالده حتى أصبح قوي الصلة به.

وفي وسعنا أن نرى كيف تتكون في نفس هذا الشخص وأمثاله عقيدة أن النساء قاسيات مرائيات، وأن الاتصال بهن لا يمكن أن يكون مصدر سرور، ويجب ألا يتعدى الضرورات القصوى، ومن ثم أخذ يحجز نفسه عن النساء، وكان هذا الشخص إلى ذلك من النوع الذي يهتاج جنسياً عندما يخاف. وهذا النوع من الناس المصاب بالضجر، والذي ينتابه الهياج الجنسي السالف الذكر يبحث على الدوام عن الظروف التي تُبعِد عنه الخوف. وقد يحب في مستقبل حياته أن يعاقب نفسه، أو يعذبها، أو يرى طفلاً يعذَّب؛ وقد يبلغ به الأمر أن يتوهم أنه هو أو شخص آخر يعذَّب. ووجود هذه الصفات فيه يثير هذا الهياج الجنسي الذي يشبعه في أثناء هذا التعذيب الحقيقي. وتدل حالة هذا الرجل على ما يؤدي إليه التدريب الخاطئ؛ فهو لم يعرف قط ما بين عاداته كلها من الارتباط؛ وإذا كان قد عرفها فقد كانت معرفته بها بعد أن فات أوان الاستفادة من هذه المعرفة لإصلاح ما في عادته من الخطأ. ولا حاجة إلى القول بأن من الصعب أن نبدأ بتدريب شخص تدريباً صحيحاً في سن الخامسة والعشرين أو الثلاثين، لأن السن التي يفيد فيها هذا التدريب هي سن الطفولة المبكرة.

لكن الأمور تتعقد في هذه السن بسبب علاقات الأطفال النفسانية بآبائهم. ومن أعجب الأشياء ما نلاحظه من تكوّن عادات جنسية خاطئة في أثناء النزاع النفساني بين الطفل وأحد والديه. فالطفل المكافح مثلاً وبخاصة في سن المراهقة يسيء استخدام الغريزة الجنسية عن تعمد وقصد ليؤذي بهذه الإساءة والديه. وقد عُرِف أن أولاداً وبنات لجأوا إلى العلاقات الجنسية على أثر شجار مع آبائهم وأمهاتهم، وسبب ذلك أن الأطفال يلجأون إلى هذه

الوسيلة لينتقموا لأنفسهم من هؤلاء الآباء والأمهات، وبخاصة حين يرونهم شديدي الحساسية من هذه الناحية. والطفل المشاكس يلجأ في جميع الأحوال تقريباً إلى هذه الطريقة من طرق الكفاح.

وليس ثمة طريقة لمنع هذه الحركات إلا إشعار كل طفل بأنه مسؤول عن نفسه، حتى لا يعتقد أن مصلحة الآباء وحدها هي التي تتعرض للخطر، بل يرى أن مصلحته هو أيضاً تتعرض له.

وتتأثر الأمور الجنسية بأحوال البلد السياسية والاقتصادية، كما تتأثر بالبيئة التي يعيش فيها الطفل والتي تظهر واضحة في أسلوب حياته. فهذه الأحوال السياسية والاقتصادية تنشأ عنها حالة اجتماعية سريعة العدوى واسعة الانتشار. فقد وُجِدت في روسيا مثلاً حركة جنسية قوية عقب الحرب الروسية اليابانية وفشل الثورة الروسية الأولى حين فَقَد الناس آمالهم وثقتهم، وعمّت هذه الحركة جميع الكبار والمراهقين رجالاً ونساء. وفي وسع الإنسان أن يشاهد مثل هذه المغالاة في الصلات الجنسية في أثناء الثورات؛ ولا حاجة إلى القول بأن الناس ينغمسون في الشهوات الجنسية انغماساً مروعاً في أثناء الحروب لأن الحياة تبدو لهم عديمة القيمة.

ومن الغريب أن رجال الشرطة يعرفون أن الناس يتخذون الصلات الجنسية وسيلة يخففون بها اضطراباتهم النفسانية، وشاهد ذلك أن رجال الشرطة في أوروبا على الأقل يتجهون إلى دور النساء الساقطات عندما تُرتكَب جريمة، وفي هذه الدور يجدون القاتل أو المجرم الذي يبحثون عنه، وهم يجدونه فيها لأن المجرم يجد نفسه بعد ارتكاب الجريمة مُجْهَداً متوتر الأعصاب فيضطر إلى البحث عما يخفف هذا التوتر؛ وهو إلى هذا يريد أن يقنع نفسه بما له من قوة، وأن يثبت أنه لا يزال مخلوقاً قوياً لا نفساً ضائعة.

ومن الطريف أن نورد هنا ما قاله أحد الفرنسيين، وهو أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يأكل وهو غير جائع ويشرب وهو غير صاد، ويلجأ إلى الاتصالات الجنسية في كل الأوقات. وفي الحق أن إطلاق العنان للغريزة

الجنسية لا يختلف في شيء عن إطلاق العنان لغيرها من الشهوات. والإنسان إذا أطلق العنان لأي واحدة منها وأسرف في تنميتها فوق الحد الواجب أثر ذلك في انسجام الحياة. وسجلات الحوادث النفسانية غاصّة بقصص الأشخاص الذين أفرطوا في تنمية شهواتهم أو ناحية من نواحي اهتمامهم إفراطاً جعل لها السيطرة عليهم. ومن الحقائق التي يعرفها الرجل العادي حالة البخيل الذي يبالغ في أهمية المال. ومن الشواهد الأخرى حالة الأشخاص الذين يظنون أن النظافة أهم شيء في العالم، فهم يصرفون يومهم كله ونصف ليلهم في الاغتسال. وثمة أشخاص يضعون الأكل في الدرجة الأولى من الأهمية، فتراهم طوال اليوم يأكلون ولا يهتمون إلا بما يأكلون ولا يتحدثون إلا عما يأكلون.

وليس الإفراط في العلاقات الجنسية بالذي يختلف في شيء عما سبق، ويؤدي هذا الإفراط إلى اختلال في جميع نواحي النشاط الإنساني، وهو لا بد موجِّه أسلوب الحياة كله إلى الناحية غير النافعة منها.

ولذلك كان من أوجب الواجبات فيما يختص بالغريزة الجنسية أن يُسيطَر على الدوافع الجنسية وأن تُستخدَم كلها للوصول إلى هدف نافع تفصح عنه جميع نواحي نشاطنا؛ وإذا ما أُحسن اختيار هذا الهدف فلن يفرط الشخص في الأعمال الجنسية ولا في غيرها من الأعمال التي تفصح عنها حياته.

وإذا كان من الواجب أن يسيطر الإنسان على جميع شهواته ومواضع اهتمامه ويؤلف بين بعضها وبعض، فإن في قمعها قمعاً تاماً خطراً شديداً. فكما أن الإنسان إذا تغالى في الإقلال من الطعام أضرّ ذلك بجسمه وعقله، كذلك لا يصح أن يمتنع الإنسان عن الصلات الجنسية امتناعاً تاماً.

والذي نعنيه بقولنا هذا هو أن الحاسة الجنسية تجد في أسلوب الحياة العادي وسائل للإفصاح عن نفسها إفصاحاً صحيحاً. ولسنا نعني به أن الأمراض النفسية التي تدل على أسلوب للحياة غير متزن يكفي للتغلب عليها أن يكون لصاحبها حرية الصلة الجنسية. وإن الاعتقاد الشائع بأن الشبق المقموع هو علة الأمراض النفسية اعتقاد خاطئ، والصحيح هو عكسه أي أن المصابين بالاضطرابات النفسية لا يعبرون عن الغريزة الجنسية أحسن تعبير.

وقد يلتقي الإنسان بأشخاص أُشير عليهم بأن يداووا اضطراباتهم النفسية بإشباع غريزتهم الجنسية، فلما اتبعوا هذه النصيحة زادت حالهم سوءاً، لأنهم عجزوا عن أن يسيطروا على حياتهم الجنسية ويوجهوها إلى غرض نافع من الوجهة الاجتماعية. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تُصلِح ما هم مصابون به من الاضطرابات النفسية. وليس إشباع الغريزة الجنسية بكافٍ وحده لشفاء الاضطراب النفسي، لأن ذلك الاضطراب مرض يصيب أسلوب الحياة، إذا جاز أن نعبر عنه ذلك التعبير، ولا يستطاع شفاؤه إلا بمداواة أسلوب الحياة نفسه.

تلك كلها أمور لا يخفى منها شيء على الملم بعلم النفس الفردي، فهي واضحة له وضوحاً لا يتردد معه في أن ينصح معها بالزواج السعيد على أنه الحل الصحيح الوحيد للمتاعب الجنسية. ولكن المصاب بالاضطرابات النفسية لا يعجبه هذا الحل، لأنه جبان دائماً غير مستعد للحياة الاجتماعية. وكل الذين يبالغون في الاهتمام بالصلات الجنسية ويشغلون وقتهم بالتحدث عن تعدد الزوجات والرِّفَق، والزواج للتجربة ونحوها، كل أولئك يحاولون أن يهربوا من الحل الاجتماعي لمشكلة العلاقة الجنسية، لأنهم لا صبر لهم على العِمل للتوافق مع المجتمع، وحل ما يصادفهم من المشاكل في أثنائه بتنمية العناية المتبادلة بين الزوج والزوجة. وهم بدلاً من هذا يرغبون في الهروب منها بالالتجاء إلى وسيلة غيرها جديدة في نوعها. لكن أكثر الطرق مشقة هو في بعض الأحيان أدناها إلى الغرض المنشود.



الفصل الثالث عشر

الخاتمة

والآن قد آن أن نفرغ من الإدلاء بنتائج بحوثنا. وجدير بنا في هذه الخاتمة أن نؤكد أن منهاج علم النفس الفردي يبدأ بمشكلة النقص وينتهي بها.

وقد رأينا أن النقص هو أساس الجهود البشرية والنجاح البشري، ولكن الشعور بالنقص هو أيضاً أساس جميع المشاكل الخاصة بعدم التوافق النفساني. وإذا عجز الفرد عن أن يجد هدفاً للتفوق محسوساً نشأ عن هذا العجز عقدة نقص، وينشأ عن عقدة النقص هذه رغبة في الهرب يعبر عنه الشخص بعقدة تفوق؛ وليست هذه الرغبة إلا هدفاً في الجانب غير النافع من الحياة يعرض على الشخص ما يرضيه من نجاح كاذب.

هذه هي الأداة القوية المحركة للحياة النفسانية؛ ولكي نزيد هذه المسألة وضوحاً نقول إن الأخطاء التي نشاهدها في الأعمال النفسية تكون في بعض الأوقات أشد ضرراً منها في أوقات أخرى. ونعرف أن أسلوب الحياة يتبلور في صورة ميول تتكون في عهد الطفولة، في المثال الأول الذي ينمو في سن الرابعة أو الخامسة. وإذ كان الأمر كذلك فإن التوجيه الصحيح لحياتنا النفسانية إنما هو التوجيه الصحيح للطفولة نفسها.

وقد أوضحنا أن الغرض الذي يجب أن نضعه نصب أعيننا في توجيه الطفولة التوجيه الصحيح هو أن نغرس في نفوس الأطفال الاهتمام الاجتماعي الذي يمكن أن تتبلور فيه الأهداف النافعة السليمة. وليس ثمة طريق غير

تدريب الأطفال ليلتئموا مع نظام المجتمع يستطاع به السيطرة على الشعور العام بالنقص، ومنع هذا الشعور أن يتحول إلى عقدة نقص أو عقدة تفوق.

والتوافق الاجتماعي هو الناحية الأخرى المقابِلة لمشكلة النقص. ذلك أنه لا يوجد سبب يوجب على الناس أن يعيشوا في مجتمعات إلا أن الفرد منهم ناقص وضعيف، ولهذا كان الاهتمام الاجتماعي والتعاون الاجتماعي هما الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الفرد من نقصه وضعفه.

فهرس



THE PSYCHOLOGICAL LIFE علم نفس



الحياة النفسيّة ألفرد آدلر

ليس من المستطاع أن يُستمدّ علم النفس الإيجابيّ من الظواهر النفسيّة وحدها، وإذا كان ذلك مستحيلاً فأكثر منه استحالةً أن يُستمدّ من مظاهر المرض وحده. إنّ هذا العلم يحتاج، فوق ذلك، إلى أساس تنظِّم هذه الظواهر بمقتضاه؛ ولم يُحجم **ألفرد آدلر** عن الاعتراف بهذه الحاجة، وذلك باعترافه بمنطق الصلات الاجتماعيّة في الدنيا علَى أنّه حقيقة مطلقة من حقائق ما وراء الطبيعة، فإذا أقررنا هذا المبدأ وجب علينا أن ننتقل إلى النظر في نفسيّة الفرد من حيث علاقته به؛ ويمكن تحديد الطريقة الّتي تربط حياة الفرد الداخليّة بالكائن الاجتماعيّ في ثلاثةٍ من «اتّجاهات الحياة» - كما يسمّيها العلماء - وهي استجاباته العامّة للمجتمع وللعمل وللحبّ.